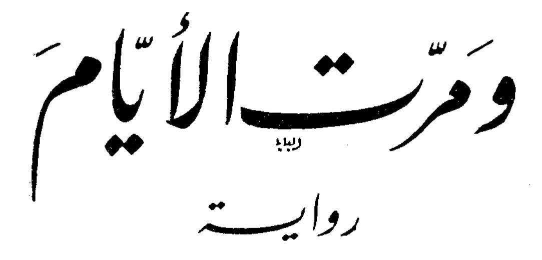
حامد دمنهوري



رواية

دار العلم للملايين
بيروت

الطبعة الاولى

نيسان (ابريل) ١٩٦٣

ومرت الايام

مقدمة

لقـــد كان المفروض ان تكون هذه الرواية بين يدي القارىء منذ زمن . فقد بدأت في كتابتهـا في مطالـــع خريف عام ١٩٦١ ، وما ان أزف الصيف حتى كنت على وشك الانتهاء منها ، وحملتها معي في صيف العام نفسه الى اوروبا وكنت متفائلاً جـــداً في ان انتهي من كتابتها هناك ، ولكني عدت بعـد انتهاء الصيف ولم أزد على ما كتبت حرفاً واحداً . وبعودتي كنت اقتنص الفرص لاكمالها .

وقد كان ، فقـــد انتهيت منها في شتاء عام ١٩٦٢ وأعددت العدة لان ادفع بهـــا الى المطبعة خلال الصيف الماضي .

وفي مطلع الصيف تركتها على المكتب في منزلي بالرياض وتوجهت الى الطائف على امل العودة الى الرياض بعــد يومين او ثلاثة .

ولكن الغيبة طالت وطالت على غير توقع، فقد كلفت من الطائف بمهمة رسمية وتوجهت من الطائف الى خـارج المملكة رأساً ، وامتـدت المهمة حتى استغرقت من وقتي الصيف كله ، وعدت في مطلع الخريف الى الرياض مرة اخرى ووقع نظري اول ما وقع على الرواية وهي تتطلع إليّ وكأنما تستجدي عطفي لاخراجها الى النور .

وبعد تردد لم يدم طويلاً ، دفعت بهــا الى الطبع ، لتكون الثانية بعد قصتي الاولى « ثمـن التضحيــة » تلك التي صورت فيها فــترة من فترات تطورنا الفكــري والاجتماعي .

وقد حاولت في هذه الرواية ان اصور فترة اخرى من فترات التطور في بلادنا ، فاخترت بطل القصة من بين هذا الجيل الصاعد الذي يعاصر تطورنا الحديث في اعوامنا القليلة الماضية .

وبعد ، فلا أدري هل اصبت أم اخطأت في اخراج هذه الرواية ، سؤال أردده دائماً ، ربما يومي الى عدم الرضا ، او القلق او أي احساس آخر .

انها على كل حال ، استجابة لصوت توهمته ارتفع من

بين اوراق القصة وهي على مكتبي ، وكأنما كان عنوان الرواية هــو النداء الذي استحثني الى ان اتناول الاوراق بتحمس وابعث بها الى المطبعة تحمل على غلافها هذا النداء الذي استجبت له بعد تردد « ومرت الايام » .

الرياض في ١٠ شوال ١٣٨٢
٦ مارس ١٩٦٣

المؤلف

١

كان ضوء النهار قد بدأ يمتد في عرض الافق ويعلن بامتداده مولد يوم جديد في حياة (عزيزة) وكانت قد فرغت وشيكاً من اداء صلاة الفجر .

ومدت يمناها — في حركة تعودتها كل صباح — تدثر ابنها الاصغر بغطائه الذي انحسر عنه وتتحسس بها شعر رأسه في حنان دافق .

وقبل ان تهم بمغادرة مكانها استشعرت نوبة سعال تزحف على صدرها ، فأدارت وجهها بعيداً عن ابنيها النائمين بالقرب منها ورفعت يديها الاثنتين في محاولة سريعة تكتم بها صوت السعال المفاجىء ، بيد ان صدى الصوت كان أقوى من يديها الواهيتين ، فتردد في قوة وعنف بين الجدران زاد من حدته الصمت الذي كان يخيم على أرجاء المجلس .

وعلى صدى السعال القوي ، استيقظ اسماعيل من نومه وقفز جالساً في فراشه. وبعد ان ألقى نظرة عجلى على أخيه الأصغر الذي ما زال يغط في نومه ، زحف قليـــلاً في مواجهة أمه ورفع اليها عينيه الزائغتين في تساؤل قلق بعد ان عركهما بظهر يمناه يزيح عنهما بقايا النوم . والتفتت اليه أمه في ذعر تسأله بصوتها الخافت :

— مالك ؟

ولم يجبها اسماعيل بل واصل النظر إلى وجهها المحتقن من أثر السعال وقال في صوت واضح النبرات كمن يقرر حقيقة اكتشفها بعد جهد :

— أراك مرهقة منذ أيام .

وردت عليه أمـه وهـــي تبتسم كأنما تحاول ان تمحو بابتسامتها آثار الحقيقة التي اكتشفها اسماعيل :

— لست مرهقة ، عد الى فراشك .

ورانت على سمات وجهها الابيض أطياف حزن شعرت بها دون ان تراها . وأحست بقوتهـــا وهي تشدّ صفحة وجهها من أطرافه فتحولت سحنتها المشرقة الى كآبة قاسية.

انها تشعر بالارهاق حقاً ومنذ زمن ، ولكنهـا لم تتألم ولم تشكُ لأحد ، بل حاولت ان لا يكتشف واحـد من ابنيها ما تشعر به ضناً منها عـلى ان يغيض رونق السعادة من هذا البيت السعيد ، وسعادة هذا البيت في نظرها تتمثل في بقائها هي على الصورة التي وجدها عليهـــا ابناها منذ

وفاة والدهما ؛ سيدة لهذا البيت، وركناً يرتكز عليه بناؤه، تشرف على شؤونه وتدير أموره منذ عشر سنوات على وجه التحديد ، منذ ان توفي زوجها الاستاذ سامي المدرس بمدرسة الفلاح .

ولقد أحسّت بالشقاء يوم ان احست بمرضها ، وأصرت على ان تتماسك أمام ابنيها خشية ان تتلاشى هذه الصورة المشرقة من هذا البيت الصغير .

لقد كانت للصغيرين منذ وفاة والدهما – اباً وأماً ومودعاً لاسرارهما وقلباً كبيراً يحمل عنهما الألم ومتاعب العيش ويزين لهما الحياة ، بل كانت هي ذاتها صورة لجمال الحياة بوجهها الأبيض الناصع الجميل ، وقامتها الطويلة ، التي كانت تمثل في نظر ولديها امتداد الأمل واشراقة الحياة، وبابتسامتها الدائمة التي كانت ترسم لهما طريق الأمل والثقة .

وكثيراً ما كانت تترك ماكينة الخياطة بعد عمل متواصل يستمر ست ساعات وتستأنف اعمالها المنزلية الاخرى بجهد تبذله ومشقة تتكبدها عن طيب خاطر وبنفس مطمئنة في انتظار عودة ابنيها من المدرسة ظهر كل يوم . وربما نقمت نفسها – في لحظة خاطفة من هذا الارهاق الذي تلاقيه في حياتها ، بل ربما ندبت حظها التعس في خطرة من خطرات التمرد على هذه الحياة المرة ، ولكن سرعان ما يتلاشى ركام التمرد من نفسها وتطمئن الى واقعها الذي تعيش فيه عندما تواجهها نظرات اسماعيل او منصور ،

فيفتر ثغرها عن ابتسامة وينطلق لسانها بكلمة ترحيب تقابلها ابتسامة من اسماعيل او منصور تمسح كل احزانها وتذيب كل ما تشعر به من ألم وارهاق ، بل تحس بالسعادة وكأنها تيار يجري في شرايينها يغذيها بالقوة التي تعينها على تحمل متاعب الحياة .

لم يكن اسماعيل قد عاد الى فراشه او زايل مكانه في مواجهة امه،وانما راح ينظر اليها من وراء اهدابه الوطف – السمة الوحيدة التي ورثها عن امه – وطال صمته وهو يفكر .

وعندما ربتت بيدها على شعر رأسه في الحركة الحنون التي تعودها منها واستشعر الجو الذي تأنس اليه امه قال كأنما يناجيها بلغة خاصة درجا على المفاهمة بها « لقد آن الاوان » . وردّت عليه بعد ان استعادت ابتسامتها « امامنا سنوات » .

ومدّ اسماعيل رجليه في حركة تمثيليـــة وهو يقول : انظري، لقد كبرت ... اني في السابعة عشرة من عمري، أليس كذلك ؟

ولم يتريث الى ان تجيب امه على تساؤله ، وانما واصل حديثه :

– وانت أرهقك العمل المتواصل ، وظهرت آثار السنّ على وجهك .

ورفعت عزيزة عينيها في صمت حزين مشوب بفزع لم

يدركه ابنه .

هل حقاً ما يقوله ابنها ؟ وهل ظهرت آثار السن على وجهها ؟ انها لم تدرك هذه الحقيقة بل لم تعرها بالاً في يوم من الايام ، حتى في هذه اللحظة التي يواجهها فيها ابنها بالحقيقة التي تناستها في غمار الحياة ، لقد افزعها ما عرفه من الارهاق الذي تعانيه اكثر مما افزعها ادعاؤه بأنها قد تقدمت في السن . ان هذا الجانب من حديثه لا يهمها في قليل او كثير ، فقد نذرت نفسها منذ ان توفي زوجها على ان تقف حياتها على تربية ولديها الى ان تراهمـــا او ترى اكبرهما حل محل والده رباً لهذه الاسرة .

وكما يتلمس المكروب ثغرة يطل منها على افراح قديمة تذيب جانباً من كربه الحاضر ، رأت عزيزة في حركة ابنها وهو يمد رجليه منفذاً لابتسامة مصطنعة ،فقالت وهي تضحك :

– لا تنزعج من طول رجليك ، ان عقلك في حاجة الى ان ينمو كما نما جسمك ، أنت لا تعـرف عن سنّي شيئاً .

وواصلت ضحكها وهي تمرر يمناها على خديها وتحصي في سرها سنوات عمرها منذ ان ولدت الى اليوم : ولاحت لها صورة باهتة من طفولتها البعيدة ، وأطياف حزينة من صباها الباكر عفى عليها النسيان منـذ زمن . واستشعرت الاسى وهي تستعرض ما مر عليها في حياتها الطويلة، لقد

استغرق البؤس والشقاء طرفي حياتها ، فقد فتحت عينيها على الحياة طفلة تشقى بمتاعب العيش في كنف زوجة الأب القاسية ، حرمت في طفولتها من حنان الأم ، وسلسلة من المتاعب والشقاء مرت بها في صباها الباكر ، وعندما ابتسم لها الزمن — او هذا ما تصورته — يوم زفافها على الاستاذ سامي المدرس الكهل الذي استنفذ أموال أبيه وميراثه ايام شبابه ، سعدت أيما سعادة لا لنعيم تتوهمه ، وانما لشقاء ودّعته . لقد كان كل أملها في طفولتها البائسة ان تخرج من حدود الدائرة التي تشقى بها من حياتها مع زوجة أبيها.

ولم يطل أمد السعادة التي ارتضتها ، لقد عادت اليها المتاعب على وجه آخر ، وبنوع جديد لم تألفه ، فهي لم تعد الى بيت أبيها الذي توفي بعد زواجها وانما توفي زوجها وترك لها اسماعيل ومنصور وبيتاً مهدماً يتوارى في زقاق ضيق بحارة السد في اجياد .

ومنذ ذلك اليوم راضت نفسها على تحمّل العبء الذي ما زالت تتحمله الى اليوم .

وغمغم اسماعيل في ضجر بدا على قسمات وجهه الاسمر النحيل : صغير ،صغير .... إلى ان تقوم الساعة . وضرب الارض بقدميه قبل ان ينهض ويتوجه إلى المرآة الكبيرة المعلقة في جانب من المجلس . وينظر إلى وجهه في المرآة وكأنما يستجديها حجة يرد بها على امه .

ومرر يمناه على خديه،وأدار وجهه يميناً وشمالاً ،ونظره



ونظر الى وجهه في المرآة وكأنما يستجديها حجة يرد بها على امه

ما زال مسلطاً على صورته المنعكسة على صفحة المرآة .

ولحقت به أمه وهي تبتسم ، وما ان رآها تقف خلفه حتى ابتسم هو الآخر عسى ان تستر الابتسامة بعض أفكاره التي خطرت له في وقفته القصيرة أمام المرآة ، والتي كان يخشى ان تدركها أمه باحساسها الصادق ، وحاول مراراً ان يمحوها بابتسامة مصطنعة أو قهقهة تمثيلية ، تلك الأفكار التي كانت تدور دائماً حول حياته التي يحياها والتي وصفها لأخيه ذات مرة وهما في الطريق إلى المدرسة بأنها « حياة المغضوب عليهم » .

وعندما أحس اسماعيل اطمئنان امه إلى خواطره وتفاؤلها بابتسامته ، استأنف الحديث الذي انقطع قبل برهة قائلاً :

— سوف أبحث عن عمل .

وتساءلت امه في فزع من الفكرة الصريحة التي يواجهها بها ابنها لاول مرة :

— والمدرسة ؟

سوف اترك المدرسة .

وتساءلت مرة اخرى وهي تقترب منه وتربت بيمناها على رأسه ، ربما تزول الفكرة الملحة القوية من هذا الرأس الصغير :

— والسبب ؟

قال اسماعيل وهو يشير الى صورتها في المرآة :

— انظري الى وجهك ، لقد بدا الهزال عليك منـــذ

زمن . ووجب عليّ الآن ان أتحمل العبء .

وردّت عليه وهي تبتعد ، وكأنما تتهرب من نظراته الفاحصة :

– ألم اقل ان عقلك لم ينمُ بعد ،ومع ذلك فأنت حرّ فيما تفعل .

وعندما صافح اذنه صوتها المتخاذل وهي تبتعد عنه أحس بأنه انتصر لنفسه وللفكرة التي كان يسعى لتحقيقها، أحس بأنه قد عبّر عن رغبته في الفرصة التي سنحت له على غير انتظار . ان صوت امه وهي تلقي جملتها الاخيرة انما يعني التسليم له بتحقيق رغبته ، بخروجه الى الحياة العملية وتحمّل المسؤولية التي كان يتوق الى تحملها منذ زمن ، كما كان يعني في نظره نهاية مرحلة وبداية مرحلة أخرى ، نهاية مرحلة الوصاية والصبا والبيت المتهدم ، وبداية مرحلة العمل والرجولة وبيت اكبر وحياة موشاة بتحقيق الرغبات المكبوتة .

لقد كان منذ زمن بعيد يتحين هذه الفرصة ، وها هي الفرصة قد سنحت له على غير انتظار .

سعلة واحدة ايقظته من نومه ، وستغيّر مجرى حياته.

لقد استسلمت امه دون مقاومة ، بعد ان كانت تجابهه بالقوة التي لا يستطيع ان يقاومها . الي ما قبل لحظة كانت تتمسك بأنه صغير ولكن صوتها المتخاذل ، نم عن اعترافها الذي كانت تتفادى التصريح به امامه ، ولم يكن تمسكها

بأنه صغير صادراً عن اقتناع بما تقول قدر ما هو منبثق عن ايمانها بضرورة استمرارها في تكفل شؤون ولديها .

لقد كانت تحلم دائماً باليوم الذي ترى فيه ابنها وقد انهى دراسته وخرج الى الحياة العملية يحمل عنها عبء مسؤولية هذه الاسرة الصغيرة ، ولكنها لم تكن تتوقع أبداً ان ينوء كاهلها وهي في منتصف الطريق بحمل ما تكفلت بحمله من قبل عشر سنوات، وان تترك ميدان العمل ليتحمل ابنها الاكبر هذه المسؤولية وينقطع عن دراسته قبل ان يصل الى النهاية التي كانت ترنو اليها والهدف الذي كان يتراءى لها وشيك التحقيق .

اما اسماعيل، هذا الفتى الاسمر النحيل ذو الحس المرهف والذي كان يتحدث دائماً أمام زملائه في المدرسة عما قرأ خارج نطاق الكتب المدرسية الجافة ، ويسحر ألبابهم بحسن بيانه وفصاحته ونبرات صوته التي شبهها بعض زملائه بالموسيقى ، هذا الفتى الذي عرف بين زملائه – ان خطأ او صواباً – بأنه فتى خيالي لم يكن يعنيه من اعتراف أمه سوى انه سيخرج إلى الحياة العملية ويحقق ذاته .

وبقدر ما كان فخره بين زملائه بهذه المنزلة التي احتلها من نفوسهم ، إلا انه كان يضيق بشيء في نفسه، حقيقة واحدة تنغص عليه اللمحات الندية التي تعطر حياته ، هي انه يتيم ويعيش على جهود أمه وكفاحها . وكثيراً ما كان يضحك بملء فيه ويبتسم كأسعد شخص وعندما يذكر

نفسه سرعان ما يرتد ضحكه الى صمت وتتحول ابتسامته الى نظرة طويلة حزينة في الافق البعيد أمامه . بل كثيراً ما كان يضيق بالضحك المتواصل والمرح المستمر .. كان يشعر بأنه في حاجة الى ان يخلو الى نفسه يفكر في ذاته ويفكر في حياته التي يحياها في كنف أمه تحت سقف بيت متهدم . ولم يكن اعجاب زملائه به ليرضيه في كثير من الأحيان عن نفسه وربما كان الاعجاب في أحيان كثيرة مصدر الالم الذي يعانيه في حياته .

وعندما كان يلحظ الاشارات الخاطفة من الطلاب المعجبين به وبتفوقه في مروره بردهات المدرسة، يثقل من خطوه في كثير من الاحيان ليحظى بأكبر قدر من تلك الاشارات التي كانت ترضي غروره وتبعث في نفسه الزهو والفخر ، بيد انه عندما يصل الى منزله بعد انتهاء اليوم الدراسي ويستلقي بعيداً عن امه في فترة الظهيرة يبتسم في سره لتلك الاشارات الساذجة ويحك اللحاف المتآكل بأصابع قدميه .

ويلقي نظراته المتمردة على جدران المجلس حوله ويتساءل في سره «ماذا يقولون لو رأوني على هذا اللحاف المتآكل» . وتتداعى صور الحياة المرّة التي يحياها في هذا المنزل العتيق في حارة السد بأجياد ، وتثور أحزانه ويزداد تمرده عندما يرى أمه مكبّة على ماكينة الخياطة تحيك الثياب بالاجرة ليأكل هو ويأكل أخوه وتستمر الحياة في خطها المرسوم .

وكثيراً ما كانت تدفعه الرغبة في مثل هذه المواقف إلى ان يقول لأمه أشياء وأشياء : أشياء أقضّت مضجعه وأرقته الليالي الطويلة ، ولكنه يجبن عن ان يقولها خيفة ان يضيف الى آلام أمه آلاماً جديدة،والى متاعبها متاعب حقيقية ، ودّ لو قال لها : ما ذنبي أنا في هذه الحياة ، اما كان الاجدر بأبي ان لا يموت حتى أشب تحت رعايته ، لقد مات وتركني وأخي الصغير نشبّ في اليتم ونترعرع تحت براثن الفقر .

وبالرغم من تكرار مثل هذه المواقف التي تتيح له الفرص لان يقول ويعبر عما في نفسه ، الا ان نظرات امه عندما يواجهها تهدىء كل اضطرام في وجدانه وتطفىء كل شعور باستياء يحس به .

تساءل ذات مرة وهو يجتاز باب داره في عودته من المدرسة « لماذا لا ننتقل من هذا المنزل ؟ » وعندما اصطدم نظره بدرجات المنزل المتربة ، زاد اصراره على ترديد السؤال . بل سرعان ما تحول الاصرار الى شعور بالمقت والكراهية لهذا المنزل الذي يسكنه ، وعندما واجه امه وهي تستقبله على باب المجلس سارع بالقاء السؤال وكأنما كان يخشى ان يتراجع عن اصراره عندما يواجه ابتسامتها المشرقة .

وقد وجد ما توقعه ، ابتسمت امه بعد ان القى سؤاله الذي حمل في نبراته كل ما يشعر به من مقت لحياته . ولم

تجبه امه بغير الابتسامة والنظرة الحزينة والصمت، وأحسّ وهو في هذا الموقف بتأنيب ضميره بعد ان اذابت ابتسامة امه كل ما يشعر به من تمرد على حياته المملة .

ولم يحدثها منـــذ ذلك اليوم بمثل ذلك الحديث ، ولم يكرر عليها السؤال . واذا ما ألحّ عليه السؤال في وحدته كان يؤجله الى ان ينفرد بأخيه الاصغر منصور ويلقيه عليه في ما يشبه الرضى بالواقع كأن يقول له « الحمد لله على كل حال ، ان حياتنا احسن من حياة غيرنا من الناس ، لدينـــا منزل — ولو انه متهدم — الا انه ملكنا وسوف نهدمـــه في يوم من الايام لنقيم منزلاً حديثاً لا يصدم انظارنا تشقق جداره وتهدّم جوانبه » .

وكان يضحك عنـــدما يرد منصور على ثرثرته بقوله « ادع الله بأن يحفظ لنا أمنا فقط » . ويحاول هو ان يقنع هذا الصغير بأن ليس ثمة تعـــارض بين السكنى في منزل جديد وبقاء امه ، كما يحاول ان يمحو من ذهن منصور هذا الارتباط الذي يتصوره بين صورة امه وهـذا المنزل المتهدم والحياة المتواضعة .

وفي هذا الصباح ، وبعد الحديث العابر الذي تجاذب اطرافه مع امه ، وبعد ان رأى نفسه يتقـــدم خطوة الى الامام ، الى حيث الطريق الذي سيقوده حتماً نحو تحقيق آماله ، كان سروره مضاعفاً ، اذ انه سيستطيع الآن ان يمحو من ذهن اخيه ذلك الارتباط بين الصورتين .

٢

كان الصباح كأي صباح سابق لم تحمل تباشيره اي نفحة قوية من أمل متجدد يمسح عن قلب «عزيزة» بعض العناء الذي تلاقيه، ان لم يضف الى همومها هماً جديداً سيظل يلاحقها الى ان تثبت اقدام ابنها في عمل يركن اليه ويرتاح له ، ويصبح له بعد وقت يقصر أو يطول مصدراً لعيش هـذه الاسرة ، هو الخوف من المجهول ومما عسى ان تضمره الايام لهذا الابن الذي بدأ يشعر برجولته وبدأ يؤمن بضرورة خروجه الى ميدان العمل يتحمل عنها العبء الذي تحملته هي طوال عشر سنوات . وهو خوف الام من ان يطول بحث ابنها عن عمل فيتضاعف تمرده على هذا البيت الصغير المتهالك وعلى هذه الحياة التي ضاق بهـا ذرعاً ، وخير لها ولابنيها هذه الحياة المتواضعة اذا قدر لأفرادها ان يرضوا بالواقع وان يقنعوا بنصيبهم المقسوم من متاع

الحياة .

وانصرفت عزيزة الى اعمال المنزل وما زال صدى صوت ابنها اسماعيل يرن في اذنها في لحنه المتسق وفي ضغطه على الكلمات التي يعني من ورائها أمراً معيناً . لقد أحست منذ زمن ، من قبل عامين أو أكثر ان ابنها الأكبر قد بدأ يتفتح للحياة ويرغب في اقتحام ابوابها مهما كلفه الثمن ، ولقد وقفت في طريقه مرات عديدة اشفاقاً عليه ، فهو ما زال صغير السن ، وهي ما زالت قوية وصحيحة تستطيع ان تتحمل العبء سنوات وسنوات . أما اليوم ، وفي هذا الصباح نفسه ، فقد استطاع ان يكتشف آثاراً من الارهاق الذي تعانيه،ومن ثم فقد استفاد من الموقف واستخدمه حجة له ولم تستطع هي ان تقاوم واستسلمت للامر الواقع .

وظلل الصمت مجلس الصباح قبل ان يتوجه ابناها الى المدرسة ، كانت عزيزة في دوامة من التفكير العميق ، وكان اسماعيل يسرح مع أفكاره ، أما منصور الصغير فلم يكن يعرف شيئاً عن الموقف ، ولفّه الصمت وهو ينقل بصره بين أمه وأخيه ، وعندما ضاق بهذا الجو الذي لم يألفه ، انتقل فجأة الى جوار امه وأسند رأسه الى صدرها قبل ان يقول :

ــ هيا اكملي قصة البارحة .

وابتسمت امه قائلة وهي تتحسس شعر رأسه :

ــ ان النهار لم يخلق الا للعمل وموعدنا المساء . لك

عندي قصة لطيفة بعد ان اكمل لك القصة التي بدأناها ليلة البارحة .

وافترّ ثغر منصور عن ابتسامة ارتياح وقال :

– احك لي طرفاً منها .

وردّت عليه في حزم مصطنع :

– لقد حان موعد ذهابك الى المدرسة ، هيا استعد للذهاب مع أخيك،لم يبق على الموعد سوى نصف ساعة .

ونهض اسماعيل من مكانه ونهضت امه اثر قيامه ، وغادر منصور مجلسه متلكئاً واتجه مع اخيه كي يرتدي ملابسه ويرتب كتبه في حقيبته اليدوية . وكانت عزيزة تقف منهما غير بعيد تعين الصغير في ارتداء ثيابه وتنقل بصرها بين الاثنين . وعندما همّا بمغادرة المجلس كانت تعقد المقارنة بينهما : اكبرهما نحيل أسمر لم يرث من اوصافها سوى عينيها أما الأصغر فقد استحوذ على كل شيء ، لونها الابيض الناصع وشعرها الاسود ، وسارعت في سرها تتساءل عن احبها اليها فلم تستطع ان تحكم ، كلاهما محبوب الى نفسها ، ولكل منهما منزلة لا تختلف عن منزلة الآخر ، اكبرهما له الحب والثقة والاحترام وللصغير الحب والعطف والحنان . ومن العبث حقاً ان تحاول التفرقة بينهما فكلاهما جزء منها وبضعة من قلبها . وابتسمت وهي تحتضن اسماعيل قبل ان يجتاز باب المجلس على حين احتضنها منصور وتعلق بعنقها يطبع على خديها قبلات متلاحقة .

وسار منصور بجانب اخيه اسماعيل في الزقاق المنحدر الذي يقع فيـــه منزلهم بين منازل مماثلة ، وكان منصور يتلفت يمنة ويسرة نحو كل بيت يجتازه، بينما سار اسماعيل صامتاً وهو يفكر ، وكان كل منهما – في الوقت ذاته – يتحاشى التعثر في الحفر المبعثرة في عرض الزقاق ، تلك الحفر التي خلفتها السيول المنحدرة من أعلى الجبل . وعندما انتهيا من اجتياز الزقاق واستقبلا الساحة التي تليه ، اتجها الى حانوت « العم محمد » الذي يشبه في تواضعه وصغره البيوت والمنازل المحيطة به . والنظرة العابرة الى هذا الحانوت تنبىء ببساطته ، فلم يكن يحوي اكثر من تلك المطـــالب الرخيصة ، الزهيدة الثمن . ولو احصيت مبيعاته في يوم كامل ما بلغت قيمتها ما يبيعه اي حانوت مجاور في صفقة واحدة . بل ان مظهر الحانوت لم يكن ليجذب اي عابر سبيل في ان يقصده او يبتاع منه شيئاً يحتاج اليه، فشراعه قطع من الخيش الممزق ، وصفائح المبيعات قد حال لونها من الصدأ المتراكم علي حفافيهـــا ، وكأنما رضي صاحبه وقنع بنصيبه الضئيل من دخله المتواضع فلم يحاول ان يجدد في مظهره الذي عبثت به يد البلى والقدم .

وربما كانت مطالب الحياة البسيطة سبباً في هذه القناعة التي يتسم بها العم محمد ، فلم يحاول ان يغير من مظهر حانوته او يطوره الى حالة أحسن ، وكأنـمـا كان يحافظ بذلك على التاريخ ، التاريخ القديم الذي شغف به ، ليس

تاريخ الممالك او الدول ، وانما تاريخ الافراد والاسر . ولقد كانت حركات الرجل لا تتغير ، تلك الحركات التي تصدر تلقائياً منه وهو منزو في ركن حانوته . فما ان يظهر شبح شخص قادم من احد الازقة المجاورة للساحة او المنحدرة من الجبل ، حتى يبادر العم محمد بتركيز نظره عليه ويحرك نظارته الاثرية محاولاً تثبيتها على عينيه وكأنه يستعين بها على معرفة الشخص قبل ان يحاذيه ، وعندما يتأكد من معرفته يهز رأسه في حركة من يقنع نفسه بأنه قد عرفه وعرف تاريخه ، وكأنما يتحدث الى نفسه قائلاً : محمود خليفة الموظف بوزارة المالية كانت اسرته تسكن في حارة الباب ، وقد توفي والده منذ عشر سنوات . كان لهم دكان في سويقة واضمحلت تجارتهم ثم تحولت من تجارة الاقمشة والمنسوجات الى التجارة في الحبوب على وجه مختصر يتناسب مع مركزهم الذي انتهوا اليه ، وكان دكانهم في رأس الجودرية وهو آخر عهدهم بالتجارة ، وقد بقي من هذه الاسرة محمود فقط هذا الذي يسير امامي الآن متجهاً الى وزارة المالية .

ويظل هكذا يجتر تاريخ الشخص الذي مر به إلى ان يلمح شبح انسان آخر يستولي على اهتمامه بدرجة تنسيه الشخص السابق فيستأنف استعراض تاريخ الشخص الجديد، وكثيراً ما كان ينتهي من هذا الاستعراض بكلمة مأثورة « دنيا لا تدوم على حال » .

وعندما كان يستوضحه الصبية الصغار من أبناء المنازل المجاورة معنى كلمته يعود الى منظاره يعدل من وضعه في حركة عصبية ثم يستعيد هدوءه ويتريث قبل ان يقول : « نعم دنيا لا تدوم على حال » ، هذه حكمة قالها اولياء الله الصالحون يوماً في السماء ويوماً في الأرض وتريدون مزيداً من التوضيح . ان مصداق هذه الحكمة نراه بين اعيننا في هذا الزقاق الذي يقع أمامي – مشيراً الى الزقاق الذي يسكنه اسماعيل – والذي لا اعرف له اسماً سوى « زقاق الباشا » . لقد كان يسكنه الباشا التركي والي مكة قبل الشريف عون ، لقد مر على هذا الزقاق عهد كان يتيه فيه على أكبر برحة واعظم حارة في مكة . هذا هو منزل الباشا الذي يقع على ناصية الزقاق وتطل نوافذه على هذه الساحة . لقد كانت المزيكة او «النوبة» كما كانوا يطلقون عليها تعزف البشارف والمارشات في هذه الساحة التي تقع امامكم . وكان الوالي يجلس في الروشان الكبير ويبتسم للجمهور ويهز رأسه طرباً – لا للموسيقى وانما لمنظر الجمهور المزدحم امام داره ، وعندما يستحسن الجمهور نغماً معيناً كان يأمر الفرقة بعزفه مرات متتالية ويصيح بأعلى صوته « كمان كمان » إلى ان يملّ الجمهور وتنصرف جموعه . وبعد عزل الوالي اثر مرض عصبي أودى به إلى مستشفى الأمراض العقلية في استنبول دالت دولة هذا الزقاق واصبح أثراً من الآثار لم يعلق به من مجده السابق سوى اسمه .

ويستمر العم محمد في شرح معنى الحكمة للصبية الصغار قائلاً : ان التاريخ يجيبكم على استيضاحكم . لا أقصد التاريخ الذي تقرؤونه في المدارس ، فأنا رجل لا افهم فيه شيئاً ، ولكن تاريخ الاسر والعائلات في مكة . ان في استطاعتي ان استعرض لكم تاريخ كل اسرة وسيظهر لكم مصداق قولي . بل واؤكد لكم بأنه لم تبق اسرة على حالها خلال اربعين عاماً مثلاً ، ان يد الزمن في حركة مستمرة تعطي وتسلب ، تمنح وتمنع ،في طرفة عين ولحظة خاطفة يتغير حال اسرة بكاملها من الحضيض الى الذروة ومن الذروة الى الحضيض . اسألوني عن تاريخ هذا الزقاق والزقاق الذي يليه،وهذه الساحة وما يتفرع منها من سكك نافذة وسكك غير نافذة وعن سكان هذه المنازل المحيطة بنا ، عن آبائهم واجدادهم وامهاتهم وبناتهم وعن اقاربهم وذوي ارحامهم من سكان الاحياء الاخرى ، اسرد عليكم ما لا تعلمونه ولا تستطيعون ادراكه ومعرفته من بين دفتي كتاب .

هذا السفر الحي الذي كان يحوي كل هذا التاريخ ، كان يجذب اسماعيل وأقرانه إلى هذا الحانوت وقت فراغهم من اللعب . وكان بعض الفتيان يعتبر الاستماع الى حديث صاحبه امتداداً للعب او تزجية لأوقات الفراغ ،بينما يعتبره البعض الآخر درساً يتلقى فيه عبر الحياة . ولقد كان اسماعيل من النوع الثاني الذي يصيخ السمع اذا تكلم العم

محمد ولا يطيق الاسئلة المتتالية والاستيضاحات الكثيرة التي يقاطع بها غيره حديث الرجل ، في حين كان « كمال » صديقه الودود وصفيّه من بين الأصدقاء وزميله في المدرسة منذ عشر سنوات لا يطيق الاستماع الى أحاديث العم محمد، بل ولا يحمل نفسه مؤونة الوقوف بضع دقائق في انتظار اسماعيل . بل كان يقف بسيارته بعيداً عن الحانوت يستدعي اسماعيل ببوق السيارة يضرب عليه ضربات متتالية ، وحينما ييأس اسماعيل من مواصلة الاستماع الى قصة من قصص العم محمد يرفع يمناه للرجل اشارة الوقوف، وراجياً منه تأجيل سرد الحديث الى ما بعد عودته .

واستبدت الرغبة باسماعيل في يوم من الايام — منذ سنوات — ان يسأل عن تاريخ اسرته عله يجد في صفحات الماضي الذي لا يعرفه ما يخفف عنه عبء التفكير الممض في حاضره الذي يعيش فيه . ولاحت له الاسئلة متتابعة ولكنه آثر الصمت ريثما يتفرق الجمع من اصحابه . وربما كان قليل الثقة في ان يكون الماضي كما كان يتخيله ، فكأنه يسعى بالسؤال إلى ان يزيد من آلام نفسه ويبحث عما يضاعف شعوره بالبؤس والحرمان .

وعندما اتخذ كل صبي وجهته إلى منزله، بادر اسماعيل بإلقاء سؤاله على «العم محمد» السفر الحي والتاريخ المتحرك والقاموس المحيط لعائلات هذا الحي . قال وفي نبرات صوته ما يشي بالتردد وما ينم على الخوف من ان يكون

ماضي اسرته كحاضرها : بيت متهدم وحياة متواضعة في (زقاق الباشا) الذي لم يبق له من مجده الغابر سوى اسمه.

– هل تعرف شيئاً عن أسرتنا يا عم محمد ؟

وظهر الاهتمام على قسمات الوجه النحيل المتجعد، واعتدل الرجل في جلسته وتنحنح قبل ان يقول :

– تاريخ اسرتك يا اسماعيل تاريخ حافل بالمكارم . نعم انت لا تعرف ذلك ، لقد كان جدك ثرياً من اثرياء مكة ، تاجراً يشار اليه بالبنان ويقصده اصحاب الحاجات. ومنزلكم الذي بناه جدك في حارة الشامية كان قصراً شامخاً وملاذاً للفقراء والمساكين لا ينقطع زواره وقاصدوه في اي وقت من نهار وليل .

وازدرد اسماعيل ريقه وزاد جحوظ عينيه ، فذلك تاريخ حافل ان صدق الرجل في حديثه ، ودهش العم محمد نفسه من دهشة اسماعيل وسأله :

– ألا تعرف تاريخ أسرتكم يا اسماعيل ؟

وكان جواب اسماعيل بالنفي ، وزاد على ذلك قوله: ان امي لم تحك لي شيئاً من هذا الذي تقوله . فقال العم محمد : هي نفسها لم تعاصر جدك ، ولكن من المؤكد انها تعرف الشيء الكثير عنه ، اسألها تنبئك عن ذلك .

وصعد اسماعيل يومذاك تنهدة عميقة من صدره، كانت صدى لآلامه واحاسيسه بالحرمان . احساس الصبيّ الصغير الذي لم يتجاوز حينذاك الثالثة عشرة من عمره .



هل تعرف شيئاً عن اسرتنا يا عم محمد

لقد تفجرت ينابيع الأسى في قلب الصبي الصغير وتملكه الأسى والحزن وهو يرى الصورتين أمامـــه ينظر اليهما في وقت واحد . صورة هذا الماضي الذي يحدثه عنه الرجل العجوز وصورة هذه الحيـــاة التي يحياها اليوم هو وأخوه ومن ورائهما أم ترعاهما وتكد في الحياة من اجلهما .

ويذكر اسماعيل ذلك اليوم كما لو كان يومـاً فاصلاً في حياته ، فقد انتزعه صوت صديقه كمال وصوت بوق سيارته من دوامة تفكيره . وقصد السيارة في تراخ وعدم رغبة في مصاحبة صديقه،وجلس بجواره في السيارة وقـد استحوذ على تفكيره أمران :

أولهما سؤال أمه عن صدق ما حكاه الرجل العجوز ، وثانيهما سؤال الرجل الذي سرد عليه القصة « كيف آلت حال أسرتنا الى هذه الدرجة التي نحياها اليوم » .

وطال صمتـه يومذاك على غير عادته حينما بادره كمال قائلاً :

— هه،ما هي قصة اليوم ، لمحات من التاريخ القديم؟

وكان رد اسماعيل عليه :

— ليس مغرقاً في القدم ، انه قريب منـــا ، ولكنه أصبح حقاً من التاريخ .

وحينما سأله كمال « ماذا يعني » ، كان ردّه مقتضباً « شيء لا يعنيك » .

وألحّ عليه كمال قائلاً : « ولكني صديقك لم تخف

عني امراً يعنيك ، او قصة سمعتها ». ولم يردّ اسماعيل فقد طالعه المنزل الشامخ الذي يقصدانه ؛ منزل كمال فقال : « سوف اقص عليك الحديث في فرصة اخرى » .

وفي هذا الصباح كان اسماعيل يسير بجوار شقيقه منصور صامتاً على غير عادته، كما كانت تبدو على سحنته امارات التفكير العميق . لقد تعود كل صباح في هذه الخطوات القصيرة التي تقوده الى الساحة ان يحدث شقيقه منصور أحاديث كثيرة من هنا وهناك ، ينتقل من حديث الى آخر في سرعة مذهلة ويبادله الضحك ويستطلع رأيه في امورهما الصغيرة .

وما ان شارفا الحانوت حتى سارع اسماعيل وألقى السلام على العم محمد ووقف في انتظار كمال الذي أقبل في اللحظة ذاتها بسيارته . وما ان حاذاه وأوقف السيارة ، حتى قصده وفي اثره منصور،ومدّ كمال يده الى باب السيارة ولكن اسماعيل اوقف حركته وأسرّ اليه بكلمات مقتضبة . وأطفأ كمال محرك السيارة وقد حال لونه وتغيّر وقال في استغراب : « لم افهم » .

قال اسماعيل في هدوء : « سوف تفهم فيما بعد » .

ــ سوف لا اتحرك بالسيارة حتى أفهم جلية الامر .

ورد عليه اسماعيل محاولاً تهدئته :

ــ ان الامر لم يزل في طور المحاولة لا البت .

وكان منصور يستمع الى الحديث الدائر بين اخيه

وصديقـــه دون ان يدرك شيئاً مما يدور بينهما . فقفز الى المقعد الخلفي وادخل رأسه بين الاثنين قائلاً :

-- اشركاني في الحديث .

فسارع اسماعيل موجهاً الحديث الى أخيه :

— اصحب كمال الى المدرسة ، وسوف ألحق بكما بعد ان انجز أمراً عاجلاً .

وعاد منصور يفتح باب السيارة ويخرج منها وهو يقول في اصرار :

— ما هو الامر العاجل ؟

— سوف تعرف كل شيء ظهر هذا اليوم .

واستبد حبّ الاستطلاع بالصبي الصغير وزاد اصراره على معرفة الامر قبل ان يتوجه الى المدرسة ، ولم يجـــد اسماعيل بدأً من ان يقول له بصوت رزين « سوف ابحث اليوم عن وظيفة » .

وبهت منصور من المفاجأة ، فهو لم يعرف قبل هذه اللحظة ما اعتزمه اخوه . انه لامر خطير ان لا يعرف هو ، وأخطر منه ان لا تعرف أمه . وتصور لساعته ان عقـــد الاسرة قد انفرط ، وان نظام البيت الذي سار عليه اعواماً طويلة قد اختل وتزعزع . وسارع بعقله الصغير الى تفسير هـــذا الاتجاه من اخيه وتفسير ما يهدف اليه . ولاحت له اسئلة كثيرة تحتاج الى اجابة ، هل تبقى سلطة البيت في يـــد أمه أم انها تنتقل بحكم هذا التغير المفاجىء الى يد اسماعيل؟

ان معنى العمل هو السلطة في البيت ، لقد كانت امه هي العاملـــة وكانت سلطات المنزل في يدها ، لقد اكتسبت تلك السلطات بعملها . هي قطب الرحى في اسرتهم الصغيرة وعماد المنزل،وهي الحاكم المطلق الذي لا يرد له أمر .. ومع ذلك فقد كان عهدها يتّسم بالرحمة والحنان ولم يكن ينقص نظام البيت سوى المال الوفير ، المال فقط .

وصعّد نظره في اخيه وقد بدا الأسى على ملامح وجهه وقال محتداً : « هل استشرت أمي ؟ » وردّ عليه اسماعيل في صوت هادىء يوحي بالثقة : « نعم ، وهــل تتوقع ان لا احصل على موافقتها على هذا الامر الخطير ؟ »

— نعم انه لامر خطير ، ولكن هل تترك الدراسة ؟

وارتفع صوت اسماعيل في حدة وكأن الامر لا يعني اخاه الصغير على وجه ما :

— اصحب كمالاً كما امرتك ، وربما ألحق بكما .

وأدار كمال محرك السيارة وبجواره منصور، وكان كل منهما يعالج الامر الحادث من الزاوية التي تعنيه . بيد ان تفكير كمال كان أعمق ، فقد ظلّلت وجهه سحابة حزينة من الأسى وراح يستعرض زمالته ورفقته لاسماعيل ، تلك الزمالة التي تعدت حدود الصداقة . فقد كان أقـرب إلى نفسه من أبيه وامه .. كان أخاً له لم تلده أمه .

٣

واتخذ اسماعيل طريقه متجهاً إلى وزارة المالية في خطوات ثابتة تنم عن الثقة بالنفس ، وفي اتساق يوحي بهدوء تفكيره واطمئنانه للنتيجة التي يتوقعها . وراح يستعرض في مخيلته صورة الاستاذ أمين عبد السلام رئيس ديوان المحاسبة كما رسمها له العم محمد على فترات متقاربة، صورة استوعب كل ألوانها وظلالها في الجلسات الخاطفة بطرف الحانوت، وعلى الطريقة التي حذقها الرجل في استعراض تاريخ الرجال والعائلات ، صورة استغرق رسمها عامين أو أكثر منذ ان بدأ اسماعيل يفضي بذات نفسه للعم محمد يشكو اليه حيناً هموم الدراسة وحيناً آخر نصب الحياة وضيق العيش .

كان في ذلك اليوم البعيد يجلس مجلسه المعتاد بطرف الحانوت في انتظار صديقه كمال ، ويرسل نظراته الشاردة عبر الساحة التي تضيق بنظرته البعيدة وتحجب عنها فسحة

الافق . قال وهو يشعر بالغبطة عندما يفضي بذاته للرجل ذي التجارب الطويلة:

ــ لو عاش أبي بضعة أعوام ما اضطرت أمي إلى العمل .

وقاطعه العم محمد يومذاك قبل ان يستطرد في حديثه:

ــ البركة فيك . بعد أعوام سأراك رجلاً تمر من أمامي وأؤرخ حياتك للصبية ، اسماعيل سامي، إلى ما قبل عامين كان طفلاً يتلقى مني دروس الحياة وعظاتها ، وها هو اليوم يمر من أمامي ويسلم من بعيد ، وكأنه يخشى على ثيابه ان تتسخ إذا قرب من هذا الحانوت ، ها هنا كان يجلس ويثرثر معي ساعات طويلة ، لقد استعار هذا الفتى رصيد السنوات العجاف من الحظ والسعة . (وبعد ان يصعد الرجل العجوز زفرة من صدره يستطرد) ولكن هل يقدر لي ان أراك وقد استرجعت ماضي أسرتك الكريمة.

ويضحك اسماعيل للصورة التي يرسمها الرجل لمستقبله ويسأله :

ــ ولكن ، من أين البداية يا عم محمد ؟

ويبتسم الرجل ابتسامة المنتصر ، المتحقق مما يقول ، ويعدل منظاره قبل ان يجيب :

ــ البداية سهلة والطريق معبد . سأتوسط لك لدى الاستاذ أمين عبد السلام ، انه صديق والدك ورفيق صباه وسوف يرحب بك في إدارته بوزارة المالية .

ويبتهج اسماعيل لهذه المفاجأة . فالاستاذ « أمين » كما سمع عنه ذو سلطة واسعة وذو نفوذ كبير بين موظفي وزارة المالية. انه من رجال الصف الأول في هذه الوزارة العتيدة ، ولكن هل يذكر الرجل ذو النفوذ الكبير صداقة أبيه بالرغم من مرور أعوام على انفصام هذه الصداقة بالموت الذي فرق بين الاثنين، وبالرغم من افتراق طريقيهما منذ مطلع الشباب ؟...

ويبقى تساؤله عالقاً بذهنه إلى ان يسمع الاجابة ذات يوم على لسان العم محمد « ان الاستاذ أمين يرحب بك في اليوم الذي تختاره ويرحب بك في العمل بادارته . لقد قابلته ولمست فيه استعداده العظيم لان يأخذ بيدك » .

واستغرق استعراض هذه اللمحات طول الطريق المؤدي الى وزارة المالية حيث يجد اسماعيل نفسه بعد ذلك يواجه لاول مرة هذه البناية الضخمة ذات الطابقين ، والتي تشغل جانباً طويلاً من شارع أجياد، وتمتد امامها الحديقة المستطيلة ذات السياج الحديدي الذي تطل منه اوراق الاشجار المخضرة ويفوح منها عبير الريحان والنرجس .

ويجتاز الباب الكبير الذي يقف به جندي مسلح، فينتابه شعور بالهيبة في أول خطوة يخطوها داخل البناء ويلتفت يمنة ويسرة يدفعه الى ذلك شعور بالوحدة والانفراد كمن يجد نفسه فجأة أمام مشكلة مستعصية . وبالرغم من احساسه بالقوة قبل ان يجتاز قدمه باب الوزارة ، وبالرغم من

تصميمه القوي على انجاز ما اعتزمه ، فانه تردد ووقف في مكانه يوازن بين الأمرين : هل يعود من حيث أتى، واذا عاد فما هي النتيجة ..أم يواصل سيره ويقتحم الطريق بشجاعة ، والشجاعــة احدى ميزاته التي يفخر بها بين أقرانه ؟

ومرّ به الموظفون مسرعين راكضين يحثون الخطى نحو مكاتبهم ، وكأن وراءهم من يلاحقهم بالسياط ،ولم يجـد بدأً من ان يصعد الى الطابق الثـاني ويستعرض اللوحات المثبتة على ابواب المكاتب . واتجه الى احد الابواب ووقف أمام الحاجب الجالس على المقعد بجانب منه ، وسأله عن حجرة الاستاذ أمين . ورفع الحاجب رأسه ، وبعــد برهة صمت اشار اليه الى داخل الحجرة بايماءة من رأسه . وأحس اسماعيل لأول مرة برهبة الموقف واختلافه عمــا تعوده في المدرسة ، وأدرك وهو يدلف الى الحجرة أنـه انتقل من جوّ قد ألفه الى جوّ جديد يجب ان يألفه منذ الآن ويكيف نفسه حسب مقتضياته .

انه جوّ غامض بالنسبة اليه ، لم يسبر عمقه ولم يدرك بعد دوافع احيائه : لقد تلقى أول لطمة من هذا الجالس على الكرسي ، من حاجب المكتب . وأحس بالهوان لسوء هذه التحية التي تلقاها منه قبل قليل . وود وهو يخترق الباب الى الداخل بعد ان نقر عليه نقرات خفيفـة ، أن لو يعود وينشب اظفاره في عنق الفراش الذي أهانه بتلك

النظرة البلهاء وأذله بعدم الاهتمام وعدم التحرك من مقعده . وكانت امنيته الاولى ان لو يتمكن ذات يوم من اهانة الرجل كما اهانه . ولكن سرعان ما طرد الفكرة العابرة من رأسه خشية ان تقف سوء نيته حائلاً دون توظيفه ، واختلق الاسباب يوهم بها نفسه لتصرف هذا الحاجب المسكين : ربما جاء طاوياً من بيته ، او ربما انشغل فكره بمرض احد أولاده ، أو ربما ترك امرأته وهي على وشك الوضع . أمور الدنيا كثيرة ومشاغلها أكثر ، وهذا الحاجب المسكين ذو الدخل المحدود ... المادة ولا شيء غيرها . وهو نفسه ما الذي جاء به الى هنا ، الدافع ذاته . ونسي الاهانة التي توهمها واستمر في خطواته نحو الرجل الجالس في صدر الحجرة . وأدرك من النظرة الاولى انه الرجل الذي يعنيه ، وهدأت نفسه لرؤيته .

وكان الاستاذ امين منشغلاً بمطالعة أوراق بين يديه ومناقشة المحيطين بمكتبه من الموظفين المختلفي الأعمار ، وكان كل منهم يمسك أوراقه وينتظر دوره بجانب مكتب المدير .

ولم يلتفت أحد منهم الى اسماعيل وهو يدخل الحجرة ، كما لم ينتبه الاستاذ إلى وجوده ، واتخذ هو مكانه بين المنتظرين . ومرت فترة وهو لم يزايل مكانه الذي وقف فيه . وأدرك بعد لأي ان وقفته ستطول فاتجه نحو مقعد شاغر يتيح له رؤية المدير عن كثب، واستطاع في جلسته

ان يركز نظره على الاستاذ أمين حيث بـــدا له في هذه الجلسة في صورة تختلف عن الصورة الـــتي انطبعت في ذاكرته ، الصورة التي رسمها له العم محمد في أحاديثـــه الكثيرة عن الرجل.لقد بدا له الرجل الآن مقطب الجبين، يتحدث إلى موظفيه حديث الرجل المطاع الذي لا يرد له أمر . ولقد استمـع كما استمـــع غيره ممن ضمتهم هذه الحجرة الكبيرة الى توجيهاتهلموظفيه الواقفين،والتي كان يحرص عند القائها على ان يسمعها كل موظف بينما يركز نظـره على الموظف المعني بالملاحظة والتوجيه.لقد تلاشت شخصيات هؤلاء الموظفين أمام قوة شخصيته ، وبـدوا امام نظـــر اسماعيل كما لو كانوا أوراقاً جافة تتساقط امام رياح الخريف.

وارتاحت نفس اسماعيل للمنظـر الذي يراه . وكأنمـا وجد فيه تفريجاً عن كربه الذي شعر به قبل ان يدخـل هذه الحجرة ، وتعويضاً له عن الاهانـــة التي لحقته من الحاجب والتي تناساها قبل لحظات . وردد في نفسه « لقد اهانني الحاجب ، واهان المدير موظفيه،وسوف يثأر هؤلاء من مرؤوسيهم ، ويقتصُّ الآخرون من الحاجب ، حياة الحيتان في اعماق البحر أراها رأي العين أمامي منـذ اليوم الاول ». واهتاج تفكـيره وهو يضع نفسه في مثـــل هذا الموقف،هل يقدر له ان يقف مثل هؤلاء الموظفين موقف الخائف الذي لا يدفع عن نفسه ظلماً يلحقه ؟...

وارتبك وهو يوازن بين الصورتين للرجل الذي امامه

والذي عقد عليه آماله العظيمة ، أي الخلقين يمثل طبيعة الرجل: الابتسامة والتواضع والحديث الهادىء ، الصورة التي انطبعت في ذاكرته، ام الصورة الجديدة التي يراها واضحة امامه وهو يرى الرجل لأول مرة ؟

وإذا كان هذا الجانب او ذاك يمثل طبيعة الرجل الحقيقية ، فما الذي يحمله على تغيير الحقيقة ، وهل في مقدور الفرد ان يغير من خلقه بمثل هذه السهولة ، كما يستبدل رداء برداء آخر ؟.

وسرعان ما لاحت له المشكلة ، مشكلته التي جاء من أجلها . هل ينتظر من هذا الرجل ان يذكر – وهو على مكتبه يمارس سلطته الواسعة – صديقاً افترق عنه منذ عشر سنوات !

وبدت الحجرة الواسعة في عيني اسماعيل أشد ضيقاً من دكان العم محمد، وغام جوّ الغرفة امامه، وبدا الموظفون أشباحاً تتحرك آلياً امامه . ووجد نفسه يتحرك في مكانه قلقاً محتاراً .. أينتظر نتيجة تجربته الاولى ويصمد، أم يتسلل من الحجرة كما دخلها وسوف لا يشعر بخروجه أحد ؟

ولكن صورة المنزل المتهالك ، ومنظر أمه التي وهنت قواها ، ورغبته القوية في الخروج من الدائرة السوداء التي تحوطه ، دائرة الحياة المرّة وشعور المقت لهذه الحياة كل ذلك ربطه الى المقعد الذي يجلس فيه ، ولم يعد يفكر في شيء سوى طلب العمل .

وفي اللحظة التي كان فيها جاد التفكير في اقناع نفسه بأن ينتظر ، كانت الحجرة قـــد فرغت من الموظفين ولم يبق فيهـــا سوى موظف واحد كان يقف بجانب مكتب الاستاذ « امين » من الجهة اليسرى .

والتفت الرئيس الى الجانب الايمن حيث جلس اسماعيل، وحقق فيه النظر عندما رآه . وتحرك اسماعيل في مقعـده بعـــد ان شعر بشيء من الضيق لنظرة الرجل ، وداخله احساس الخوف والرهبة . فهو لم يتعود ان يجلس هـــذا المجلس في دائرة حكومية،وأمام موظف كبير من موظفي الدولـــة لم يسبق ان رآه او جلس اليه . وتبخر الحديث الذي كان قد أعده وتسلح به ، ووجد نفسه — دون ان يدري — يلعن في سره الشيخ العجوز الذي جسم له آماله وأمانيه حتى كاد يلمسها ، وأسف للوقت الذي اضاعه في الانتظار ، هذا الانتظار الذي انتهى نهاية محزنة بهذه النظرة التي تلقاها من الرجل وارتعد لقوتها .

بيد انه اتجه نحو الرجل بعد ان كادت قدماه تخونانه، وبعد ان وقف لحظة قال في ارتباك :

— اسماعيل .

وكان الاستاذ « امين » قد عاد الى النظر في اوراقه عندما اتجه اسماعيل اليه .. ولم يجب الواقف امامه بكلمة وكأنما استغرقه التفكير فيما بين يديه .

وانتظر اسماعيل الاجابة مركزاً نظره في الرجل الذي

بدت تجاعيد وجهه واضحة، وخامره ميل خفيّ الى الانتقام منه ، هذا الذي لم يردّ عليه ولم يشعر بوجوده . كيف سها الموت عنـه وهو يتحكم بجبروته في عدد كبير من الآدميين ويملي عليهم سلطته ويفرض عليهم ارادته ، وربما كان بينهم من هو اقدر منه وأكفأ ، وربما كان كثير منهم اشد عطفاً على اصحاب الحاجات وارحم قلباً على الضعفاء .

وثارت في كيانه الرغبة التي انطفأت قبل قليل، الرغبة في ان ينشب اظفاره في عنق الرجل القريب منه ، الجالس امامه .. بدلاً من ان ينشبها في عنق الحاجب الضعيف الذي لم يرحب به ساعة مجيئه . لا شك ان هذا اجدر من ذاك بالاظفار الناشبة ، هذا القوي بسلطته وجبروته . ظفر واحد يغرزه في عنقه فيخلّص منه عشرات الموظفين .

ورفع الاستاذ « امين » رأسه عن الاوراق متجهاً الى اسماعيل، فارتدت اليه نفسه العاقلة وقال في لهجة مترددة :

— اسماعيل سامي .

ولم يع الرجل ما قال ، واستوضحه مرة اخـرى . فردد اسماعيل بعد ان غاثت نفسه وأهلكها اليأس القاتل :

— اسماعيل سامي .

وسرعان ما افترّ ثغر الرجل عن ابتسامة مشرقة وردد مستوضحاً :

— ابن الاستاذ سامي ؟

وعندما رد عليه اسماعيل بالايجاب ، ازدادت ابتسامته اتساعاً ، وتحرك من مقعده ومد اليه يمناه مصافحاً، وأشار له إلى مقعد بجانبه . وجلس اسماعيل وقد عادت اليه الحياة بكل ما فيها من آمال مشرقة وامان جميلة ، وأحس في الوقت ذاته بعظم ما اقترفه من جرم كما التمس العذر للحاجب من قبل . وايقن ان الاقدار ادخرت هذا الرجل لانقاذه ، فقد أنس للجو العاطفي الذي أسبغه الرجل على هذه المقابلة الاولى، والذي تمثل في انبساط اساريره واستعادة الابتسامة التي افتقدها منذ دخل الحجرة . ومما زاد ائتناسه بهذا الجو الحبيب ، ما رآه من الدهشة التي انطبعت على وجه الموظف الذي كان يقف في الجانب الآخر من المكتب.

واستبدت باسماعيل رغبته الجامحة في ان يتعجل البحث في الامر الذي جاء من أجله، وان يطوي صفحة المجاملات واثارة الذكريات ، عندما بدأ الاستاذ «أمين» يحدثه عن صداقته لوالده وعن ذكريات صباهما الباكر في حارة الشامية ، وعن زمالتهما في مدرسة الفلاح . وقال الاستاذ «امين» بأسلوب الرجل المهذب بعد ان فرغ من استعراض تاريخ صداقته لوالد اسماعيل وذكرياته البعيدة معه :

ـ ولكنك صغير كأني بك تسابق الزمن . لماذا لا تستمر في دراستك يا اسماعيل ؟

واجابه اسماعيل :

ـ لقد وصلت في دراستي إلى السنة الثانية بمدرسة

تحضير البعثات ، والمرحلة الباقية طويلة،وانا امام امرين : اما ان اواصل التعليم إلى مرحلته الأخيرة ، او ان ابـدأ العمل منذ الآن . وقد اخترت الامر الاخير .

فسأله الاستاذ :

– وهل هناك سبب قوي يحملك عـلى الانقطاع عن الدراسة .

وتفكـّر اسماعيل في الاجابة : « ماذا يظن هذا الرجل، وما الذي دفعني إلى هذا الطريق الوعر بالنسبة لسني . لو كان ابـي في الوجود ما عرفت قدمي طـريق الوزارة ، لو تستطيـع امي الاستمرار في عملها المضني لوفرت عليّ هذا المجهود ، « ويل الشجي من الخلي » ومع ذلك فاني آنس في حديثه حنان الابوة وعطفها . عجبـاً لتصاريف القدر،هذا زميل ابـي وصديق صباه وقرين فتوته وشبابه. ذهب ذاك وخلف وراءه ثلاثة انفس ، لم تتضور جوعـاً في يوم ما ، ولكنها تخطو في الحياة بتعثر يعوزها المـال لتعيش كما ترغب،ويعيش هذا بعد ابـي،ومع ذلك سوف يفارق الدنيا مرتاح البال ليس وراءه ولد يبكيه،لقد عاش عقيماً وهذه سعادة في نظري على الاقل » .

واجاب اسماعيل متلجلجاً في الحديث :

– نعم هناك أسباب قوية . لو كانت ظروفي حسنة ما انقطعت عن الدراسة .

وبدا على وجه الاستـاذ « امــين » الاهتمام لما يقوله

اسماعيل . وربما فكر في هذه اللحظة ان يمد يد المعونة الى اسرة صديقه بالاسلوب الذي خطر له دون ان ينقطع اسماعيل عن الدراسة . هذا الفتى لم يتعد بعد السابعة عشرة من عمره . ولكن .... اي اسلوب هذا ؟. هل تقبل هذه الاسرة مهما كان الضنك الذي يحوط حياتها في ان تمد يدها لقبول معونة مستمرة من رجل اجنبي عنها ؟.

واعتدل في جلسته وهو يعدل عن التفكير في هذا الاسلوب ، وقال موجهاً حديثه الى الموظف الذي يقف بجانبه ويشير بيمناه في الوقت ذاته الى اسماعيل :

ـ هذا اسماعيل سامي ابن اعز اصدقائي، اصحبه معك وليكن تحت ارشادك وملاحظتك المستمرة .

ثم اشار الى الموظف يقدمه الى اسماعيل : « سليمان فتحي » مدير مكتبي .

ورفع اسماعيل بصره الى مدير المكتب الذي اشار له ، فقام من مكانه يتبعه الى الحجرة المجاورة .

٤

ولم ينتظر مدير المكتب الى ان يصل حجـــرة مكتبه فيلقن اسماعيل الدرس الاول في الوظيفة ، وانما التفت اليه فور خروجه من مكتب رئيسه قائلاً :

– هه ، ان الوظيفة غير المدرسة ، هل تعرف ذلك؟

وكان يمشي مختالاً بقامته المديدة وقوامه الممتلىء، وينظر بين لحظة واخرى الى حذائه اللامع ويصغي الى صريره الذي يشتد كلما اشتد ضغطـــه على الارض . وكان يسرع في سيره كلما اوشك اسماعيل ان يلحق به .

قال اسماعيل في لهجة لا تشي بما يضطرم في باطنه :

– أعرف ذلك .

فالتفت اليه مرة اخرى وقد بدا الارتياح على وجهـــه للاجابة التي سمعها وقال :

– اني لم اصل الى مركزي هـــذا الا بعد التجارب

الطويلة . ان ميدان العمل مليء بالاشواك ولكي تصل الى ما وصلت اليه أنا، يجب ان تتحلى باخلاق الموظف الكفء . من الخطوة الاولى، منذ اليوم يجب ان تعرف ما هو مطلوب منك ، لا تتعداه ولا تتدخل فيما لا يعنيك ، ان المكتب هنا غير الفصل . هناك (ك ت ب) (كتب) يكررها لك الاستاذ خمسين مرة لتتعلمها ، أما هنا ، فيجب ان تتعلم (كتب) بنفسك وتكررها خمسين مرة في سرّك دون ان اسمعك . ليس لدي الوقت لتعليمك . انت هنا استاذ نفسك ، هل فهمت ما أعني ؟

وذهل اسماعيل مما سمع . هـذا تفسير جديد للرعاية والملاحظة . انه منذ الصباح يواجه انماطاً جديدة من البشر، لقد عجزت المدرسة وسوف تعجز حتماً ، اليوم أو غداً أو بعد غد ، في أن تصور الحياة على حقيقتها .

الحياة هنا في وجهها الحقيقي ، اما حياة المدرسة فحياة مقنعة على وجهها برقع سميك لا ينفذ منه البصر . ويل لي ولامثالي عندما نواجه الحياة . وهـذا أول الطريق ، فكيف اذا امتدت بي الخطوات ؟ أين كمال وقلبه كتاب مفتوح الصفحات اقرأه دون عناء ؟ وأين اخي منصور ونفسه على لسانه ؟ وأين العم محمد بتجاربه الطويلة؟ لقد عاش كما عشت الى اليوم على ضفاف الحياة ، على الشطئان ننظر الى الماء دون ان نخوضه ، هنا البحر الاحمر لا بل الباسفيك، هنا وزارة المالية التي سأعمل فيها موظفاً موصى عليه.

وغاثت نفسه من العمل قبل ان يبدأه ، وود في دخيلة نفسه لو ينشب اظفاره في العنق الغليـــظ الذي يسير امامه ويخلص منذ الآن، قبل ان يواجه، المستقبل المهين الذي ينتظره تحت امرة هذا الموظف .

واحصى في سره الاهانات التي لحقته منـــذ الصباح ، ابتداء من الحاجب الذي تلقى منه التحية بنظـرة متفحصة تحمل كل معاني التساؤل والاستنكار وعدم الاهتمام ، الى ان انتهى الى هذه اللحظة التي يسير فيهـــا خلف رئيسه المباشر . هذا الرئيس الذي كال له الاهانات في اسلوب النصائح الثمينة . كما تخيل الاهانات التي سيتلقاها منذ اليوم على يدي هذا الرئيس ويدي غـيره من الموظفـــين . ان الطابور لم ينته بعد ، لقد بدأ الآن فقط .

وفكر طويلاً وهو يصغي إلى صرير حذاء رئيسه الذي يتقدمه بخطوات ، ويصغي إلى حديثه الذي رسم به خطوط العمل ومنهج الوظيفة ، واوضح به الفرق بـــين المدرسة والمكتب ، والفرق بين استاذ المدرسة ومدير المكتب .

سيكون هو هنا استاذ نفسه منذ اليوم وسيُفرض عليه ان يتعلم دون ان يسأل ، واذا غمض عليه امـــر او استعصى عليه فهمه ، فيجب ان ينتظر وان لا يستوضح، ربما كان الاستيضاح تدخلاً فيما لا يعنيه .

ووجد نفسه بين الاقدام والاحجام تدفعـــه الى الامام اوهام يتصورها ويجذبه من الخلف واقع يلمسه ويحس به.

ولم يكن الظرف يحتمل تأجيل البت في هذا الامر ، في هذه الخطوات القصيرة التي تقوده نحو المكتب.. يجب ان يقرر ما إذا كان سيحتمل كل ما يأتي به المستقبل او يرفضه: (نعم) او (لا) .

وتراءى له البيت المتهدم المتواري في زقاق الباشا والحياة القاسية التي يحياها ، كما تخيل الحياة التي تنتظره اذا قدر له الاستمرار في عمله الجديد . وردد في سره : « سوف اقبل » .

وكانا قد وصلا حينذاك الى باب الحجرة التي قصداها. وتبع اسماعيل رئيسه الى داخل الحجرة،ووقف برهة يردد بصره بين اركان الحجرة ، فأشار له الى مقعد في ركن قصي فجلس عليه منتظراً الأوامر الجديدة .

وكانت الحجرة تضم ثلاثة مكاتب حديديـــة ، وضع اكبرها في صدر الحجرة يحف به المكتبان الصغيران من الجانبين . وكان يجلس عليهما موظفان اختلفا في مظهرهما وان كانت نظـــرة التساؤل الممزوج بالدهشة قد وحدت بينهما في نظره .

اولهما كهل قصير يميل الى البدانة وعلى وجهه امارات الطيبة والسذاجة ، اما الآخر فنحيف صغير السن يبدو في نظراته بريق المكر . وكان يبدو على وجهه البدين التلهف الى سؤال رئيسه عن بغية الشخص الجديد الذي دخل عليهما الحجرة بصحبته ، وقد بدا اهتمامه واضحاً عندما ترك ما

بيده من اوراق .

وسارع مدير المكتب وعرفهما باسماعيل،وعاد كل منهما ينظر في أوراقه في حركة لا تنم عن الانصراف الى العمل قدر ما تشي بالتفكير في أمر الوافد الجديد .

وانتبه اسماعيل الى صوت الموظف البدين وهو يسأل باهتمام :

— منقول من ادارة اخرى أم جديد ؟

وكان السؤال موجهاً الى مدير المكتب ، الذي اجابه فوراً بلهجة استرعت انتباه اسماعيل :

— جديد ، من المدرسة .

وابتسم الموظف البدين كما ابتسم الموظف النحيف . ولم ينزعج اسماعيل من السؤال أو الاجابة ، كما لم ينزعج من الابتسامة . فقد وطّن نفسه على قبول كل ما يأتي به المستقبل قبل ان يدخل هذا المكتب .

واستأذن اسماعيل من رئيسه في نقل مقعده الى جانب الموظف البدين فأومأ اليه رئيسه بالموافقة ، قائلاً في استدراك :

— اني لم اعرفك بزميليك في العمل : هذا السيد عبد الحميد صابر (مشيراً الى الموظف البدين) .

ثم اشار الى الموظف الآخر وهو يقول « حسين عبد الرزاق » .

واجابه اسماعيل في الوقت الذي كان ينقل فيه المقعد:

ـ لي الشرف في العمل معهما تحت ارشادك .

واهتز عبد الحميد صابر فرحاً بعد ان اختاره الموظف الجديد مرشداً له .. بدا ذلك في ومضة عينيه واهتزازهما وقيامه من مكانه يوسع للزميل الجديد مكاناً بجانبه، وابتسامة شكر ترفّ على شفتيه .

ومدّ اسماعيل نظره الى بعض الاوراق الموضوعة على جانب من المكتب ، فسارع عبد الحميد ومد له اضبارة كاملة من الاوراق وهو يقول :

ـ اقرأها من آخر ورقة ، فالورقة الاولى بالاضبارة هي آخر مرحلة وصلت اليها المعاملة .

وابتسم اسماعيل ابتسامة شكر وهو يتناول الاضبارة الثقيلة ، ووقعت يده دون عناء على فجوة بين الاوراق المثبتة في الاضبارة ففتحها واذا برواية من روايات الجيب تبدو له بين الاوراق ، فأخرجها . وسارع عبد الحميد يتناول منه الرواية وهو يقول :

ـ هواية .

ولم يفهم اسماعيل ما يعنيه صاحبه . وعندما استوضحه اجاب عبد الحميد :

ـ هواية الادب ادركتني منذ صدر الشباب . وفي الوقت ذاته تسالي وتضييع وقت .

وابتهج اسماعيل لهذه الومضة المتألقة التي بدت له أخيراً بعد ان ادركه اليأس القاتل قبل لحظات ، اليأس الذي

استشعره من حديث رئيسه عن صعوبة العمل في الميدان المليء بالاشواك والعراقيل التي تعترض تقدمه في هذا الميدان.

هذا مثل يواجهه على سهولة العمل لا صعوبته، روايات الجيب بين طيات الاوراق .

فقال في سرور :

ـ ولكن الوقت من ذهب ، وطريق العمل مليء بالاشواك .

وضحك عبد الحميد بعد ان فتح درج مكتبه قائلاً :

ـ انظر ثلاث روايات لارسين لوبين، ونسخة من الف ليلة وليلة ، وحمص ولوز . وبعد ان أقفل الدرج استطرد قائلاً :

ـ وبعد نصف ساعة نتصبر بلقمتين، وبعد ساعة نأخذ مشالحنا ونغادر المكتب . ان العمل قاسٍ وصعب ، ونحن نستعين عليه بالمشهيات .

وزاد ابتهاج اسماعيل بما يراه وقال :

ـ وما هواية الموظف الذي امامنا ؟

ورد عليه عبد الحميد بصوت خفيض :

ـ الروايات الغرامية ، وشعر الغزل ، انه اصغر مني سناً كما ترى . درجه مكتبة حب. ان الروايات الغرامية في الحقيقة ألذّ بكثير من الروايات البوليسية ، ولكن قلبي لا يتحمل الصدمات العاطفية . يكفي ما اعانيه من الحياة. امس الماضي قرأ عليّ فصلاً كاملاً من رواية ماجدولين

فبكيت بكاء مراً،وعندما دخل علينا المدير غادرت الحجرة خشية ان يرى دموعي .

وكاد اسماعيل ان يضحك ، ولكنه امسك وقال بعد هنيهة :

ــ ولكن يبدو لي ان في حياتك لغزاً لا افهمه .

ورد عليه عبد الحميد في سرعة :

ــ ليس هناك لغز . هناك ظلم لحقني منذ الصغر ، مات ابي وانا صغير فاضطررت ان اترك الدراسة لأعول امي وثلاثة اخوة ، وعندما التحقت بالوظيفة تقدمني من هو اصغر مني سناً واحدث مني في العمل ، ورضيت بعد ان حاولت دفع الظلم عن نفسي فلم أستطع ، واستخدمت كل الوسائل فلم اوفق.وأخيراً اتجهت إلى القراءة والأكل، كنت مثلك نحيفاً وها انذا الآن أزن مائة كيلو غير العظم، ولم اتزوج الى الآن وقد ناهزت الثامنة والاربعين.هل ترى في حياتي لغزاً ؟

وذعر اسماعيل وهو يستمع إلى قصة عبد الحميد . الخطوط الرئيسية ذاتها،مات ابوه واضطر الى ترك الدراسة (وكنت نحيفاً مثلك)،وتصوّر نفسه وقد أصبح وزنه مائة كيلو غير العظم . وغاض من نفسه حبّ العمل ، وود في قرارة نفسه ان لو يعود إلى المدرسة . فهذا مثل سيء يواجهه في اليوم الاول .. وهو فأل يبث الذعر في نفسه ، هل سيسير في الحياة كما سار عبد الحميد ، ثم

يقطع الحياة في طمأنينة وراحة بال كطمأنينة عبد الحميد وراحة باله ؟

هذا نموذج آخر غريب كل الغرابة عليه ، ما أشقى حياة العمل اذا كان سيواجه في كل لحظة مثلاً شاذاً يفت في عضده ، ويبث فيه روح التردد والقلق .

وهذه الحياة التي لا تحفها نسمة عاطرة . حياة الجفاف والجدب وعدم الاستقرار . كيف يتسنى له ان يقطع هذه المسافات الطويلة دون ان يجد الى جواره القلب الذي يحنو عليه ويخفف عنه قسوة الحياة ، حياة البيت السعيد ؟ ان في حياته هو ذاته دافعاً قوياً أحس به يدفعه بحنو الى حياة العمل ، ان حياته التي يحياهـا كانت من الاسباب التي دفعته الى ان يغير مجرى حياته ، بيد ان هناك دافعاً يحس به وان لم يصرح به لاحد ، انه سره الدفين .

هناك وراء نوافذ البيت الكبير الذي يقصده عصر كل يوم ، بيت صديقه الوفي كمال ، وجه عرفه منذ الصغر ، وجه (سميرة) شقيقة كمال التي ناهزت الخامسة عشرة من عمرها وحجبت منذ اول هذا العام . ذلك الوجـه الجميل أصبح هاديه منذ زمن في الطريق ، كالبدوي في صحرائه يشق دروبه عبر الفيافي الواسعة ، وهو ينظر الى السماء ، هـذه الثريا وذاك سهيل ، وهذه نجمة المساء وتلك نجمة الصباح ، صفحة مكشوفة امامه يستهدي بها في ليله المعتم ، ويعرف بها طريقه . ما أفظع ان لا يكون في حياتنا حب

يدفعنا في دروب الحياة برفق وحنو ، نشعر معـه بأن في حياتنا هدفاً نستهدفه .

وأوشك ان يقول لعبد الحميد: « الم يكن في حياتك حب ؟ » ولكنه قال :

ـ ولماذا لم تتزوج ؟

وأجابه عبد الحميد وهو يصعد زفرة مكتومة :

ـ الزواج مكتوب منذ الازل . ويقيني انه قد كتب امام اسمي (عازب أزلي) (وترقرقت دمعة في عينـه) وهو يستطرد : ليس لي نصيب فيه ، سوف اقطع الحياة طولاً بينما يعيشها غيري عرضاً وعمقاً .

هذه الحياة سوف اقبلها على صورتها المتجهمة . خير لي ان اقطع ما بقي من الحياة عازباً على ان أسمع من وراء احجار القبر « هذا جناه ابـي علي » . الكلمة التي قلتها وانا صبي في الثالثة عشرة من عمري،أي قبل خمسة وثلاثين عاماً .

وبعد ان صمت هنيهة سأل اسماعيل :

ـ كم عمرك ؟

فأجابه اسماعيل :

ـ سبعة عشر عاماً .

وعاد يسأله :

ـ وعمرك في العمل ؟

ـ هذا أول يوم .

قال عبد الحميد يغتصب ابتسامة :

ـ بداية حسنة ان شاء الله . أرجو ان تكون أوفـــر حظاً من جارك (ثم ضحك قبل ان يقول) :

ـ وما هي هوايتك في القراءة ؟

قال اسماعيل :

ـ الروايات العاطفية .

قال عبد الحميد :

ـ في حياتك حب اذن ؟

ورد عليه اسماعيل بعد ان وجد نفسه منساقاً مع الرجل الكهل :

ـ لا أستطيع ان أحدده هل هو رغبة او اعجاب .

ـ ابنة عمك ؟

ـ أقرب بكثير .

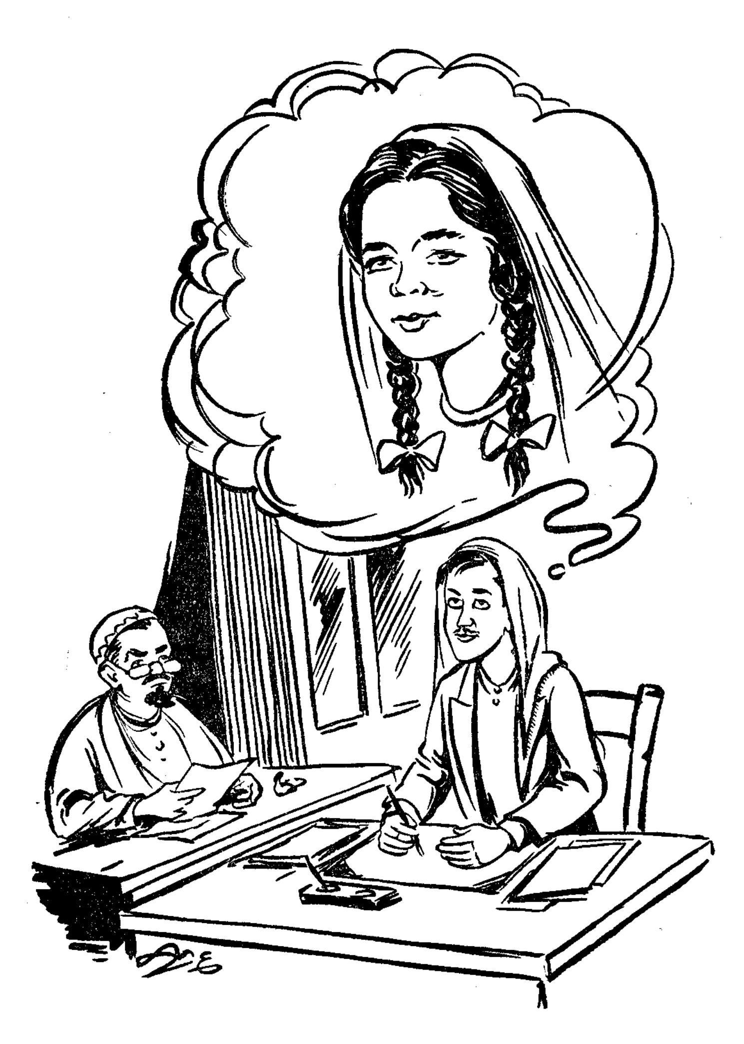
ـ لا أفهم ماذا تقصد .

ـ حلمي منذ الصغر ، فهناك أحلام نعيش فيها طول العمر وتصبح بمرور الايام جزءاً من كياننـا وقطعـــة من انفسنا ، ان تلك الاحلام تمثل أهدافنا في الحيـــاة فنسعى جهدنا لتحقيقها مهما كلفنا الامر .

ـ اختلطت بها إذن .

ـ طول العمر.واراها في كل وقت وبعد ان احتجبت اصبحت اراها بخيالي الجامح.

ـ وما مبعث حبك او إعجابك ؟



واراها في كل وقت ، وبعد ان احتجبت اصبحت اراها بخيالي الجامح

– كنت ألعب معها واجلس اليها ساعات .

– وما شعورها نحوك ؟

– لغة العين،على قدر إدراكي وفهمي، تقول نعم منذ صغرها .

– واحساسك نحو هذا الشعور ؟

– تجاوب مطلق ، وسوف أبدأ في الكفاح من اجلها.

– جميلة ؟

– جمال لا تمل العين رؤيته .

– في مثل سنك ؟

– اصغر مني .

– ما اسمها ؟

– نجمة السماء .

– لم اسمع بهذا الاسم من قبل .

– هذا الاسم الذي اطلقته عليها ، كنت أراها دائماً في المساء . وفي اليوم الذي بدأ شعوري يتبلور نحوها قبل ان تحتجب رأيتها تزهو في ثوبها الازرق ، فبدا وجهها الابيض الجميل كنجمة المساء تحوطه الزرقة من جوانبه . وهتفت في نفسي ليلتذاك « هذه نجمة المساء ». واحتجبت بعد ذلك اليوم فقد بدأت انوثتها تظهر رويداً رويداً . وعندما تكتمل انوثتها في بضع السنوات القادمة ، اكون قد قطعت شوطاً نحوها ، نحو تحقيق التكافؤ المادي .

وظهر بريق التلهف على وجه عبد الحميد وهو يسأل:

– وهل هي مخطوبة لك ؟

– نعم ولا . لقد اصبحت املي الوحيد ولا أعتقد ان شقيقها يمانع في هذا الامر .

– وما ادراك .

– لقد المحت له عن ذلك مرات .

– وأبوها ؟

قال اسماعيل بعد ان صمت هنيهة :

– هذه آخر خطوة .

قال عبد الحميد وهو يرسل نظرة بعيدة :

– هذه عقدة العقد . في بلادنا هنا لا يقيمون وزناً لعاطفتها ولا لعاطفتك ، وشقيقها ليس صاحب رأي في الموضوع . (وبعد ان سكت لحظة استأنف)، عسى ان اراك في مقتبل ايامك سعيداً وقد ظفرت بأمنيتك ولذة الحب في الكفاح . سوف تسير في الطريق الشائك وتقطع صحراء ايامك وامامك (نجمة المساء) تستهدي بها الطريق. ويقيني انك ستصل ما دمت مصمماً على تحقيق هذه الرغبة. وهذا الاحساس وحده سعادة لا تدانيها سعادة النوال دون كفاح او سهر . سوف تحس وانت تجتاز القفر وتذلل العراقيل ان وراءك روحاً من عالم الروح تتتبع خطواتك وتعيش معك . ما اسعد ان نكون كذلك (وصعد زفرة من صدره وهو يقول) اما انا فقد قطعت معظم الطريق وها انذا في نهايته ، وهذا سر شقائي . (ولكنه عاد وابتسم

قبل ان يقول) واظنك استوعبت تاريخ العشاق والمحبين؟
وابتسم اسماعيل كذلك قبل ان يجيبه :
ــ عن ظهر قلب ، ديوان شعر متحرك وموسوعة تاريخية لعشاق التاريخ ، قيس وكثيّر وجميل ، رهبان الحب في تاريخنا القديم ، اني اعيش مع كل منهم في حبه العظيم .
وعندما أحسا بحركة ايقظتهما من سباتهما العاطفي، رفعا أعينهما فوجدا مدير المكتب يقف وسط الحجرة على أهبة الخروج . وكان حسين الموظف الثاني بالمكتب قد اقفل مكتبه بعد ان اخرج كتاباً منه . وقال مدير المكتب وهو يبتسم لعبد الحميد :
ــ أراك قد بدأت في تلقينه مبادىء العمل . اني انصح علي كل حال على ان تبين له الصعوبات الحقيقية فيما سيواجهه .
وابتسم عبد الحميد وهو يقول :
ــ لقد اطلعته على درج مكتبي ورأى المعاملات على ألوانها المختلفة . ولا أشك في استعداده العظيم للعمل المجدي . اتركه معي وسيكون خير خلف لك في هذا المكتب بعد ان تكون سعادتك قد ترفعت الى المراتب العليا.
وابتسم المدير بزهو وارتياح وغادر المكتب وتبعه مرؤوسوه.

٥

كان كمال صامتاً وهو يقود السيارة ، وكان منصور بجانبه صامتاً كذلك . وبعد ان قطعت السيارة جزءاً من الطريق المؤدي الى المدرسة،انتبه كمال فجأة وكأنه استيقظ من سبات عميق ، واوقف السيارة بعد ان كاد يدهس رجلاً عجوزاً يقطع الشارع من جانب الى آخر .

والتفت الى منصور الذي ذعر لرؤية الرجل العجوز وقد كادت تدهسه السيارة، وقال بعد ان ابتسم ابتسامة مقتضبة يخفف بها من وقع المنظر على نفس منصور :

— اليوم يوم المفاجآت .

قال منصور بصوت مرتجف وما زال وقع الحادث مرسوماً امام عينيه :

— سليمة ان شاء الله .

قال كمال بعد ان استأنف السير :

ـ ألم تسمع ما دار بين امك واخيك من حديث ؟

واجابه منصور :

ـ بل لم ألاحظ شيئاً إلى ان خرجت من بصحبته .

قال كمال :

ـ يبدو لي ان الامر مبيتاً من قبل .

واجابه منصور :

ـ منذ زمن لم يكن اسماعيل راضياً بأن تستمر امي في العمل، وكان يترقب الفرصة لكي يترك المدرسة ويحل محلها في القيام بشؤون العائلة .

قال كمال بصوت خفيض :

ـ ولكنه صغير السن ليس أهلاً للعمل ، كما ان جو العمل سوف لا يروقه . اني اعرف اسماعيل فهو حساس وعاطفي الى جانب قلة تجربته . كلنا كذلك . ولكن ... (وبعد ان مصمص بشفتيه استأنف) ليبق هذا الامر في سرك ، لا تخبر احداً من التلاميذ بأن اسماعيل سوف يترك الدراسة ، ربما يرجع عن رأيه ويعود إلى المدرسة .

ولكن منصور اجابه مستنكراً :

ـ يعود إلى المدرسة ؟ لا اظن . انه يحلم بأن ينتقل من هذا البيت إلى بيت آخر وهذه فرصته، كما ان حياتنا لم تعُد تروقه . لقد قال لأمي ذات مـرة ونحن على الغداء: « زهقت من الأكل البايت في هذا البيت المتهدم » . وبكت امي يومذاك وقد شاركتُها البكـاء ، ومن العجيب

انه هو نفسه بكى لبكائنا .

وكان كمال مصغياً الى حديث الصغير بجميع حواسه ، وما لبث ان قال :

ـ أنت لا تعرف أخاك مثلي . ان اسماعيل بكلامه الذي تحدثت به الآن يهدف الى ان يحمل عن املك هذا العبء . لقد كان يقول لي دائماً : ما أفظع ان تتكفل امرأة باعاشة ابنائها . لقد كان يشعر بأن هذا واجبه ، وكان يتوق دائماً الى اليوم الذي يخرج فيه الى ميدان العمل بشرط ان ترضى أمه بذلك .

وكانا قد وصلا حينذاك الى المدرسة . وبعد ان اقفل كمال سيارته دلف الى الباب الخارجي وهو ما زال يفكر ، على حين اتجه منصور الى زملائه الصغار . أما كمال فقد انتظر واقفاً في مقدمة الفناء وكأنه يبحث عن شخص ما. ومر به زملاؤه واحداً اثر آخر وهو ما زال واقفاً في مكانه . وسأله أحد زملائه بعد ان سلّم عليه، عن اسماعيل صديقه الذي يعتبر في نظر التلاميذ (بقية صورة كمال) او الجزء الثاني من صورته . وردّ عليه كمال : (تغيب اليوم عن المدرسة لعذر طارىء) .

وعندما غادره هذا الزميل، عاد كمال الى تفكيره وأدرك وقع المفاجأة على نفسه . لو استمر اسماعيل في طريقه الذي بدأه اليوم فسوف يبقى هو في هذه المدرسة ، جزءاً من كل ، جزءاً يفتقد جزءه الآخر وسيظل يبحث عنه . ان

صداقته لاسماعيل قد تعدت مرحلة الصداقة العادية ، لقد أصبحت منذ زمن أخوة لا ينقصهــا الا الدم . لم يكن يتصور ان سيجيء اليوم الذي يفترق فيه عن صاحبه دون مقدمات يهيء لها نفسه . لقد كان اسماهما مرتبطــين في أذهان أقرانهـما بمدلول واحد لا يتجزأ . اذا قيـل « جاء كمال » فمعنى ذلك « جاء كمال واسماعيل » واذا قيل « خرج اسماعيل » فانما القصد « خرج اسماعيل وكمال » .

لقد امتدت صداقتهما منذ الصغر ، منـذ عشر سنوات عندما كانا طفلين صغيرين يلعبان الكـــرة بعد عصر كل يوم في الساحة الواسعة التي تقـع بجوار بيت كمال . تلك الساحة التي شهدت مختلف المنازعات بين فريقين من اللاعبين ، وشهدت المنافسة الشديدة على رئاسة الفريق بين حزبين طال اختلافهما على من يتولى الرئاسة ، وكان كمال يحرص على بقاء الرئاسة في يده على ان يبقى اسماعيل « كابتين » الفريق .

وكانت الجلسات الثنائية التي يعقدها كـمال في منزله بالاشتراك مع اسماعيل يخططان فيها الخطط لمواجهة المعارضة القوية ، تمتد ساعتين او اكثر مساء كل يوم بعد انتهـاء اللعب . وكانت « سميرة » شقيقة كمال تشاركهما الـرأي والمناقشة بتحفظ . وكانت تحرص عـلى ان تشرف على خدمتهما في هذه الجلسات ، تجلس منهما غير بعيد – بعد ان تصرف الخادم الصغير – وامامها أواني الشاي تسكبه في الاقداح الصغيرة ، ولا تملّ الجلوس مهما طالت الجلسات ،

وتلبي طلباتهما المتكررة ، اذا جاع واحد منهما اسرعت تحضر له الطعام من الدور العلوي حيث يقع المطبخ .

وقد كانت ترتاح لحديث التنظيم والاعداد للمباريات ، ولم يكن يضايقها سوى التعبيرات الفنية للعبة، وخاصة عندما يمتد حديثهما في ذلك فترة طويلة . وكانت تقاطعهما كثيراً في تفسير معنى الفوز والانكسار ، والفوز في رأيها يرتبط بالفأل الحسن والاعداد الروحي . فقد كانت تثبت لهما قطعة من القماش الاخضر في طرف ملابس اللعب اعتقاداً منها ان الخضرة غالبة ولا شك لانها لون الجنّة التي وعد الله بها المتقين . وكانت تقرأ لهما قبل ان يبدأ اللعب « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » وتنفخ بفمها الصغير على وجه كل منهما ثلاث مرات .

وبمرور الايام وامتداد الزمن ، اصبح اسماعيل جزءاً من هـــذا البيت ككمال سواء بسواء ، يدخل البيت متى شاء ويجلس فيه كيف يشاء . وكان كمال يعتـــبر بيته اسماعيل بيتـــه هو كذلك ، يجلس الساعات الطويلة امام « عزيزة » والدة اسماعيل ويثرثر معها وينقل لها ما يحدث في بيته بأمانة واخلاص ودقة في سرد التفصيلات ، ويعقب عـــلى كل حادث برأيه ورأي اخته الصغـــيرة في سير الحوادث .

قال لها ذات مرة وهو لم يزل في سن الطفولة لقـــد عاد ابـي اليوم الى البيت وكان يبدو على وجهه ان امراً

يشغله ، كان مهموماً عندما دخل المنزل ، وكنت واختي في الدور العلوي وفي خلال الفترة التي تأهبنا فيها للنزول، سمعنا مناقشة حادة بين أبي وأمي فانتظرنا ريثما ينتهي النقاش ، ولكن النقاش انتهى بعودة ابي الى دكانه في ذات اللحظة ، عاد وبقيت امي وحدها . وعندما طال انتظارنا ونحن نجلس امامها في انتظار الغداء صاحت بأعلى صوتها ليس لدي اكل . (وبعد ان تريث كمال لحظة استأنف) ان امي طيبة القلب ولكنها تثور دائماً لأتفه الامور . ان ابي يحبها ويحب اولاده ويحب بيته ، ولكن طلبات امي لا تنتهي ، لديها في خزائن البيت ما لا يحصى من الاقمشة المخزونة التي مرّ عليها وقت طويل . وقبل ثلاثة ايام اخرجت من احدى الخزائن خمسة دروج من الاقمشة الحريرية والقطنية بعد ان أكلها العثّ ولم يبق فيها اي قطعة سليمة . انها تطلب كل شيء لتخزنه وكأنما تقدمه هدية للعث والفئران » .

قالت عزيزة تخفف وقع الحادث على احساسه: « لا تنزعج يا كمال ، الحرص ينمو معنا دائماً،ولا تحدث احداً هذا الحديث » .

قال كمال وكأنما يؤكد لها استماعه الى النصيحة « لا يمكن ان اقول هذا الكلام لغيرك ، انت كأمي ،(وبعد ان تنهد بعمق قال) » ليتك امي .

وارتجفت عزيزة من صدى ما سمعته: « ان هذا الطفل

الغرير ، يتمنى ان لو يفقد كل شيء من مظاهر الترف والنعمة : البيت الكبير ، والخدم ، والمال ، كي يستمتع وجدانه بعاطفة ثرة تربط بين والديه » .

واهتز اسماعيل الطفل وهو يصغي الى الحديث « لا راحة اذن في هذه الدنيا ، ان المال المتدفق ، والتجارة الواسعة ، ومظاهر الترف والنعمة ، لم ترض نفس كمال ، انه في حاجة الى أم كأمي وانا لم أرض كل الرضا عن السعادة المتوفرة في بيتي والتي يفتقدها كمال في حياته لاني في حاجة الى المال . اين الراحة اذن ؟ »

واستعرض كمال وهو يجلس في فصله الدراسي كل دقائق تاريخه وتاريخ صداقته لاسماعيل، واشفق على اسماعيل كما اشفق على نفسه .

لقد افترق الطريق منذ اليوم وسوف يؤرخ لهذا اليوم في ذاكرته . وهزّه الشوق الى صديقه وهو يرى مقعده خالياً من شخصه .

وما ان انتهى اليوم الدراسي حتى اسرع الى بيته يتناول غداءه على عجل ، وفي نصف الساعة التالي كان متجهاً الى بيت اسماعيل . وقطع درجات المنزل وثباً وهو ينادي اسماعيل ، وجاءه صوت منصور يلبي نداءه . وكان كمال قد وصل الى المجلس الذي تعيش فيه الاسرة . وسلم على « خالته عزيزة » وجلس وهو يتلفت يمنة ويسرة باحثاً عن اسماعيل .

قالت له عزيزة :

– لم يأت بعدُ ، هـــذا اليوم الاول ، لا ادري ما هي اخباره .

قال لها كمال وهو ما زال يردد بصره في انحاء الحجرة :

– ولم لا تسأليني عن اخباري .

وضحكت عزيزة وهي تقول :

– اني مطمئنة عليك ، حياتك لم تتغير .

ورد عليها كمال :

– لقد تغيرت منذ الصباح الباكر ، انقلبت رأساً على عقب . اني افكر في الانقطاع عن الدراسة .

وانزعجت عزيزة .

– ماذا تقول ؟ ما هذا التفكير الخاطىء ، ان اسماعيل معذور ، أما انت ...

وقاطعها كمال :

– ماذا سأستفيد من الدراسة ؟

قالت بصوت مرتفع :

– ان اسماعيل لم ينقطع عن الدراسة الا مكرهاً تحت ضغط ظروفنا ، وانت ادرى الناس بنا .

وما كاد يستأنف حديثه حتى رأى اسماعيل واقفاً على الباب وهو يبتسم ويقول :

– لقد وجدت سيارتك في الساحـــة ، فأردت ان افاجئكم بعد ان استمع الى حديثكم . لقد صعدت على اطراف



أخبارك أنت أولا ...

قدمي ، واستمعت الى طرف من الحديث . ما هي اخبار المدرسة ؟

قال كمال بعد ان وقف واوسع لاسماعيل مكاناً بجواره :

– اخبارك انت اولاً .

– اخباري سارة . مجتمع لطيف ، عمل سهل، ومدير المكتب في حاجة الى سماع امنيات طيبة ورجل كهل بجواري شاركته المكتب . وارسين لوبين وحمص وقيس وليلى ، هذا هو العمل .

قال كمال بعد ان اتجه ببصره اليه متفرغاً لسماع الحديث :

– لم أفهم ما تقول .

– ولن تفهمه . أكداس من المعاملات تمشي على مهل ، عريقة التاريخ . وموظف في الثامنة والاربعين من عمره يحتفظ في درج مكتبه بالروايات البوليسية ، وقرطاس من الحمص وآخر من اللوز .

وتساءل كمال :

– اذن ليس هناك عمل .

– عمل كثير . ولكن العجلة من الشيطان ،ولا معقب على ما تفعل .

قال كمال :

– لنترك هذا الجانب الآن . هل صدر أمر تعيينك ؟

– أُعد من الصباح وسيكون راتبي كراتب الكهل الذي قضى ثلاثين عاماً في الوظيفة .

وشهقت امه وهي تقول :

ــ ثلاثون عاماً في الوظيفة ، وسيكون راتبك كراتبه! ماذا يعمل هذا الرجل ؟

قال اسماعيل :

ــ يقرأ الروايات البوليسية ويأكل الحمص ، ويشكو دهره لجاره .

قالت عزيزة وهي تضرب على صدرها :

ــ لا تجلس بجواره . ابعد عنه لا يلحقك شؤمه .

ــ ولكن حديثه فتح أمامي الطريق الشائك .

قال كمال :

ــ واي طريق يراه مثل هذا الرجل ؟ لو رأى الطريق لسار ولم يتجاوزه غيره .

فردّ عليه اسماعيل :

ــ هذا حظه . ولو لم أقضِ بجواره الساعتين اللتين مكثتها بالمكتب ، لعدت اليكم بعد ان رفضت العمل .

وحينما تساءلت امه في شغف استأنف :

ــ مدير المكتب سدّ أمامي الطرق وأفهمني ان العمل لغز لا يتأتى فهمه . وان طريق العمل شائك لا يتخطاه الشخص الا بعد ان يلهث اعياء وتعباً . وعندما جلست بجانب الرجل الكهل ، أراني درج مكتبه المليء بالحمص وروايات الجيب ، وقال لي هذا عملي . لقد انتهيت بعد ساعتين الى سبب التفاوت بين الرجلين : اولهما وجد من

الظروف ما ساعده على الوصول الى مركزه الحالي فأقنع نفسه وبالتالي يقنع كل من يقابله بأن وصوله لم يكن الا نتيجة جهاد مرير في ميدان العمل ، اما الثاني فقد فشل. لذلك فهو يهوّن الامر بالطريقة التي كشفها امامي، وكلاهما مخطيء .

وهتف كمال :

– ما هذا الذكاء ، وما هذه المقدرة على التحليل ايها التلميذ النجيب .

بينما ابتسمت عزيزة سروراً لقول كمال، وعقبت :

– انه صديق العمر وانت اعرف الناس به ، ولكني لم افهم كلامه الاخير .

وضحك اسماعيل وهو يوجه الحديث الى امه :

– لقد جعت .. اين الغداء ؟ وقبل كل شيء كيف صحتك ؟

قالت عزيزة :

– لقد نسيت نفسي وانا في انتظارك . ان بشرى عملك وارتياحك له سوف يوفر اجر الطبيب .

وغادرت مكانها متجهة الى المطبخ ، بينما استدار اسماعيل الى كمال يسأله :

– ما هي اخبارك ؟

– اخباري لا تروقك . لقد كدت ادهس رجلاً في الشارع ولكن الله سلم ، وقد قضيت اليوم الدراسي وحيداً

وسأل عنك بعض الاساتذة والزملاء فلم اخبرهم بالحقيقة :

– ولماذا لم تخبرهم ؟

قال كمال :

– لم اكن موقناً من ان جوّ العمل سيروقك .

– وماذا ظننت ؟

– ربما تعدل عن فكرة العمل .

قال اسماعيل :

– ألم اخبرك بما اعتزمت عليه منذ زمن ؟

– ولكن تنفيذ ما اعتزمته كان مفاجأة لي على غير انتظار .

– وهل يروقك ان استمر في المدرسة بينما تشكو امي؟

وكانت عزيزة قد اقبلت تحمل بين يديها صينية الغداء، وقد رصّت عليها الاطباق ، وكان على ملامحها وشي سعادة .

٦

كان احساس افـراد الاسرة بتطور احوالهم أعظم من التطور ذاته ، وابلغ من المظاهر الحسية التي تتراءى للفرد العادي . كان الوقت عقب صلاة المغرب وقد انتحت الام جانباً من المجلس ترفو بعض الثياب ، وجلس اسماعيل في الجانب المقابل وقد نشر أمامه كثيراً من الأوراق التي تعود حملها معه كل يوم الى المنزل ، بينما كان منصور في الحجرة الصغيرة المجاورة للمجلس يستذكر دروسه بصوت مرتفع حيناً ، وآناً بصوت خافت . وكثيراً ما كان يخلد الى السكون يتتبع في صمت حديث أمه واخيه .

وكان يبدو على وجه « عزيزة » الحبور والابتهاج بعد استعادة صحتها خلال الشهور الثلاثة الماضية ، تلك الشهور التي التزمت فيها نصائح الطبيب ، فابتعدت عن الاعمال المرهقة التي كانت تزاولها ، مما ساعد على ابلالها من مرضها

واستعادتها صحتها في أسرع وقت . ولا شك في ان تحسن ظروف حياتهم ،وتغير طريقة معيشتهم قد كانا أهم العوامل التي ساعدت في ذلك . ففي الوقت الذي ابتدأت فيه العلاج كان ابنها اسماعيل قد بدأ يعمل في وزارة المالية ،فاستشعرت بذلك احساس الاطمئنان . وكثيراً ما كانت تحمد الله بصوت مرتفع وتبتسم ابتسامة المطمئن الى تدبير الاقدار . انها تمرض في وقت كانت تضطر فيه الى العمل ،ولم تشعر بحقيقة الارهاق الذي تعانيه الا عندما بدأ ابنها اسماعيل يفكر تفكيراً جدياً في العمل وحمل العبء عنها .

ولاحت ابتسامة على ثغر اسماعيل وهو يقلب الاوراق بين يديه ولمحت امه ظلّ الابتسامة فابتسمت هي الاخرى قبل ان تقول :

ـ لقد ازداد ابتهاجك في الايام الاخيرة . يبدو انك قد انست الى زملائك في العمل فأنسوك زملاء المدرسة . قل لي كيف استطعت ذلك وألفت الجو الجديد بمثل هذه السرعة .؟

فرد اسماعيل ضاحكاً :

ـ كيف لا آلفه !لقد تذكرت عبد الحميد ،فقد أحال الي اليوم كل الاوراق التي كان يحتفظ بها في مكتبه فقمت بانجاز اجراءاتها التي لم تحتمل ساعتين . لقد قال وهو يسلّم لي الأوراق « هذه تركة حي لحي ، لقد كادت الاوراق تبلى في مكتبي وجئت انت لتنقذها من موت

محقق ، احملها عني اثابك الله » .

وسكت اسماعيل برهة قبل ان يستأنف :

— مسكين هذا الرجل ، انه يحمل هموم الدنيا خارج العمل ، وعندما نجتمع في المكتب يبدأ في القائها في صورة مزاح . انه يعالج آلام نفسه بالضحك والاكل وقراءة الروايات البوليسية .

فتساءلت امه بصوت مذعور :

— أهو ذلك الرجل الذي حدثتني عنه منذ زمن ؟ ألم انصحك بالبعد عنه .

فردّ اسماعيل مشيراً بيده كأنما يستمهلها الحكم :

— نعم ، هو ذاته ولكنني اكتشفت ان وراءه قصة ألم ، وان حياته مأساة متصلة الحلقات ، انه يعالج آلامه بالطريقة التي حدثتك عنها .

قالت امه بصوت واه بعد ان صعّدت زفرة من صدرها :

— ليس لدي استعداد لسماع المآسي ، لنعالج امورنا الخاصة اولاً . قل لي ما الذي انتهى اليه رأيك بشأن الانتقال من هذا المنزل . اني ما زلت عند رأيي الذي حدثتك عنه ، نستمر في سكنى منزلنا ونصلح خرابه بالمبلغ المتوفر لدينا ونستغل ما يتبقى معنا من المال في تغيير الاثاث البالي . هه ما رأيك ؟

وعلى صوت الحديث الدائر بينهما اقبل منصور متحمساً



فنكس رأسه قائلا في لهجة متخاذلة

وهو يقول :

– سوف اشارككما الرأي في هذا الموضوع .

ولم يمهله اسماعيل بل صاح فيه :

– عد الى كتبك فقد قرب الامتحان ، سنأخذ رأيك بعد الامتحان .

وصاح منصور وهو يقترب من أمه :

– تأخذون رأيي بعد فوات الاوان ؟

وهمّ اسماعيل بالقيام من مكانه ، فابتعد منصور نحو الحجرة الصغيرة ووقف يستمع الى الحديث دون ان يشارك فيه .

قال اسماعيل وهو يستأنف ما انقطع من الحديث :

– لقد وجدت منزلاً قريباً من منزل كمال وبايجار مناسب .

فقالت أمه :

– هذا ما توقعته ، لقد اقتصر بحثك على تلك الناحية على ما أظن .

فأجاب في استنكار :

– انا لم احدد حياً معيناً ، ولكن الأمر وقع هكذا مصادفة . ما رأيك ؟

قالت وهي تتأهب للقيام من مكانها :

– ولماذا تحرص على السكنى بجوار كمال ؟

فأشار اليها يرجوها الانتظار ، بينما استأنف قائلاً :

ـ لقد اخبرتك ان الامر وقع مصادفة . ومـــع ذلك فأنا لست حريصاً عليه ، سوف ابحث عن منزل غيره .
ـ ولكن الرأي رأيك على كل حال ، وماذا بعد ذلك؟
فنكس رأسه قائلاً في لهجة متخاذلة :
ـ اذا لم تكوني راضية عن ذلك فلا بأس ، سوف نبقى في هذا المنزل .
وانتظر ماذا تقول أمه . هل تحقق له رغبته أم تقف دون تحقيقها . ان الانتقال من هذا المنزل الذي قضى فيه طفولته انما يعني في رأيه قطع صلته بذكريات سابقة يحرص على نسيانها ، ومنظر هذا البيت انما يمثل تلك الذكريات ويمثل صورة الماضي من طفولته البائسة والحيـاة المتواضعة التي كان يحياها تحت ظلّ قاتم ودّ لو تلاشى من ذاكرته. لقد بدأ نور الفجر في حياته منـــذ ان باشر عمله وعرف طريقه فيه . إن البداية الحسنة تبشر بالمستقبل الذي يرنو اليه ، فما له يرتبط بالماضي وصورته الكئيبة ؟.
واطرق منتظراً رأي امه ، وان كان في قـرارة نفسه يود لو ينتزع منها موافقتها على رأيه في الانتقال من هذا المنزل، من منزلهم الحالي . ان منظره يمثل في نفسه عقدة الماضي وهو يريد ان يتناسى ذلك الماضي الذي ودعه الى غير رجعة . ودّ لو يستطيع ان يمحو كل ما حملته ذاكرته وما علق بوجدانه من صور السنوات العشر التي قضاها في هذا المنزل . السنوات التي يعي دقائقها منذ ان بدأ وجدانه

ينفتح للحياة المتحركة حوله . لقد استطاع ان يمحو الصور التي تواجهه في المنزل شيئاً فشيئاً ، ولكن المنزل ذاته بقي كما هو يحمل اليه في كل لحظـــة ذكريات طفولته . هنا كانت امه تنتحي هذا الركن ليل نهار وهي مكبّـــة على ماكينة الخياطة تواصل عملها في مشقـة ليعيش هو ويعيش اخوه من كدها ، انه يحس بدوار عندما يستعـــرض في ذاكرته ملامح من حياته الماضية .

وانتزعته امه من لجة التفكير وهي تقول :

ـ اخشى ان لا تكفي نقودنا لاستئجار المنزل ؟.

وبعد ان انتظرت لحظة اردفت قائلة :

ـ كم ايجار المنزل ؟

قال في صوت متخاذل بعد ان احس بالمشكلة الـــتي سيواجهها اذا لم تكف النقود :

ـ ألفان .

وشهقت امه قبل ان تقول :

ـ اننا لا نملك نصف هذا المبلغ .

فردّ عليها في حماس :

ـ سوف استدين .

قالت في ضجر بعد ان أزاحت ما بين يديها من ثياب وهمت بالقيام من مكانها :

ـ نعم الرأي ، سوف نبدأ حياة جديـدة نورزح فيها تحت اعباء الديون .

واتجهت نحو صندوقها الذي تحتفظ فيه بالنقود وهي تقول :

– ومع ذلك سأحصي ما نملكه وسأسلمه اليك تتصرف فيه حسب رغبتك . لقد جمعته من كدك ، ومن حقك ان تتصرف فيه كيفما تشاء .

وردّ عليها بعد ان تخاذل حماسه واحس بانهيار أمله ، وفشل في تحقيق اول رغبة من رغباته :

– ما قيمة النقود اذا لم تكوني راضية ؟

فقالت وهي تتوقف في مكانها بعد ان شعرت بعدوله عن رأيه :

– اني راضية ، خذ المبلغ وتصرف فيه حسبما يعن لك.

وردّ عليها وهو يغتصب ابتسامة يواجه بها الموقف :

– لقد عدلت ، سوف نرجىء الانتقال الى وقت آخر.

وعندما همت بالعودة الى مكانها ، كان اسماعيل يقترب منها مبتسماً ، وأخذ يدها بين يديه ثم رفعها الى فمه في قبلة طويلة . وعندما احس بابتهاجها قال في صوت خفيض :

– لديّ موضوع آخر .

واستعادت تقطيبة وجهها ونظرت اليه نظرة طويلـة . وعاجلها اسماعيل بابتسامة عريضة رسمها باتقان عـلى ثغره وأردف :

– لا تنزعجي .

فقالت بعد ان عادت الى الجلوس في مكانها ، وجلس

بجانبها في هدوء منتظراً سؤالها . وبعد ان اطال صمته فترة زحف اليها قليلاً الى ان التصق بها وقال متردداً :

— لا تنزعجي .

وأفلتت منها ضحكة وهي ترى حركاته وأحست بحاجته الى التشجيع فقالت :

— قل ما عندك .

— مجرد كلام في الهواء . اريد ان استطلع رأيك في موضوع يخصني . ولكنه... وسأخطو نحو تحقيقه اذا رضيت عنه . منذ زمن وانا اتحين الفرصة الملائمة للتحدث فيـــه واترقب الوقت المناسب للتداول فيه معك .

وقاطعته بعد ان نفد صبرها :

— وهل هذا هو الوقت المناسب للتحدث فيه .؟

— قلت لك انه كلام في الهواء .

فردت عليه وهي تضحك :

— اذا كان في الهواء فتحدث بما شئت .

قال وهو يربت على يدها :

— سوف أتحدث مع كمال في شأن شقيقته .

فرفعت بصرها اليه في حدة . ونظرت اليه نظرة طويلة عسى ان تسبر غوره وتعرف موضوع حديثه ، ولكنهـــا استعادت هدوءهـــا واطرقت قليلاً تنتظر ماذا يقول ، فاستأنف وهو ما زال ممسكاً بيدها :

— قلت لا تنزعجي . اسمعي حديثي اولاً .

– لقد انزعجت حقـاً . قل ما عندك واسرع . ما شأنك بشقيقة كمال ؟

بيد انها أحست بتأثير قسوتها على ملامح وجهه، فابتسمت تشجعه واردفت :

– اني منصتة اليك ، تحدث بحرية .

– ما رأيك في سميرة ... شقيقة كمال ؟

ولم تجبه ، وانما واصلت انصاتها مذهولة . فقد بدأت تقرأ افكاره من وراء تردده ، وتحدس ما سيقوله قبل ان يستمر في حديثه . وتساءلت في نفسها ، هل ستجاريه في امانيه فيمتد حبل امله ، الأمل الكاذب ، وتتضاعف ثقته فيما يتخيله . هل يفكر في ان يخطب سميرة لنفسه ؟... ولاحت لها حياتها وحياة ولديهـا منذ ان نشآ الى اليوم . وجفّ حلقها وهي تزمـع ان ترده الى الواقع الذي ما زالت اسرتهم تعيش فيه الى هذه اللحظة .

وانبثقت امامها صورة البيت الكبير الذي تعيش فيه اسرة كمال . وكادت تفلت منها دمعة وهي في موقف المشفق على ابنها ، ولكنها تماسكت ورددت في سرها ... من يدري ؟

ورفعت بصرها اليه ، وقد كان ينظر اليها في انتظار الجواب وقالت :

– اوضح غرضك ، لم افهم ما تقصد بعد .

قال وفي صوته تخاذل اليائس :

– سوف اتحدث مع كمال بشأن خطبة اخته ، استطلع رأيه الشخصي فقط .

واستبان لها الموقف ، فقالت تحاوره :

– ولكنها صغيرة وانت صغير ، وحالتنا المادية لم تعتدل بعد الى الحد الذي تفكر به في مثل هذه الامور . اترك هذا الحديث للمستقبل . أمامك طريق طويل يحسن بك ان تفكر في اجتيازه . ما جدوى هذه الافكار وانت لم تبدأ حياتك العملية الا منذ ثلاثة شهور ؟

وربتت بيدها على شعر رأسه في حنان جمّ استشعر معه فتور حماسه ، بيد انه لم يستسلم فقال :

– لقد قلت لك انه كلام في الهواء، سوف لا اتحدث فيه الا في الوقت المناسب .

فردت : لقد فهمت ، كنت اظن شيئاً آخر .

فقاطعها : سوف أجس النبض اولاً .

فتساءلت وقد عاودها الاشفاق :

– ممن تجسّ النبض ؟ من كمال ؟ وهل لرأيه قيمة في هذا الامر ؟

وذكر حديث الكهل عبد الحميد (شقيقها ليس صاحب رأي في الموضوع) من صاحب الرأي اذن ؟ ابوها ؟امها وهل يرضى به ابوها زوجاً لابنته الوحيدة ؟ هذا التاجر الذي يزن اموره دائماً بمقياس المادة ؟.

الربح والخسارة هما كفتا الميزان في نظرة . وهل يرضى هذا الرجل لابنته حياة اقل في مستواها من مستوى الحياة التي نشأت فيها منذ طفولتها الباكرة .

وغاثت نفسه من التفكير ، ان قضيته خاسرة . لو حكم فيها احد ابويها ، وعاد يفلسف الامر على هدى عقله وتفكيره وتساءل في مرارة كما تساءل قبل الآن كلما واجه عقبة من عقبات الحياة : لماذا مات والدي وانا صغير ؟ لكي اواجه هذه الحياة بوجهها السافر والقى العنت من سوء الموازين واختلاف المقاييس ؟ سوف لا يسأل أهلها عني ولا عن مستقبلي، فقد عرفوا من حياتي ما يكفي لحكمهم بالرفض . اما مستقبلي المنتظر ، وكفاحي في سبيله وبناء حياتي ، فكل تلك الامور لا تدخل في حسبانهم او تقديرهم ، حسب ابنتهم زوجاً يملك من المال ما يملكون ، وبيتاً كبيراً شاهقاً في مظهره . المظهر فحسب ، اما ما وراء الجدران فذلك ما لا يهمهم أمره .

ولم يحس بحاجته الى المال قدر ما أحس في هذه اللحظة وهو يواجه الحقيقة التي غابت عن تفكيره ومع ذلك فما زال هناك أمل على ضعفه ، سوف يشجعه على المضي في تحقيق رغبته .

صديقه كمال ربما كان صاحب رأي في الموضوع . سوف يفاتحه في الامر ويتحدث معه فيه وسيترك له بحثه مع والديه وسينتظر ، ربما كان الموقف على غير ما توقع .

وأجاب امه وهو يغادر مكانه :

– ربما يستطيع كمال ان يتحدث مع والده في الامر .

ولم ينتظر ما تقول امه ، فقد عاد الى اوراقه يلم شتاتها بعد ان توزع فكره الى امور جديدة ، وقامت هي متجهة الى المطبخ تعدّ العشاء بعد ان فات موعده .

٧

وقف عبد الحميد على باب المكتب المفتوح برهة يستردّ خلالها أنفاسه اللاهثة ، وكان صدره يرتفع وينخفض بعد ان قطع درجات الوزارة وثباً . وردد بصره يمنة ويسرة، ثم سلّم على زميليه وحياهما التحية المألوفة كل صباح ، وأشار الى مكان مدير المكتب الذي وجده خالياً من صاحبه كأنما يستوضح من زميليه . فردّ عليه اسماعيل « لقد ذهب الى الرئيس » مشيراً بيده الى الحجرة المجاورة .

وفي حركة المطمئن اتجه الى مكتبه الذي يحتل الركن الأيسر من الحجرة ، وعلّق عباءته وأخرج منديله يمسح به آثار العرق المتصبب على وجهه ، ثم جلس في مقعده وأودع درج مكتبه قرطاسين تعود حمل مثلهما كل يوم . وبعد ان هدأت أنفاسه قليلاً ، قال وهو يرقب باب الحجرة :

— هل سمعتم الأخبار الجديدة ؟

وترك اسماعيل اوراقه التي بين يديه ، واقفل قلمه متجهاً بانتباهه الى عبد الحميد . أما حسين فقد رفع رأسه دون مبالاة وشخص ببصره الى عبد الحميد وانتظر . بينما عاد هو وفتح درج مكتبه وأخرج قرطاساً ومدّ به الى اسماعيل قائلاً : تفضل .

فردّ اسماعيل بايماءة من رأسه وهو يقول :

— متشكر ، لقد افطرت منذ ساعة واحدة فقط (ثم في لهجة المتلهف) ما هي الاخبار ؟

قال عبد الحميد في صوت متزن بعد ان قذف بقبضته المليئة الى فمه :

— أخبار جديدة . قدومك خير علينا ولا شك . ألم تسمعوها بعد ؟ (وبعد ان القى نظرة أخرى على الباب استأنف) سوف يتأخر عند الرئيس . لا خوف علينا من دخوله الآن (ثم ملتفتاً الى زميليه) تشكيلات جديدة وتنقلات وترقيات سوف تشملنا جميعاً . ما رأيكم في ذلك؟

قال حسين :

— لقد سمعت بها منذ ايام، ولكن لم أعرف تفصيلاتها بعد.

فردّ عبد الحميد في لهجة الواثق المطلع على بواطن الأمور :

— سوف تدهشكم التفصيلات . عندما سمعت بها الليلة البارحة، وبعد ان وثقت من صحتها عدت الى البيت وقد

طار النوم من عيني .

خذوا ما يختص بنا أولاً : الاستاذ سليمان مدير المكتب سوف يرفع الى مدير لديوان الواردات ، وانا سوف انقل الى الخزينة مع زيادة الراتب ، وحسين سوف ينقل الى ادارة الميزانية مع زيادة راتبه ، اما اسماعيل فسوف يصبح مديراً لهذا المكتب . وقذف بقبضة اخرى من الحمص الى فمه وانتظر وقع الأخبار في زميليه . وردد بصره بينهما وهو يمضغ بنفس متفتحة . وبعد ان ابتلع ما بفمه استأنف : ما رأيكم في هذه الأخبار الحسنة؟بالنسبة لي سوف أتضايق حتماً ، فكثرة المراجعين في الخزينة سوف تحول بيني وبين القراءة ، ولكن لا بأس . القراءة ليست بذات اهمية ما دام الراتب سيتحسن . المهم عندي هو الاكل وسوف استطيع بطريقتي الخاصة ان آكل دون مضايقة (ثم في لهجة تساؤل) مالكم لا تتكلمون ؟ أدلوا بآرائكم في هذه الاخبار .

وردّ عليه حسين في عدم مبالاة :

— ليست مهمة الى حدّ كبير ، ولكن لا بأس بها على وجه العموم . واذا صحّ ما تقول فان رأيي فيها انها مرتجلة ولم يراعوا فيها العدالة .

وهبّ عبد الحميد من فوق مقعده قائلاً بصوت مرتفع ونظره ما زال مسلطاً على الباب :

— ماذا تريد ؟ وما هي العدالة في رأيك ؟ فيما يختص

بي انا قانع بهذه الترقية . فللمرة الاولى أنصف في هذه الوزارة. وانت كم قضيت في هذه الوظيفة ؟ (وانتظر لحظة قبل ان يجيب على نفسه) عـامين فقط قضيتها في قراءة الروايات الغرامية . يبدو لي ان قراءة الروايات الغراميـة تؤهل للترقية ، أحمد ربك . لقد جاءت الترقية عـلى غير انتظار ، أما اسماعيل فالحق يقال انه استحق هذه الترقية عن جدارة وكفاءة . لقد كدّ واجتهد وبذل جهده وفتح عينيـــه فاستوعب اسرار العمل بعد ان اقبل عليه برغبة واخلاص (ثم خفض من صوته موجهاً حديثه الى اسماعيل) اما الموضوعات الاخرى التي تحدثت بها إليّ فسوف تتحقق في اعقاب هذه الحركة الجديدة . اصبر وسوف ترى . (ثم ما لبث ان قام من مكانه متجهاً الى اسماعيل وتدنى منه قليلاً بعد ان اعتمد على المكتب بمرفقيه وقال له في صوت هامس) هل تحدثت في موضوعك ؟ اني اترقب نتيجة خطواتك ، قل لي ماذا عملت ؟

قال اسماعيل في لهجة متخاذلة وما زال اثر حديثه مع امه عالقاً بنفسه :

-- لا فائدة . ليس هناك امل . اني متردد في الامر بعد ان عزمت على التقدم الى اهلها ، لقد استشرت امي في ذلك فأوضحت لي اموراً غابت عن ذهني ، ولم انتـه الى الآن الى رأي معين ، حتى شقيقها لم اقابله خلال هذه الايام ، واني ارى ان اترك بحث هذا الامر الآن .

وقطب عبد الحميد بعد ان ازداد ارتكازه على المكتب، فصدرت منه قعقعة تحت ساعديه فصاح حسين من بعيد: لقد زاد نشاطك اليوم . نفسك مفتوحة للحديث والاكل. سوف نستوضح الاخبار من الاستاذ سليمان عندما يعود الآن.

فالتفت اليه عبد الحميد في انزعاج وقال في لهجة تأنيب:

— لقد ظننت انك امين على الاسرار (وبعد ان مصمص بشفتيه استأنف) ولكن للاسف .

فردّ حسين في لهجة المستهزىء :

— اية أسرار هذه ، وقد وصلت اليك . اقد كذبوا عليك ، اني لا اثق فيها لانها غير معقولة .

فاستدار اليه في غيظ حاول ان يكبته قائلاً « اعوذ بالله من الشيطان » وعاد الى وقفته السابقة فارتكز على المكتب متجهاً الى اسماعيل ، بينما جاءه صوت حسين متحدياً:

— وكيف تتيح لنفسك افشاء الاسرار ؟

وتدخل اسماعيل لاول مرة في الخلاف في محاولة لتهدئة الموقف ، فلم يمهله حسين بل وجه اليه الحديث قائلاً في حدة :

— لم تصبح بعد رئيساً للمكتب . فلا تتدخل في الموضوع وأرجو ان تكون بعيداً .

وقبل ان يرد عليه اسماعيل ، كان عبد الحميد قد اشار بيده اليه ان لا يردّ واستأنف ما انقطع من حديث :

— اذا تحققت هذه الاخبار فستكون من غير شك حافزاً

لك على التحدث في موضوعك .

فردّ اسماعيل :

– ربما ولكن هناك بعض الامور التي يصعب عليّ فهمها.

فتساءل عبد الحميد مهتماً :

– ما هي هذه الامور ؟ سوف اشرح لك ما استعصى عليك فهمه .

والتفت الاثنان فجأة على صوت خطوات رئيس المكتب بعد ان دخل الحجرة ممسكاً في يـــده اضبارة الاوراق . وابتسم للجميع واختص عبد الحميد بالتفاتة ونظرة طويلة قائلاً :

– ما هي الاخبار ؟

فردّ عبد الحميد بعد ان رنا نحو حسين بنظرة شامتة:

– وعند جهينة الخبر اليقين .

قال سليمان وهو يوجه حديثه الى الجميع :

– اهنئكم جميعاً ، فقد اعتمدت الحركة الجديدة وسوف تبلغون بها خلال يومين .

قال عبد الحميد في لهجة لا تنم عن الصدق :

– سوف نأسف للبعد عنك .

فردّ عليه في جذل مشوب بالفخر :

– لقد حـــاولت ان تكونوا معي ، ولكن ثقوا اني معكم دائماً .

ثم وجه حديثه الى اسماعيل قائلاً :

ـ ارجو ان لا يكون في نفسك اي اثر من موقفي معك . هل تذكر اليوم الاول ؟

فردّ اسماعيل مبتسماً :

ـ لقد ازالت الايام التالية كل ما علق بنفسي من ذلك الموقف .

وضحك سليمان وهو يردد بصره بين الموظفين الثلاثة الذين اتجهوا اليه بكل انتباههم :

ـ الحياة مدرسة على كل حال ، والتجارب هي الدروس وما عدا ذلك فخرافة .

فتصدى له عبد الحميد قائلاً :

ـ ولكن يجب الا ننسى أهمية الكتب ، فهي مدرسة اخرى . تصور اني اقرأ كتاباً في كل يومين .

فتساءل هذا :

ـ وماذا استفدت ؟ (ثم مغيراً لهجته) اني اهنئكم على كل حال بهذه الترقية . ونهض من مكانه مستطرداً :

ـ سوف اترككم اليوم الى الاجتماع الذي سوف يعقد بمكتب المدير العام .

وغادر المكتب في خطوات متزنة ، بينما عاد الثلاثة الى حديثهم الذي انقطع قبل قليل .

وعندما حان موعد الانصراف ، كان اسماعيل اسبقهم الى مغادرة المكتب حيث اتجه الى منزله وأخبر امه وشقيقه بالأخبار السارة التي حملها اليهما . وبعد ان تناول غداءه

على عجل ، قصد الى منزل كمال حيث استقبله الاخير استقبالاً حافلاً مبدياً شوقه اليه في عبارات لا يعوزها الصدق .

وبعد ان اتخذ مكانه المعتاد بادره كمال متسائلاً :

– كيف حالك في الوظيفة . لقد استأثر بك العمل فأبعدك عنا ، ولكني على كل حال متصل بك مطلع على اخبارك التي أستقيها من منصور كل يوم . لقد أخبرني بأنك تسهر على الاوراق كل ليلة،وهذا شيء سار طبعاً . اما اخبارنا فهي سارة على وجه العموم،ان الزملاء يسألون عنك دائماً واساتذتك كذلك . ولكن قل لي هل أنت مرتاح في الوظيفة ؟.

فردّ اسماعيل والبشر يطفح من ملامحه المشرقة :

– كل الراحة . اني مسرور بالعمل وقد جئت لأزف اليك بشرى ترقيتي .

وقاطعه كمال وهو يقترب منه قائلاً :

– ما هي الوظيفة الجديدة ؟ عجل بالحديث .

فردّ عليه وقد ازدادت ملامحه اشراقاً :

– سوف اكون مديراً لمكتب الرئيس العام للمحاسبة . وسوف يتضاعف راتبي .

فقفز كمال في فرحة طاغية :

– بعد ثلاثة اشهر فقط،هذا خبر عظيم . اني اهنئك على هذا النجاح .

وكأنما لاحت الفرصة امام اسماعيل فقال في لهجة متأنية :
– هناك امور تشغلني . وان كانت في الحقيقة ليست بذات اهمية في الوقت الحاضر .
فقال كمال ضاحكاً :
– كبار الموظفين لا بد لهم من هموم تشغل افكارهم، والا لما اصبحوا كباراً . ان الهموم ستصبح جزءاً من عملك اليومي . ما الفرق بينك وبيني . انا لا افكر في شيء من امور الحياة ، اما انت فامامك الواجبات، واجبات الوظيفة، وضريبة العظمه . لقد خرجت منذ اليوم من زمـــرتنا ، انت اليوم اكبر منا في أعـــين الناس الذين تربطهم بك صلة العمل .
بيد ان اسماعيل قاطعه :
– ليست هموم العمل . هناك امور اخرى بعيـدة عن العمل .
فتساءل كمال :
– وما هي هذه الامور ؟
وتردد اسماعيل واستحوذ عليه الخوف من الحديث في الامر الذي جاء من اجله . بيد انه تشجع قائلاً :
– اني اشعر بحاجتي الى الاستقرار . بعد ان استقرت احوالي في العمل .
فضحك كمال قبل ان يقول :
– وما المانع من ان تستقر .

– اقصد اني افكر في الزواج ، يجب ان اتزوج . ما رأيك ؟ .

– رأيي ..؟ اني اوافقك على رأيك . ما دمت قد اطمأننت في العمل .

وكأنما كان جواب كمال حافزاً له على التحدث في الامر مباشرة ، فقال بعد ان اعتصم بالهدوء :

– لقد فكرت في ان اخطب شقيقتك « سميرة » .

وألقى نظرة نافذة على وجه كمال يسبر بها غور انفعالاته. وتحفز لتقبل النتيجة أية كانت ، وراعه ما ظهر من اختلاج على سمات صاحبه ، صحبه شرود وصمت . بيد انه لاذ هو الآخر بالصمت انتظاراً لاجابة صاحبه . وتعلقت نظراته بشفتي كمال وأصاخ سمعه لاجابته المرتقبة .

قال كمال في هدوء مصطنع :

– ولكن سميرة لم تزل صغيرة .

فرد في لهجة واصرار :

– أنا اعرف انها صغيرة وسوف انتظر ثلاث سنوات او أربع . ما رأيك ؟

قال كمال وما زال وجهه على جموده :

– ولكن الامر يتعلق بأبي وأمي . وان كانت هذه الرغبة تسرني كل السرور . سوف اتحدث مع والدي في الأمر .

فقاطعه اسماعيل :

– وتفهمه بتأجيل الزواج .

– سوف افهمه ذلك . وتأكد اني سوف ابذل جهدي لتحقيق هذه الرغبة .

فقال اسماعيل في صوت بدا فيه التأثر لوعد صديقه :

– انا واثق من ذلك (ثم مستدركاً) لا تنس ان تخبر والدك بالأخبار الجديدة التي حدثتك عنها .

فضحك كمال قائلاً :

– ستكون هي المقدمة .

وكأنما انتهى اسماعيل من اداء مهمة كانت تثقل كاهله، فتنفس بعمق ثم ما لبث ان تساءل مرة اخرى :

– هل انتظر الردّ قريباً ؟

فأومأ اليه برأسه بالايجاب .

وما لبث ان استأذن في الخروج . وغادر منزل كمال وهو بين بين ، لا يدري هل يصدق صاحبه في وعده أم لا ؟. بيد انه حمد شجاعته التي واتته بعد تردد وتفكير .

٨

لأول مرة في حياته ، يواجــه كمال مشكـلة الشعور المتناقض . فمنذ ان تحدث اليه صديقه اسماعيل عن رغبتـه في الزواج من شقيقته سميرة،لاحت له في الافق حقيقتان، لا يستطيع ان يعترف باحداهما دون ان تلوح له الأخرى في قوة وعنف . فاسماعيل فتى من طراز نادر بين زمرة اصدقائه على كثرة ما عرف من الاصدقاء ، لم يكن فيه من مأخذ على طول صداقته له وامتداد تلك الصداقـة من الطفولة الباكرة البعيدة، فيه كل ما تتطلبه الصداقة ويسعى اليه الصديق . الوفاء والصدق والاخلاص وحسن الطوية ، جوهر نقي صقيل ، الا شيئاً واحداً كان يفتقده فيـه . كان هذا الاحساس يسري في أعماق كمال عـــلى استحياء وفي تردد . كان يفكر بين الفينـة والفينة ويردد في سره « آه لو كان اسماعيل واسرة اسماعيل في مثل حالتنا المادية» .

وكأنما لم تشفع له كل هذه الصفات النادرة في ان يرتفع في نظره الى درجة الصديق المماثل .

وهذا الاحساس الضعيف الواهي — على عدم ايمان كمال به ايماناً قوياً — كان ينشر سحابة من الكدر على الاشراق القوي الذي يحس بـه وهو يفكر في صداقته لاسماعيل ، فيحاول دائماً ازاحة هـذه السحابـة عن افق تفكيره ، ايماناً منه بالصداقة المتكافئة التي تربطه به . كما ان عجلة الحياة وتوالي الايام واكتشافه المتتالي لخصال جديدة في صديقه قد ابعد عنه هذه الافكار المتمردة .

وقبل ايام فوجىء بحديث لم يتوقعه فاجأه به اسماعيل، في الوقت الذي لم يخطر على باله الاستعداد له او الردّ عليه بما يمليه موقفه من تحفظ . لقد اندفع في قطع الوعد على نفسه ، وتعهد بأن يتحدث فيه مع والديه . وفي اللحظات التالية التي اعقبت الحديث وجد كمال نفسه في دوامة من التفكير العميق . لقد نشط الاحساس الضعيف المتردد فجأة وانقلب الى احساس قوي متحفز ، وأجّل التفكير في الموضوع الى اليوم التالي ثم الى اليوم الذي يليه ولم يصل مع ذلك الى رأي قاطع فيه .

لقد لاحت له الحقيقة التالية: ان اسماعيل على ما يتصف به من ميزات نادرة ، هو دون المستوى الذي تطلبه الاسرة لابنتها الوحيدة، هذه الحقيقة التي يستشعرها وجدانه، كيف يستطيع ان ينكرها في لحظة ، كيف يتنكر لها

ويقطع فيها برأي مرتجل ؟.

ومرّ اسبوع وهو متردد في اثارة الحديث مع والديه، او التمهيد له . انه في حاجة الى اقناع نفسه اولاً ومن ثمّ التمهيد له مع والده . وانقطع عن رؤية اسماعيل طوال هذه الفترة ، وبدا كما لو كان في حرب مع نفسه . بل لم يحرص خلال هذا الاسبوع على المواظبة على المدرسة ، فقد كانت المشكلة اكبر من ان يفكر في غيرها من اموره العادية .

هناك صداقة يحسّ بقوة تأثيرها علي نفسه ، امتدت منذ الصغر ونبتت من بين تراب الساحة التي كانا يلعبان فيها الكرة عصر كل يوم . صداقة تراءت له اليوم مشرقة من بين الغبار المتصاعد الذي كان يثيره الجري في الساحة والأزقة المجاورة،ونمت تلك الصداقة بين مقاعد الدراسة ، وترعرعت مع الايام ، وثبتت اركانها . هذه الصراحة التي كانت تسود رفقتهما في ذهابهما الى المدرسة وايابهما الى البيت . لقد اطلع على اسرار صديقه وعرف آماله وأمانيه كما تحسس آلامه من خلال احاديثه . لقد كان اسماعيل يحدثه دائماً في بساطة وصراحة وصدق عن متاعب العيش وعن امه المكافحة في الحياة . لقد كان يكشف له من دقائق حياته وخبايا نفسه ما لا يكشفه لغيره ، لقد كان يعتبره أخاً لم تلده امه . وكمال نفسه لم يكن متحفظاً في كشف اسرار حياته المنزلية لصديقه اسماعيل ، الخلافات

بين أبيه وامه، والسعادة الحقيقية التي يفتقدها بين جدران البيت الكبير . وما اكثر ما قال لاسماعيل « انك اسعد مني ، فحياتك تظللها السعادة الحقيقية ، اما انا فأعيش في جوّ الخلافات التي لا تنتهي بين ابي وامي » .

وتصعدت زفرة من صدر كمال وهو يستعرض تاريخ صداقته مع اسماعيل .

آه ، ولكن هل يشفع كل ذلك في موقف اليوم .

هناك كلام الناس واحاديثهم ، وهناك ما وعته اذنه واحتفظ به في ذاكرته من حديث اصدقاء ابيه « متى تكبر سميرة ؟ » « ومتى نفرح بزواجها ؟ » « ومن هو المحظوظ الذي سيظفر بها ؟ » انها السيدة الصغيرة، والتي ستكبر في يوم قريب . ولا شك في ان اصدقاء والده وهم يلغطون في سمرهم المعتاد كانوا او كان معظمهم يتمنى خطبة سميرة لابنه .

ومنذ ليال قريبة ، كانت سميرة موضوع حديث بين أبيها واحد اصدقائه على مسمع من كمال ، فقد قال ذلك الصديق في معرض التلميح « لقد احتجبت سميرة منذ سنتين ، لقد كبرت من غير شك » وبعد ان سكت برهة استأنف : « لقد كبر ابني احمد وأصبح اهلاً للزواج ولكن مهمتي ستكون سهلة ، ان عروسه حاضرة » . وأعقب حديثه بضحكة وهو ينظر الى والد كمال ويسأله « ما رأيك ؟ » فضحك الوالد قبل ان يقول : « الزواج قسمة ونصيب

ولكل أمر اوانه » . ولم يكن الاب متحفظاً في حديثه مع صديقه الا لامر واحد هو ان يستشير زوجه قبل ان يقطع على نفسه عهداً بذلك ، وان يرجع اليهـا قبل ان يبتّ في الامر برأي قاطع . لقد كان ذلك العرض هو العرض الرابع والخامس حسبما وعت ذاكرة كمال ، وكلما عرض الامر على الام كانت تؤجل البت فيه لسبب لا يعرفه هو ولا يعرفه ابوه ، وربما لا تعرفه هي نفسها .

وجاس في نفس كمال خاطر عابر وتساءل : « هل ادخرت الاقـدار سميرة لاسماعيل » ؟ هل كانت هناك ارادة فوق ارادتنا هي التي تحول دائماً دون الموافقة على خطبة سميرة لواحد من الخطاب الكثيرين ليتم زواجها من اسماعيل ؟ وهل هو زوجها المنتظر ؟ . ويرد على هذا الخاطر « ربما » ، ان ارادة فوق ارادتنا هي التي تتحكم في مصائرنا وتوجهنا في كل تصرف من تصرفاتنا العابرة. ان ما نأتيه عفواً ودون قصد ، واي تصرف تافه او حركة صغيرة بل ايماءة عابرة ، تحدد شيئاً عظيماً في مستقبلنا .

وربما كان هذا الخاطر الذي جاس في نفس كمال وهو يعالج الامر على وجوهه العديدة ، قد بثّ فيه قدراً عظيماً من الشجاعة لمفاتحة ابيه في أمر اسماعيل بعد ان مرّ على الحديث زهاء اسبوع .

وضاعف من خطواته وأحس بالحمل وهو مقبل على

دكان أبيه . وبعد ان سلّم عليه انتحى مكاناً قصياً في الدكان ريثما ينتهي أبوه من الحديث الذي كان يتداوله مع بعض رواد المتجر . وما ان انتهى أبوه والتفت اليه حتى تدنى منه بعد ان طبع ابتسامة على ثغره يفتتح بها الحديث. قال في ابتهاج واضح :

– اما سمعت عن اسماعيل سامي ؟

وظهر الاهتمام على وجه الاب والتفت اليه على مهل بعد ان نزع منظاره من فوق عينيه ووضعه أمامه على المكتب الخشبي بعناية فائقة وقال :

– اني ارى البهجة على ملامح وجهك ، خيراً ان شاء الله .

فرد كمال بذات التحمس الذي كان مندفعاً به الى الحانوت :

– لقد اصبح مديراً للمكتب الذي يعمل به بعد ثلاثة أشهر فقط . فقد اتجهت اليه انظار رؤسائه ووجدوا فيه موظفاً مثالياً له من حسن التصرف والدأب على العمل ، ما دفعهم الى ترشيحه لهذا العمل الجديد . ولقد كانت هناك ظروف ساعدته على ذلك ، أهمها اجراء التنقلات بين الرؤساء والمديرين في وزارة المالية ، ولكن جهده الذي بذله وتفرغه لعمله وذكاءه الذي اتسم به في تصريف الامور ، كل ذلك لفت اليه نظر رؤسائه .

وسكت كمال ريثما يرتب افكاره وينظم حديثه التالي

ويلمس في الوقت ذاته مدى تأثر ابيه بالحديث .

وابتسم الاب وهو ينظر الى بعيد كأنمـــا يجمع شتاتاً متفرقة من معرفته الطويلة باسماعيل ، فقـــال وما زالت الابتسامة مرتسمة على شفتيه :

– بشرى عظيمة . لقد أحسست منذ بعيد بان صديقك سوف ينجح في الوظيفة . ان هذا الولد ذكي منذ صغره، ان النجابة لها ملامح على وجوه الناس، وصديقك من هذا الصنف الذي تتوقع له النجاح في أي عمل يمارسه . (وبعد ان انتظر برهة استأنف) ان فرحتي مضاعفة لعلمي بأن اسرة اسماعيل في حاجـــة الى من ينقذها (وابتسم وهو يستطرد) اني اهنئك بنجاحه.

والتفت الى الجهة الاخرى كمن فرغ من عمل وتوجه الى غيره ، بيد ان كمال فاجأه قائلاً :

– ما رأيك فيه ؟

وابتسم الاب بعد ان التفت اليه مرة أخرى قائلاً :

– لقد قلت لك رأيـي .

فقال كمال وهو يستجمع شجاعته :

– لقد حدثني برغبته في خطبة سميرة .

وتحرك الاب في مكانه،ونظر اليه نظرة فاحصة حادة . وظهر على ملامح وجهه ما ينم عن عدم الفهم،او العجب الذي يدرك الانسان لأمر مفاجىء . واعاد النظـر اليه في صمت وكأنما يقول لابنه « أعد حديثك او ما يقرب من

ذلك » . احاسيس ادركها كمال على وجه ابيه ان لم تش بالغضب فانما بشيء قريب منه .

وكمال نفسه لم يكن متحمساً لاتمام الامر قدر اهتمامه بالوفاء في وعده الذي قطعه لصديقه ، كان في اللحظة ذاتها بين تيارين متضادين ، صداقة العمر ، وصدق الكلمة. تيار دفعه الى ان يقول ما قاله ، ومظهر الاسرة وكبرياء يشعر به في اعمق اعماقه . تيار آخر يهتف في سره «ارفض يا ابي » ولم يكن في مقدوره ان يحدد انفعالاته فالرفض يعني انهاء صداقة كان يعتزّ بها ويفخر واصبحت منذ اسبوع واحد مصدر كبرياء آخر له في دنياه . فأعزّ اصدقائه قد اصبح – على صغر سنه – من الشبان المرموقين وممن ينتظر لهم مستقبل مشرق ، ولكنه من ناحية اخرى – ويقولها على استحياء من نفسه – اين الثرى من الثريا ، اختلفت التربة . فكيف تنبت البذرة ؟ اين الحب الذي سيظلل بيتاً كهذا ؟ سوف تتحكم العقد النفسية في كل تصرف بين الاثنين . ابنة الجاه والثراء والرفاهية والنعمة ، وابن الكفاح المرّ واللقمة الممزوجة بالدم والدموع . ما اعظم الفرق بين الاثنين .

وتناهى اليه صوت ابيه وهو يقول :

– هكذا بسرعة فكّر في الزواج ؟

فقال وكأنما يدفع عن نفسه تهمة الاحساس الدخيل ، او كأنما يقنع نفسه بصدق ما يقول :

– ولكنه شاب طيب ، هذا ما وصلت اليه كنتيجة لصداقتي الطويلة التي ربطتني به منذ الصغر .

– انا لم اقل ما يناقض ذلك ، ولكن هناك اعتبارات اخرى .

وودّ كمال ان لو يهتف « هي ذاتها الاعتبارات التي أحسّ بها ، لا تحدثني بها فقد حدثتني بها نفسي ، اين واين ، وكيف وكيف، البذرة ذاتها كانت تتحرك ببطء ولكنها منذ اسبوع ، اسبوع واحد فقط ، منذ ان حدثني اسماعيل في امر سميرة،شعرت ان البذرة جزء من كياني، ارتوت بالمظاهر منذ الصغر وترعرعت بالثراء الذي اعيش فيه والرفاهية التي تحوطني ، انها قوية وحيّة بل لقد سرت في دمي واختلطت بكياني » .

وكانت عيناه ما زالت معلقة بشفتي ابيه الذي استطرد :

– ان سميرة ما زالت صغيرة .

– ولكن اسماعيل – كما حدثني – سوف يؤجل الدخول بها الى ما بعد عامين او ثلاثة .

قال ذلك وتنفس بعمق وكأنما انتهى من مهمته التي أحس بثقلها .

« فلتقل اي شيء ، لقد وفيت بالوعد الذي قطعته على نفسي ، قلت سأتحدث في الامر وقد تحدثت فيه وبررت بوعدي ، أما ما وراء ذلك فلا » .

قال ابوه :



هكذا بسرعة فكر في الزواج

ـ ان اسماعيل ـ كما تعرف ـ في اول الطريق ولم يكوّن نفسه بعد ، واعتقد ان امامه كثيراً من المشاق الى ان يصل الى مركز يهيئه للقيام بواجباته العائلية . ان مسؤولية العائلة مسؤولية عظيمة ، واني اعتقد انه لم يفهم بعد ما سيترتب على رغبته .

وتساءل كمال وكأنما يزيح آخر عبء عن كاهله ، ابراء للذمة .

ـ بماذا أجيبه ؟

وفكر ابوه : بماذا يجيبه ؟ هل يترك الباب مواربا ً ؟ وماذا ستكون النتيجة ؟ سيعتبر الفتى اي جواب غير صريح قبولاً مؤجلاً ، وسيتعلق بالامل ، اي امل ولو كان ضعيفاً .

وأحس الاب وهو يفكر في الامر الذي جاء به ابنه ، بأنه يواجه مشكلة مستعصية ، تستدعي التأني والتفكير . انه يعز ابنه كمال ، وكمال يعتز بصداقته لاسماعيل ، حلقات مرتبطة تتطلب منه الحكمة والتصرف السليم . انه يخشى ان يواجه ابنه كمال برأيه الصريح ، رأيه الذي سيغضب ابنه حتماً ، وربما تغير نظرته الى الاسرة والى علاقته بأبويه ، وهو كأب يجب ان يحرص على بقاء هذه العلاقة سليمة من كل ما يشوبها من كدر او يضعف من قوتها ، وهو قد خبر عواطف الشباب في هذه الفترة من اعمارهم ، العواطف التي تنسج خيوطها الرقيقة دوافع مجردة من

الاعتبارات الكثيرة ، ونظرة الى الحياة لم يلحقها التزويق الاجتماعي ، تلك عواطف الصغار تنمو في ظل الصداقات البريئة ، دون نظر الى الفوارق الاجتماعية . انهم يأخذون الحياة من جانبها البسيط ، الخالي من التنظيم ، ربما فكر كمال بأن اسماعيل قد اصبح كفوءاً لاخته سميرة ، بل ربما فكر منذ زمن بأنه كفء لها ، ووضع في اعتباره الصداقة التي تربطه بهذا الصديق ووجد فيها ما يشفع له ان يتقدم لخطبتها في يوم من الايام .

ووازن بين الامرين في نفسه : القبول او الرفض ، ولكل منهما ضريبته وثمنه ، معنى القبول ان ينزل من عليائه ويضحي بمُثُل آمن بها طيلة حياته . ومعنى الرفض نتائج لا يسره ان يتصورها ، انه يخشى على ابنه من قسوة الصدمة ، ويخشى على نفسه من نتائجها . ومن الحكمة ان يكون جوابه بين بين ، تأجيل يحمل معنى الرفض دون ان يحس ابنه بذلك .

فقال بعد لأي :

ـ ولم الحديث في أمر مؤجل ما دام صاحبك سينتظر الى ان تكبر سميرة ، ليكن حديثنا في هذا الامر مؤجلاً الى ان تتحسن ظروف صاحبك وتكون سميرة قد أصبحت أهلاً للزواج .

ولم ينتظر رداً من ابنه بعد ان اعتبر هذا الجواب ختاماً للحديث . والتفت الى كمال يأمره بالذهاب الى المنزل بعد

ان حمله بضع ربطات من الأقمشة .

وغادر كمال حانوت ابيه حائراً في الامـــر . بعد ان خرج من الحديث القصير دون نتيجة تريحه . بل ربمـــا أحس بخيبة امل لاختتام الحديث بهذه الصورة . لقد كان يتوقع جواباً صريحاً على أمر مهم كهذا ، يرتبط بتقاليد الاسرة ونظرتها الى الحياة ، ويتعلق بالمثـــل التي يؤمن بها افرادها وخاصة الأب الذي يعتبر مرجعاً لهذه الأمور ومعبراً عن رأي الاسرة .

وهو متأكد من ايمان ابيه بهذه المثـــل وارتباطه بتلك التقاليد ، واستعرض ما عسى ان يكون حائلاً بين ابيـه وبين ان يتكلم بصراحة في هذا الامر .

وودّ في تلك اللحظة ان لو تواتيه الشجاعة الكافيـــة فيكشف لابيه عن رأيه الشخصي الذي يتمشى مع ما يؤمن به ابوه . وربما كانت المكاشفة في هذا الموقف مطلوبـة ومرغوبة خاصة وانها ستحقق الرغبة الكامنة في نفس ابيه. بيد انه التمس العذر له في مواجهة الموقف بهذه الصورة، وهو بالرغم من خيبة امله في عدم الظفـــر بجواب شاف يرد به على صديقه الا انه حمـــد للظروف عدم البت في جواب كان يتوقعه ، واعتبر الايام المقبلة امتداداً للصداقة التي كان متوقعاً لها ان تنتهي على صورة ما .

وفي مساء ذلك اليوم كان حديث الاسرة امتداداً للحديث الذي بدأه كمال مع ابيه في الدكان . وانتهى كما انتهى

سابقه ، تأجيل مغلف واسباب مفتعلـــة . ولكن دوافع الرفض بينة واضحة ، يعرفها كمال ، كما يعرفها ابواه . ومع ذلك فقد انتهى الحديث ولم تؤجل الاسرة مناقشة اي جانب من جوانب هذا الامر ، بعد ان أقفل الجميع باب المناقشة ، وعرف كمال ان المهمة عادت على عاتقه فهو مسؤول عن صياغة الاجابة التي ينتظرها صديقه اساعيل .

٩

استحوذ العمل الجديد على تفكير اسماعيل ، وضاعفت المسؤولية الجديدة اهتمامه بعمله وتفرغه له . أما التقدير الذي واجهه من رؤسائه والنجاح الذي صادفه خلال الفترة القصيرة ، فقد عززا ثقته في نفسه ، كما أثارا فيه كوامن الاحاسيس الطيبة نحو المجتمع الجديد الذي بدأ يعيش فيه ، مجتمع الموظفين وجمهور المراجعين وأصحاب المصالح المتصلة بهذه الادارة .

لقد نسي خلال عشرة أيام مرت — منذ أن تحدث إلى صديقه كمال — ذلك الأمر الذي كان يستحوذ على تفكيره ، ويسيطر على عقله ، نسي أمر نفسه في غمار العمل الذي انغمس فيه ، لم يعد يفكر في نجمة المساء ، ولم تلح له صورة البيت المتهدم ولا الحياة التي ضاق بها ذرعاً فيما مضى من الأيام ، كأنما خلق من جديد ، أو كأنما

انفصل عن ماضيه . ذلك الماضي الذي كان يؤرقه التفكير فيه ، ولم يبق أمامه سوى هدف واحـد هو ان يثبت كفاءته في العمل الجديد الذي تولاه ، ويثبت أهليته للمركز الذي وصل اليه في فترة قصيرة ، وها هو ذا الآن يتربع على كرسي عزّ نواله على كثير ممن سبقه في هذا المكتب مما أثار عليه حقد كثير من موظفي إدارته والادارات الأخرى ، حقداً يبدو له واضحاً في الكلمات المتناثرة ، الكلمات التي يحملها اليه صنف معين من الموظفين أو يلتقطها سمعه بين وقت وآخر .

ولم يكن هو من جانبه يهتم بما يسمع أو يلتفت لما يقال ، وان كان يفكر بين الفينة والأخرى فيما أثار حفائظهم عليه . على انه مـا يلبث أن يلتمس لهم الاعذار ويقنع نفسه بالتجاوز عن كل ما عسى أن يكدر صفو نفسه .

وربما كانت الدوافع التي جعلته يقدم على تلك الخطوة الجريئة في سنه الباكرة ، الخطوة التي اتخذها فجأة دون أن يطلع على نيته أحداً من أصدقائه أو أقرانه ، فترك المدرسة فجأة واتجه إلى وزارة المالية يجرب حظه في محيط أكبر من محيطه الذي قضى فيه فتوته ومطلع شبابـه ، الخطوة التي تعتبر في نظر من يمـاثله في سنه وتجربته مخاطرة كبيرة ، ومغامرة جريئة ، لا يقدم على اتخاذها إلا من تسلح بالشجاعة النادرة التي تركزها روح المغامرة

وركوب الاخطار ، أو من كانت ظروفه تدفعه بعنف إلى تغيير واقعه وتبديل حياته بنوع آخر من الحياة ، أيّاً كان شكل أو لون هذه الحياة الجديدة ، ربما كانت تلك الدوافع ذاتها هي التي تدفعه الآن إلى أن يسير في طريقه دون أن يلتفت لما يقال ، وان يفكر في عمله دون أن يعنيه ما يتقوله العاجزون ممن تخطاهم بسرعة اذهلت كثيراً منهم .

إنهم ولا شك من طراز « عبد الحميد وحسين» زميليه السابقين في هذا المكتب ، أو هم من طراز آخر ، ذوو هوايات تختلف عن هواية زميليه .

وذكر وهو على مكتبه في هذا الصباح الباكر زميله القديم عبدالحميد، الزميل الذي اتّسم بالطيبة والعقد النفسية، صاحب الهوايتين العجيبتين : قراءة الروايات البوليسية والأكل ، ترى بماذا يتحدث عنه الآن ؟ أهو على شاكلة هؤلاء الذين سمع من أفواههم ما يشي بحقدهم عليه ، أم مازال يذكره بخير ويحنّ إلى الايام التي قضاها معه في هذه الحجرة ؟

ولاحت على ثغره ابتسامة — ودّ لو استطاع ان يقلبها إلى ضحكة عالية أو قهقهة مرتفعة — وهو يسترجع ذكرى اليوم الأول لـه في الوظيفة ، ذلك اليوم الذي غضب فيه للاهانات الموهومة ، وثارت فيه ميوله العدوانية الانتقامية نحو الحاجب الذي استقبله ببرود وعدم اهتمام ،

ثم على الاستاذ أمين ، ثم على الاستاذ سليمان مدير المكتب . »
لقد كان يومذاك متأرجحاً بين الأمل الضعيف واليأس القاتل ، ولولا لمحة الاشراق التي بدت له في أفقه المعتم عندما جلس إلى جوار عبد الحميد ، لكان مصيره غير هذا المصير الذي انتهى اليه اليوم ، والذي يحس بأنه بعيد كل البعد عما تخيله أو توقعه . لقد كان عبد الحميد نقطة البدء في انطلاقته ، عسكري المرور في تقاطع الطرق . لقد قال له إني آكل الحمص واقرأ الروايات البوليسية وأتصبر بلقمتين ثم أنطلق إلى منزلي . أما الأوراق ، وأما مصالح الناس ، فمصيرها يقرر عندما تحل عقده النفسية وتزول رواسب تلك العقد .

لقد يئس عبد الحميد وأمثاله ، يئسوا من التقدم مع من يتقدم وفقدوا الأمل في المستقبل ، ومن ثم انصرف همهم وتفكيرهم إلى مزاولة الهوايات العجيبة ، واضاعة الوقت وبعثرة الزمن دون معقب أو رقيب . ومنذ اللحظة التي تعرف فيها اسماعيل إلى عبد الحميد ، وعرف فيها مشاكله النفسية ، بدأ هو العمل بعد ان استبان له الطريق وانطلق ونجح . ومع ذلك فهو لا يعرف ولا أحد يعرف ما إذا كانت العقد النفسية التي رسبت في أعماق هؤلاء هي من صنع أنفسهم أو هي من صنع الظروف أو الطرفين مجتمعين ...

وانتبه اسماعيل على صوت نقرات خفيفة على باب المكتب

أيقظته من تخيلاته ، وإذا بعبد الحميد يدخل عليه مبتسماً فقام من مقعده وابتسم هو الآخر ، وتقدم اليه يدفعه شوق إلى الكهل الذي كان عسكري المرور في حياته ، وكان مدار تفكيره قبل لحظة . وشدّ على يده بترحيب عظيم . وكان يبدو على سمات عبد الحميد لمحات من أفكار تضطرم في رأسه وحديث يكاد يقفز من بين شفتيه . وجلس إلى جوار اسماعيل وعاد هذا يسأله : ما هي الاخبار ؟

وتريث عبد الحميد قبل أن يبدأ حديثه ، وألقى نظرة متفحصة على الحجرة التي قضى بها أعواماً طويلة ، وكأنه يتلمس بها مواضع ذكرياته ، وقال في لهجة تشي بالأسف المرير أو الحزن الدفين :

— بانتقالي من هذه الحجرة ودّعتُ أجمل الايام ، لقد تركت إحدى هواياتي وان لم تكن آثر الهوايات عندي ، هواية القراءة على المكتب ، لقد خلا مكتبي الآن من الروايات وأصبح تفكيري متجهاً إلى العمل ، ليس لدي وقت للقراءة . كم أنا آسف على انقضاء الأوقات السعيدة ... لقد تغيّر الحال (وأشار بيده إلى موضع مكتبه السابق ، ولفت نظره ان المكتب استبدل بآخر فواصل حديثه بعد أن شهق) حتى المكتب تغيّر ، سبحان من يغير ولا يتغير (وبعد أن استرجع لهجته العادية واصل حديثه) أما هوايتي الأساسية فما زلت أزاولها على وجه آخر ، اترك المكتب وأتمشى خمس دقائق في طرقات

الوزارة ، أو أزور بعض الزملاء في المكاتب الأخرى بعد أن أحشو جيوبي بالتموين . فرصة للافلات من المراجعين المكدسين والمتقاطرين كالسيل (وصعد زفرة من صدره) لا أدري من هو صاحب الفكرة في نقلي إلى الخزينة ... عمل روتيني لا يعتمد على التفكير أو الابتكار أو التجديد ، بالاضافة إلى ثقل المراجعين والحاح أصحاب المصالح . (وبعد ان أخفض صوته) وشدة معاملة مديرنا لموظفيه . تصور ان نظراته النارية التي يرمينا بها ونحن في دوامة العمل ، لا تقل في معدلها عن نظرة قاسية يتطاير منها الشرر كل دقيقتين ، يسددها علينا من فوق منظاره المتدلي مع تكشيرة تومي إلى ما يعتمل في صدره من قسوة خلت من كل أسباب الرحمة بالموظفين الضعفاء .

وسكت عبد الحميد هنيهة ريثما يلتقط أنفاسه اللاهثة ، بينما عاجله اسماعيل بقوله :

ــ هذه بشرى طيبة ، لقد تهيأت لك أسباب العمل بعد الفراغ الذي كنت تعيش فيه ، لا بأس ، سوف تشبع رغبتك بالقراءة في المنزل ، وسترتاح إلى الجو الذي ستقرأ فيه ، على عكس طريقتك الأولى في اختلاس الفرص خلال وقت العمل ..

وضحك عبد الحميد ، ثم اعتدل في جلسته قبل أن يقول :

ــ أي اختلاس هذا الذي تقوله ؟ ان الامر على

عكس ما تتصور ، لقد كنت متفرغاً لقراءة الروايات واختلاس الفرص لدراسة المعاملات . أما وقتي بالمنزل فهو منذ زمن ، زمن طويل يمتد إلى ثلث قرن أو يزيد ، مليء بالهموم والمشاكل ومعالجة أمور الحياة . حياتي الخاصة التي حدثتك بطرف منها ، ربما تتذكر ذلك . (وبعد أن سكت قليلاً استأنف) أنا لم أجئك لهذا الامر ، أترك مشاكلي الخاصة ، لقد جئت للسلام عليك وسؤالك عن أحوالك العامة والخاصة . هل هناك جديد ؟

وبسط اسماعيل كفيه وهو يقول :

– لا جديد تحت الشمس كما يقولون . إني سائر في عملي ومتفرغ له . لقد نسيت نفسي في عملي الجديد .

فضحك عبد الحميد قائلاً :

– نعم ، نعم ، لقد نسيت نفسك حقاً . ونسيت حديثك الذي تحدثت به إليّ في اليوم الاول وفي هذه الحجرة بالذات . ربما كان حديثك تزجية لوقت الفراغ الذي كنت تشعر به في ذلك اليوم ، وإلا لما نسيته .

وتساءل اسماعيل :

– أي حديث تقصد ؟

فقال عبد الحميد وهو يرسل نظرة شاردة عبر النافذة المفتوحة أمامه :

– نجمة المساء ، والاحلام التي نعيش فيها طول العمر وتصبح بمرور الايام جزءاً من كياننا وقطعة من أنفسنا

(ورفع يده إلى مقدمة جبهته كمن يحاول أن يتذكر) .
لقد كدت ان أكذب نفسي في فترة من الفترات ، لولا ما سمعت أخيراً عن هذا الامر ، ولا ريب انك سمعته قبلي ، ولم تحدثني به .

وكمن يستيقظ من نوم عميق على صوت قرع شديد ، أغمض اسماعيل عينيه وفتحهما مرات متتالية ، في حركة عصبية ونظرات شاردة . لقد أعاده حديث صاحبه إلى واقع نسيه وسها عنه . وردد في لهجة مضطربة :

– ماذا سمعت ؟

– لقد جئت لأسألك .

– ولكنك سمعت ، أما أنا فلم يصل إليّ شيء مما تشير اليه .

وقابله عبد الحميد بالصمت والتفكير ، كما تملكته الحيرة في موقفه . لقد سمع حقاً بعض الاحاديث المتناثرة ، ولم يكن يصدق ان اسماعيل وهو الذي كان مدار الأحاديث ، لا يعرف شيئاً عما تخوضه الالسنة في أمره ، لقد تتبع مصدر تلك الاخبار منذ ان سمعها ، تتبعها بحاسته البوليسية التي يدعي اكتسابها من قراءة الروايات ، ولكنه لم يصل إلى مصدر تلك الاخبار . وبعد ان كان متحمساً للحديث أدركته الحيرة وتملكه التردد بين أن يبوح لصاحبه بما سمع ، أو أن يكتم الأمر في نفسه . لقد تعجل الحديث وكان الاحرى به أن يستخدم طرقاً أخرى ليصل إلى الحقيقة .

وأسف للموقف الذي أوقع نفسه فيه . ان زميله ، هذا الفتى الصغير ، ذا التجارب القليلة في الحياة ، ربما يتأذى من سماع هذه الاخبار ، وأدركته الشفقة عليه وعلى نفسه ، أيكون (غراب البين) وناقل الاخبار السيئة ؟

وجاءه صوت اسماعيل مستفسراً في نبرة قوية :

– قل ما عندك .

فرفع عبد الحميد بصره وقال في لهجة مترددة :

– لقد سمعت انك خطبت فتاة من اسرة ثرية ، ولا أدري هل هي التي سبق أن حدثتني عنها ؟

قال اسماعيل يقطع عليه تساؤله :

– واصل حديثك وسأجيبك بعد أن أنتهي من سماع أخبارك .

فردّ عليه عبد الحميد بعد أن تمسك بزمام الهدوء في موقفه :

– أنا لم أقطع بصحة ما سمعت .

وكاد اسماعيل ان يقوم من مكانه تلهفاً على سماع الاخبار ، واستعجالاً لكشف الامور التي تعنيه . ولكنه تماسك وقال في هدوء مصطنع :

– سوف أشرح لك آخر الأمر كل ما غمض عليك ، قل أولاً ماذا سمعت ؟

واستأنف عبد الحميد :

– لقد سمعت انهم رفضوا طلبك ، ولكني لم أتأكد

بعد من صحة الخبر . وأصدقك الحقيقة لقد سعيت لمعرفة اسم هذه الاسرة وقد عرفت ذلك أمس الماضي فقط ، وإذا صح ما سمعته فالأمل ضعيف في تحقيق رغبتك . (وسكت قليلاً قبل ان يستأنف) ليتني عرفت ذلك منك ، إذن لأرشدتك إلى ما يجب عمله . (وبعد ان مطّ شفته دليل الاسف على أمر حدث أو اشارة إلى فوات الوقت ، استأنف) لا تأسف فان الفرصة ما زالت متاحة ، واني أسألك : هل أنت مصمم على تحقيق هذه الرغبة ؟

وفي الوقت الذي كان فيه عبد الحميد منطلقاً في حديثه ، مع تفكيره الجدي في تقديم المساعدة لاسماعيل ، كان هذا الاخير يفكر في الموقف بنفس مكلومة مستخذية . لقد أحس بالاهانة التي لحقته بهذا الرفض وأحس بها مضاعفة عندما سمعها ممن لا يعنيه الامر ، واستشعر في كيانه — وهو يستمع لحديث صاحبه — إحساساً بالضيق والضجر بدا واضحاً في حركاته العصبية .

وعاد مباشرة تحت تأثير هذا الحديث إلى تصور ماضيه، ذلك الماضي الذي ودعه ، كما انبثقت أمامه صورة البيت المتهدم . الصورة التي توارت عن مخيلته رغم انه ما زال يعيش في واقعها ، لقد استغرقه العمل واستحوذ على تفكيره ، وأبعده المجتمع الجديد وعمله عن كل ما كان ينغص عليه حياته .

لقد تلاشى خلال الايام الماضية ذلك الضباب القاتم

الذي كان يبدو دائماً في أفقه ، لقد عاش سعيداً بحاضره الجديد ، وكان يتوقع ان يحالفه النجاح في كل أمر من أموره . لقد انفسح الامل أمام ناظريه منذ اليوم الأول الذي بدأ فيه العمل ، كما تفتحت نفسه للمستقبل الذي تخيله ، لا مستقبل العمل فقط ولكن مستقبل حياته الخاصة ولولا ذلك الامل المشرق ما اندفع في الحديث مع صديقه كمال في شأن شقيقته ، وذكر كمال ، ذلك الصديق الذي ربطته به ذكريات مديدة ، ذكريات الصبا والفتوة ، ذكريات متصلة الحلقات وسلسلة من الحوادث ربطت بينهما واستغرقت ماضي الحياة ، انه يذكر بالخير ذلك الماضي ويذكر بالخير صديقه كمال ، ولكن ما باله قد اختفى عنه منذ عشرة أيام ، منذ أن تحدث اليه في الأمر ؟ هل هناك ما عرقل تحقيق الرغبة التي أفضى بها اليه ؟.. انه يعرف صديقه ويعرف مقدار نفوذه في الاسرة ، لا شيء يقف أمامه إذا صمم على تحقيق ما يريده . ليس هناك تفسير للموقف ، تفسير حقيقي لما سمعه منذ لحظة ، إلا أن كمالاً لا يرغب فيه ، ولو رغب كمال لتمّ الامر حتماً . ليس هناك سوى سبب واحد هو الذي حال بين كمال وبين اتمام الامر ، سبب واحد فقط ، ولو كان هناك سبب غيره لهان الامر عليه ، لقد كان يوجس خيفة من ان يكون عقبة في سبيل تحقيق رغبته ، وقد كان .

الآن فقط عرف لماذا غاب عنه صديقه طيلة هـذه المدة . لقد آثر ان يغيب عنه من أن يصارحه بالحقيقة ، وأية حقيقة تلك التي يرتكز عليها أمثال هؤلاء ؟ إنها الوهم الكبير الذي يعيشون فيه ، السعادة في نظرهم إنما تقاس بالمال الوفير والبيت الكبير ومظاهر الترف وقشور المادة . لقد غاب عنهم سرّ السعادة الحقيقية .

وبالرغم من ايمان اسماعيل بما جاس في خاطره ، إلا انه عاد وكذب نفسه ، أمر غير معقول يرفضه وجدانه ولا يقبله قلبه ، كيف جاز له ان يتهم صديقه ، بل أخاه ، أخاه الحقيقي دون زيف ، لقد عرف صديقه (كمال) أكثر مما عرف شقيقه منصور .

لقد عرفه خلال أيام طويلة وسنوات مديدة ، عرفه على حقيقته مكشوفاً أمامه بأحاسيسه وتفكيره واتجاهاته واسراره الدفينة ، عرفه كما لم يعرف مخلوقاً غيره ، واطلع على أعمق ما يحتفظ بـه في دخيلته ، لقد كان يجد نفسه فيه ، ويرى شخصه في شخصه كان مرآة لنفسه وشخصه ، وصورة من أفكاره وأحاسيسه . وبعد ، فأي العراقيل قامت في سبيل الامر الذي حدثته عنه . إنه لو أراد لكان ، ولكنه لم يرد ولم يرغب ، لشيء في نفسه . ربما البذرة الكامنة في أعماقه ، تحركت بعنف في ذات اللحظة ، الثراء والفقر ، الجاه والتواضع ، القصر الكبير والبيت المتهدم .

ما أهون الصداقة إذن وما أرخص تلك الذكريات الجميلة ، أين رابطة الاخوة الـتي ربطت بيننا ؟ تلك الاخوة الـتي كنت أعتز بهـا كأثمن ما ادخرته من حياتي الماضية .

والماضي ، ذلك الماضي الطويل الذي حفل بأنبـل العواطف وأرقّ الاحاسيس ، تلك التي نسجت خيوطها عبر الايام والليالي الطويلة والاحاديث التي لا تنتهـي والاسرار التي لا تنقطع ، انه الضياع والفراغ والوهم الذي كنت أعيش فيه .

وأحس اسماعيل بعجزه عن ان يتحدث أو ان يتيح لصاحبه الاستمرار في الحديث ، ورفع بصره إلى عبدالحميد وقال في لهجة تنم على ما يعتمل في صدره من ضيق :

ــ أية رغبة تقصد ، أنا لم أتحدث جاداً في الامر . ويبدو ان اسرة الفتاة قد اهتمت بالامر اهتماماً لم أكـن أتوقعه (وزفر بعنف كأنما ازاح شيئاً عن صدره قبل أن يستأنف) . من العبث ان نتحدث في مثل هذه الامور قبل أوانها ، لقد ترددت كثيراً قبل أن أتكلم مع شقيقها في هذا الموضوع . لقد قلت له قبل ان افتتح باب الحديث انه كلام في الهواء . ومع ذلك ... فقد وقع مـا خشيته (وصمت فترة ثم استأنف متسائلاً) ولكن ممن سمعت هذا الحديث ؟

فرد عليه عبد الحميد :

– لقد سمعته من عـدة أشخاص ولكني لم أعرف مصدره .

وغاص اسماعيل في دوامة التفكير مرة أخرى . على أنه ما لبث أن جذب الاوراق المتناثرة فوق مكتبه اثر دخول أحد الموظفين ، وقام عبد الحميد من مكانه مستأذناً في الخروج ، وقال قبل ان يغادر الحجرة :

– للحديث بقية .

فأجابه اسماعيل :

– نعم .

بيد انه ردد في نفسه معقباً : « أية بقية ، لقد انتهى الحديث وتلاشت الاحلام ، خير لي ان أنسج أحلامـاً جديدة أعيش فيها منذ الآن . لقد ذكر عبد الحميد مـا تحدثت به في اليوم الاول . لقد حفظه عن ظهر قلب كالتلميذ النجيب ، إن أحلامنا تصبح جزءاً من كياننا ، ويل لي من حلم نسجت خيوطه من الاوهام . ان الناس طبقات ، والاحلام درجات ، لقد كان الواجب أن أعي هذه الحقيقة ، كيف تسنى لي أن أعيش حياتي في هـذا الوهم الكبير ، ان الغباء درجات كذلك ، حقيقة أعترف بها بعد فوات الأوان ، كان يجب عليّ أن أعرف ذلك ، لقد عرفته الآن فقط وعرفت لماذا غاب عني كمال » .

١٠

في بضعة الايام التالية حرص اسماعيل على تتبع كل ما يقال عن الامر الذي يعنيه ، لقد استيقظ بعد سبات ، وفتح عينيه فجأة يبحث عن الحقيقة التي سها عن تتبعها وهو منصرف إلى عمله ، وعجب من نفسه ومن الرغبة التي كان مندفعاً بكل كيانه وجهده في سبيل تحقيقها ،وعاد يفتش عن نفسه كأنما جهلها طوال حياته الماضية ، أو لم يصل إلى حقيقتها . عاد يفتش في الاعماق البعيدة عن حقيقة تلك الرغبة ودوافعها ، هل هي رغبة صادقة ، أم هي نزوة واندفاع ؟ وإذا كانت هذه أو تلك ، فما هو الدافع ، هل هناك إعجاب حقيقي بتلك الفتاة التي عرفها صغيرة ، وهل تطور ذلك الاعجاب إلى رغبة حقيقية فيها ، أم هي الرغبة في التعويض والسعي إلى تحقيق ما فقده في حياته ؟ هل هو معجب بها حقاً ، أم هو معجب

يمظهر اسرتها ؟ وهل لاح له في الافق الممتد أمامه ما دفعه إلى هدف لم يتبين حقيقته ؟ ألا تكون ثمة ظلال قائمة من حياته المتواضعة التي عاشها في طفولته الباكرة وفتوته القريبة، وصور باهتة من جوانب بيته المتهدم قد دفعت به إلى المغامرة في تحقيق هدف عزيز النوال بعيد التحقيق ؟

وبدأ يصغي إلى هواجس نفسه ، كما بدأ يصغي بامعان إلى الاخبار التي ينقلها اليه عبد الحميد ، ولم يعد يسأل عن مصدر تلك الاخبار كما سأل في المرة الأولى ، وانما اتجهت عنايته إلى الوصول إلى أكبر قدر منها ، وبدأ اهتمامه بهذا الامر يطغى على اهتمامه بعمله الذي كان منصرفاً اليه ومتفرغاً له . واعتاد في الايام الاخيرة ان يترك الاوراق التي أمامه ويشرد بفكره بعيداً عنها ، وبعيداً عن نطاق العمل وعن جدران الحجرة التي يجلس فيها . كما أصبح منظر عبد الحميد عادياً في تردده على مكتب اسماعيل كل صباح ، كأنما كانت المهمة الجديدة التي تكفل القيام بها جزءاً من عمله الرسمي . وربما وجد عبد الحميد في هذا العمل الجديد متنفساً له عن كربه الذي يعانيه بعد أن هجر هواية القراءة على المكتب ، أو ربما كان ينظر إلى هذا العمل كتطبيق عملي للنظريات التي استقاها من قراءة الروايات البوليسية .

بيد أن ملامح عبد الحميد — على أي افتراض — كانت تنم على سروره البالغ وبهجته العظيمة ، كما كان حرصه على

مقابلة اسماعيل يدل على اهتمامه بما كلف به .

وكعادة اسماعيل في انتظار عبد الحميد صباح كل يوم ، كان في هذا الصباح ينتظره ، وكان ذهنه يتتبع الخطوات التي تصل إلى سمعه عبر باب المكتب المقفول ، فيرفع بصره عن الاوراق التي أمامه كلما سمع وقع خطوات قريبة ويعود إلى أوراقه كلما بعدت الخطوات . وعلى حين فجأة سمع طرقات متتابعة على الباب ، وعندما رفع بصره على صوت الطرقات ، إذا به يفاجأ بكمال وهو يدخل عليه مبتسماً .

وقام اسماعيل من مكتبه وهو ما زال تحت تأثير المفاجأة التي لم يكن ينتظرها ، ولم يسعه وهو يتقدم لاستقبال صديقه إلا أن يبتسم ابتسامة تشي بكل ما يعتمل في قلبه من بهجة وايناس لهذه الزيارة المفاجئة وهذه المقابلة التي لم تخطر على باله خلال أزمته النفسية ، الازمة التي ما زال يحس بها إلى ما قبل لحظة . وكما تنجاب السحب وتنقشع بفعل الرياح القوية ، صفت نفس اسماعيل وانقشعت من أفقه القاتم سحب الازمة التي كان يعانيها ، ونسي نفسه ، ونسي الامر الذي كان يشغل باله ويشغل عليه وقته ، ولم ير أمامه في هذه اللحظة التي يستقبل فيها صديق صباه ورفيق فتوته ، إلا صورة الماضي العريق ، الماضي الذي كان يصفه في أيام ازمته القريبة بأنه فراغ ووهم ، ولم يخطر له — وهو يزيح الاوراق جانباً — أي رغبة في فتح

حديث الخطوبة ، وودّ وهو في غمرة الايناس والبهجة الطاغية ان لو يكون حديث صاحبه بعيداً عن الموضوع ، بعيداً عن الامر الذي سينشر حتماً طبقة من الكدر على اشراق اللحظة الحاضرة .

وشد على يد كمال بقوة وهو يردد كلمات الترحيب ولم ينس أن يعتب عليه بكلمات رقيقة على غيابه الطويل ، كل ذلك قبل أن يعود هو إلى مقعده وقبل أن يتخذ كمال مجلسه .

ولم يعد اسماعيل إلى مقعده أمام مكتبه وأوراقه المتراكمة وانما اتخذ مجلسه بجانب كمال . وقال بعد ان استدار اليه متفرغاً له بكل حواسه :

— لقد طال الغياب . طال أكثر مما توقعت ، قل لي ما هي أخبارك ، لقد عرفت انك تغيبت عن المدرسة بضعة أيام ، وارجو أن لا يكون غيابك لأي عارض سيء .. كيف حال الوالد والأهل ؟

وكأنما كان ذكر الاهل شرارة انطلقت في كيانه ، فقد استعادت ذاكرته صورة ذلك اليوم الذي تحدث فيه مع كمال في شأن خطوبته ، وما تلا ذلك اليوم من أيام نسي خلالها ذلك الحديث ، نسيه في غمار العمل الذي استولى على تفكيره ، ثم فترة ازمته النفسية منذ أن بدأ عبد الحميد يحمل اليه الانباء السيئة . وبالرغم من فرحته الطاغية باللحظة التي جمعته بصديقه ، صديق طفولته وصباه وصورة ماضيه

الذي يعتزّ به ويفخر ، إلا أن اكداره النفسية التي وأدها قبل لحظة بدأت تلوح له في أفقه مرة أخرى بصورة أشدّ عنفاً وضراوة من أي وقت مضى . وبدأت ذاكرته تلمّ شتات الاحاديث المتفرقة وتجمع ما تناثر من أخبار كان يحملها اليه عبد الحميد في أيام متتالية . وبعد ان كان يتمنى قبل لحظة واحدة فقط ان يبعد حديث صاحبه عن الموضوع إلا أنه عاد وعزم ان يفتتح هو نفسه الحديث فيه « هي اللحظة الفاصلة بين وهم عشت فيه وحقيقة يجب أن أعرفها وأصل اليها مهما كلفني الامر » .

وجاءه ردّ صاحبه :

– ان أبي يبلغك سلامه ويسأل عنك .

« لقد دنوت من النقطة التي سعيت اليها ، خطوة واحدة تحملني إلى بغيتي وهدفي » وسكت متتبعاً حديث صاحبه الذي أردف :

– لقد انتظرتك كثيراً ، ولكني أراك مهتماً بعملك وخاصة بعد الترتيبات الاخيرة .

فردّ عليه وقد استشعر الأسى من لهجته ، بل من المعنى البعيد الذي يرمي اليه صديقه . وعجب من نفسه في ذات اللحظة ، عجب من الحاسة التي استيقظت فيه ، هذه الحاسة التي جعلته يتتبع كل لفظة وكل لهجة ، لقد أصبح لكل لفظة في رأيه معنيان : معنى قريب لا يهمه ومعنى بعيد يسعى إلى معرفته ، كما أصبح لكل لهجة مدلول ،

واضح في ذهنه ، هناك لهجة صادقة تنم على خلوص النية وحسن الطوية ، وهناك لهجة كاذبة تشي بالخديعة والمكر . لقد شغل هذا الصديق ماضيه كله بالخديعة ، ولم يتضح له باطنه الدفين إلا في الفترة الاخيرة . ما أعجب هـذا الازدواج ، كيف غاب عنه ذلك طوال الفترة الطويلة التي كان يثق خلالها بهذا الصديق .

ـ أنا الذي أرهقني الانتظار . ليتني لم أتحدث اليك في الامر .

واستشعر الشجاعة التي كادت تخونه في اللحظات القصيرة الماضية ، لقد اقتحم الباب بحماس . « ما قيمة الحياة ان لم ندافع عن كياننا ، وأي كيان أثمن من احساسنا بالكرامة . لقد فقدت المال والجاه حقاً ، ولكن لم أفقد بعد احساسي بكرامتي » .

ووجد نفسه منساقاً في الحديث بتحمس :

ـ لقد وصلني الجواب عن غير الطريق الذي كنت أنتظر .

وقاطعه كمال :

ـ أي جواب تقصد ، لقد جئت لزيارتك بعـد أن يئست من زيارتك لي .

ولم تزده الاجابة إلا تصميماً على مواصلة الدفاع عن كيانه فقال :

ـ لقد نسيت اذن .

فردّ عليه كمال وهو يحدق نظره فيه :

— لم أنس موضوعك . لقد تحدثت فيه مع والـدي ولكن لم أتلق منه الجواب النهائي ، لقد وجدت منه مـا توقعته ، لقد أجابني بأن سميرة ما تزال صغيرة .

— ولكني اخبرتك برغبتي في تأخير الزفاف ، لقـد ادخلت في حسابي هذه العقبة . الا تذكر حديثي ؟

— لقد ذكرته ، ولكن ابـي كما تعلم صعب المراس في مثل هذه الامور .

فردّ عليه اسماعيل وقد بدت على وجهه سمات التحفز للنقاش :

— « ولكني سمعت كلاماً غير هذا ، سمعت أخباراً كدت أكذبها ، ولكن غيابك طول هذه المدة أكد لي صدق تلك الاخبار . لولا صدق ما سمعت ما تأخرت عن الاتصال بـي ، لقد انتظرتك ، وانتظرت ان أتلقى منك الاجابة مهما كانت ، وأية كانت . ولكنك غبت ، واختفيت ، وعرفت انا من غير الطريق الذي انتظر سبب غيابك ، وعلى أية حال ، فقد كنت أود أن أتلقى الجواب من صاحب الامر ، منك أنت ، ولا أتلقاه ممن لا يعنيه الامر فيصل إليّ مشوّهاً وفي صورة منفرة » .

وكأنما وصل في حديثه إلى نقطة اثارت في نفســه الاحزان والأسى ، فتحولت سحنته المشرقة إلى سحنــة كئيبة . وكاد ان يفلت منه زمام أعصابه ، بدا ذلك

واضحاً في نبراته الملجلجة ، ومحاولته اليائسة في أن يخفت صوته ، ويتئد في حديثه ، وازدادت حركات يديه العصبية كما اشتد ضغط قدميه على الارض .

وواصل حديثه وهو ينظر إلى صاحبه :

– اصدقني الحديث ، لماذا رفض والدك ، وهل حاولت اقناعه ، انك تعرف عني أكثر مما يعرف أبوك . لقد عرفت عن أخلاقي وحياتي الشيء الكثير ، لقد نشأنا نشأة واحدة في المدرسة وفي خارج المدرسة ، ليس هناك فرق بيننا سوى المال ، أنت ثري وأنا فقير ، نعم فقير في المال ، ولكن نفسي غنية بالقناعة والحب ، ونفسي عامرة كذلك بالامل والطموح ، وسأصل حتماً – في يوم ما قرب أو بعد – إلى درجة سوف ترضي والدك الثري واسرتك الغنية ، وقد عرفت يا كمال جانباً من تاريخ اسرتي ، التاريخ الذي لم أعاصره أنا ولم تعاصره أنت . ذلك التاريخ الذي حدثني عنه الشيخ محمد وقد نقلته اليك في يوم من الايام ، ان ذلك لا يعنيني في موقفي هذا سوى من جانب واحد ، هو ان المال يأتي ويذهب ، وهناك القول المأثور ، الذي سمعته لأول مرة من العم محمد « ان دوام الحال من المحال » . ما أشد ما يغتر الانسان عندما تقبل عليه الدنيا ، وما أشد يأسه عندما تدبر ، ولو عقل الانسان وتفكر في ما يسمعه من أفواه الناس أصحاب التجارب لعرف الحقيقة ، الحقيقة التي

يجب ان لا تغرب عن فكر أي منا في أية حال من أحوال الدنيا المتقلبة ، لقد صيغت هذه الحقيقة في مثل عـامي دارج : « يوم لك ويوم عليك ويوم كفاك الله شره » . لقد سمعت حتماً ذلك المثل ، ولا أدري هل وعيـت حكمته ، أم لا ، (وتريث قليلاً يلتقط أنفاسه اللاهثة قبل أن يستأنف حديثه ويبتسم ابتسامة باهتة) لا تؤاخذني فيما قلت ، فقد أصبحت فيلسوفاً . إن الفلسفة وليـدة الآلام ، وقد وصلت الآن إلى نقطة البدء في حياتي الحقيقية. ان المال هو نقطة الارتكاز في حياتنا ، أنت بلا مال لا تساوي شيئاً حتى ولو كنت ثرياً في عواطفك الانسانيـة ودوافعك الخيّرة ، المال يضفي عليك ميزات الحسن والجمال والخير . والفقر يسلبك ميزاتك الأصيلة ، المال هو حسن العرض ، هو الذي يفتح عيون الناس على محاسنك ويحدد لهم جوانب الخير في نفسك ، ويشير إلى جمال تصرفاتك وطيبة علاقاتك مع الآخرين . بـل المال عصا الساحر يحيل القبح إلى جمال والمساوىء إلى محاسن ، هذه فلسفتي منذ اليوم وقد أصبح هدفي تبعـاً لذلك ان أجمع المال وأسعى اليه وسأستطيع به ان أجذب أنظار من حولي إلى الخير والجمال والطيبة التي تزخر بها نفسي .

وسكت اسماعيل وقد استشعر الطمأنينة تضفي على نبراته لوناً من الهدوء ، وعلى قلبه نوعاً من السكينة . لقد أفرغ

كل أحاسيسه في هذا الحديث الخاطف ، الحديث الذي انثال على لسانه عفو الخاطر ، وأحس معه باداء مهمته خير اداء ، وعلى الوجه الذي يرتضيه .

ونظر إلى صاحبه في هدوء كمن ينتظر الجواب ، وان كان هو – في الحقيقة – قد أجاب على نفسه ، وماذا عسى ان يجيب صاحبه بعد هذه الافاضة .

وكان كمال متفرغاً لسماع ما يقوله اسماعيل في دهشة من فوجئ بشيء لا ينتظره ، فقد أعد نفسه قبل ان يدخل هذه الحجرة لمواجهة صديقه بحديث نسقه في ذهنه يتمشى مع اختلاق الحقائق وأسباب الرفض ، لقد رفض أبوه الخطبة وترك له تنسيق الاجابة ومواجهة صديقه بالاسلوب المرن ، يغلف المعنى الذي يجب ان يفهمه من سياق الحديث . ولكنه فوجئ بصديقه وقد توصل إلى الحقيقة ، وعرف الاسباب .

لقد قال صديقه حقيقة ما وقع ، فقد رفض أبوه الخطبة ، وكان السبب هو التفاوت الاجتماعي بين الاسرتين ، وفسره اسماعيل أوضح تفسير (المال هو السبب) . لأسرة اسماعيل تاريخ ، وما نفع التاريخ في موقفنا هذا ، وما الذي يقنع والده بنفع هذا التاريخ أو جدواه .

وودّ ان لو ينتهي الحديث عند هذا الحدّ ، فقد أحس بضعفه في الدفاع عن موقف والده أو موقف أسرته ،

ومع ذلك فقد عزّ عليه ان يؤمن على كلام صاحبه ، ففي ذلك اعتراف منه بالواقع . وفي صمته بدأ ينسق في ذهنه ما سيفاجئ به صديقه ، فقال وهو يحرك قدمه اليمنى في تؤدة ويتجه بنظره إلى اسماعيل .

— ولكن من حمل اليك هذه الاخبار ، ان فيها كثيراً من الاختلاق . ان حديثي مع والدي لم يتعدّ نطـاق الاسرة .

فقاطعه اسماعيل في حماس :

— ومن نطاق الاسرة خرجت هذه الاخبار ، مـن بيت إلى بيت ، ومن أسرة إلى أخرى . هذه وسـيلة المواصلات الاخبارية في بلدنا . أليس كذلك ؟

— ولكن أبي لم يرفض .

— وماذا قال إذن . إني أستحلفك بالله .

وصمت كمال متفكراً في الامر ، ان صديقه مصمم على معرفة رأي أبيه ، وقد استحلفه بالله . لقد كاد أن يكذب قبل أن يستحلفه ، ولكنه تراجع بعد ذلك . فقال وفي صوته تخاذل وفي نبراته ارتباك ظاهر :

— « لقد قال أبي « لم الحديث في أمر مؤجل ؟ لننتظر إلى ان تكبر سميرة » .

فقال اسماعيل وهو يزحف إلى جوار صاحبه :

— وهل اعتبر ذلك وعداً ، أم هو تسويف . قـل الحقيقة ولا يضيرك شيء . (وبعد ان خفض صوته كمن



فقاطعه اسماعيل في حماس ...

يرجو أمراً عزّ نواله) هل أنتظر ؟

ولم يجبه كمال وقد انسابت نظراته في شرود .

وصمت اسماعيل منتظراً إجابة صاحبه ، وبعد أن يئس ربت على ظهره وهو يستطرد :

— ان الامر في يد أبيك ، لقد كنت أود منك أن تكون صريحاً معي كما تعودت منك خلال صداقتنا الطويلة.

فردّ عليه كمال وهو يهم بالقيام من مكانه :

— سوف أعود اليك بعد أيام لأحدثك بالحقيقة .

— لقد عرفتها من غير طريقك . وأرجو ان لا تتأثر مما قلته لك . (وبعد فترة صمت ضم كف صاحبه بين كفيه وهو يستطرد) ان صداقتنا سوف تستمر وسوف لا يؤثر هذا الامر فيما بيننا من روابط .

فردّ عليه كمال :

— إني آسف لما حصل .

ومدّ كل منهما يده إلى الآخر ، ولكن لم يكن هناك ضغط يد على أخرى ، فقد تخاذلت القوى اثر الحديث العنيف . وخرج كمال ، وعاد اسماعيل إلى مقعده .

١١

وعاد إلى الحياة الرتيبة ، حملته اليها خيبة أمل مريرة . وبدأ يستشعر الفتور نحو عمله ذي الدخل المحدود بعد ان كان مقبلاً عليه بكل قواه .

بيد انه بدأ يستشعر حاجته إلى التغيير ، تغيير عمله وتغيير مظهر حياته ، وان كان دون ذلك عقبات وعقبات . ولم يكن أمامه في هذه الفترة المأزومة من حياته ، وفي هذا الوقت الذي لم يحدد فيه خطواته نحو المستقبل ، إلا ان يقوم بما في استطاعته أن يقوم به .

وفي صباح يوم من الايام ، حينما بلغ يأسه الذروة ، وأحس بالقيود تحيط به وتكاد تخنقه ، فاجأ أمه بقرار لم تكن تتوقعه . قال كمن يحاول الافلات من شيء ينغص عليه سعادته :

ـ لقد عثرت على منزل جديد ننتقل اليه ، وقد اتفقت

مع صاحبه على استئجاره باجرة مناسبة .

وتساءلت أمه تحاول ان تناقش الأمر على مهل :

– وما ايجاره ؟

– بسيط .

– وكيف تدبر الايجار ؟

وردّ عليها في ما يشبه الاصرار والعناد :

– سوف أدبر الامر .

وتساءلت مرة أخرى وقد شعرت بمسؤوليتها :

– من أين تدبره ؟ راتبك محدود لا يكاد يفي بحاجاتنا التي بدأت تلتهم معظمه .

ولا يدري لماذا قفز ذهنه إلى الرجل اللبناني الذي كان يتردد على مكتبه مندوباً عن احد البيوتات التجاريـة في مراجعة بعض المعاملات . لقد تحدث اليه « نبيل توفيق » ذات مرة عن الفرص المتاحة للشباب والطرق الفسيحـة للكسب ، كما سأله في مقابلة أخرى « ألم تجرب حظك في الاعمال الحرة ؟ » .

ويذكر اسماعيل كيف أعاد القلم أمامه وهو يبتسم ويلتفت إلى الرجل قائلاً : « وأين المال وهو دعامة العمل الحر ؟ » . وردّ عليه نبيل قائلاً : « ولكنك تتمتـع بالصفات التي يتصف بها رجل الاعمال » .

وكأنما دغدغ الرجل بهذه الجملة طموح اسماعيل واعتداده بنفسه ، فازدادت ابتسامته اتساعاً قبل أن يتساءل عن هذا

الاكتشاف المفاجئ :

– وما هي هذه الصفات ؟

قال نبيل وكأنما يتحدث عن شخص طالت عشرته له :

– تفكيرك المتواصل في تحسين عملك وحسن استقبالك للمراجعين ، وذكاء أرى ملامحه في نظراتك . إن هـذه الصفات هي دعائم العمل الحر قبل توفر المال . لقد بدأ رجال كثيرون من نقطة الصفر إلى أن وصلوا القمة . لقد كانت عدتهم في الطريق ذكاء يتصفون به وحسن اختيار لنوع العمل وترقب الفرص المواتية .

واسترد اسماعيل شجاعته التي كادت تخونه ، وتصميمه الذي أوشك ان يزايله . ونظر إلى أمه ذات النظرة التي تحمل الاصرار والعناد . وردد تساؤلها :

– من أين أدبر المال ؟ (ثم مستطرداً) لقد عرفت الطريق .

– تسرق أم تستدين ؟

وابتسم كمن يطمئنها قبل أن يقول :

– لا هذا ولا ذاك . سوف أبدأ من جديد ، بداية طريق طويل ولكن سيقودني حتماً إلى الهدف الذي استهدفه.

وكأنما لاح لها الطريق الذي يشير اليه ، وان كانت لم تحدس بعد معرفته . احساس الام المسؤولة عن كيان الاسرة الصغيرة . لقد عزّ عليها أن يفكر ابنها على هذا النحو من المغامرة وهو لم يزل صغير السن في نظرها .

قالت وقد لاح على سماتها خوف من المستقبل الذي ينتظر الاسرة :

— سوف تترك عملك إذن .

فقال يطمئنها :

— لم أقرر بعد ، وسوف تعرفين ذلك قريباً .

وفي اليوم ذاته ، وبمكتبه في الوزارة أمـام أكداس الاوراق ، راح يواصل التفكير في الامر ويناقش شتى الاحتمالات التي ستواجهه . بيد أن رؤيته لنبيل توفيق وهو يدخل عليه مكتبه ، قضت على كل تردد كأنما كان منظر الرجل وهيئته يوحيان اليه بالعزم الذي يعوزه في لحظـات التردد .

قال اسماعيل وهو يقلب الاوراق بين يديه ، يبحث بينها عن أوراق نبيل توفيق ويرمق الرجل بنظراته :

— لم تحدثني يا سيد نبيل كيف أبدأ العمل الحر .

وكان تساؤله يومئ بوضوح إلى تفكيره المتواصل في هذا الامر .

وغادر نبيل مقعده البعيد ، مقترباً من اسماعيل وقد ظهرت الفرحة على وجهه الابيض المائل إلى الاحمرار ، ورفع صدره كمن يستجمع أنفاسه استعداداً لحديث جاد :

— هل فكرت جاداً في الامر ؟

— لقد فكرت جاداً فيه ، ولكن لا أعرف من أين أبـدأ .

وجلس نبيل في المقعد الموازي لمكتب اسماعيل واستند بمرفقيه على حافة المكتب ، متجهاً بكل حواسه اليـه قائلاً :

— سوف تبدأ من نقطة الصفر كما بدأ كثيرون قبلك ، وكما سيبدأ كثيرون بعدك . لا تخشَ الفشل ، فكل خطأ في طريق العمل الحرّ درس يستفيد منه المخطئ ، وكل اخفاق يحمل في طياته عبرة جديدة يستوعبها ذهن المخفق .

وابتسم اسماعيل قبل أن يقول :

— كلام جميل هذا الذي تقوله . ولكني صفر اليدين، ان المشكلة في نظري تتمثل في تساؤلي « كيف أبدأ ؟ »

سحابة سوداء تمثل الشك والارتياب في أفق تفكيره ، والتردد في خطوة فاصلة ودّ لو خطاها ، وجرب حظه . ولكنها من غير شك سوف تكلفه الثمن الغالي من مستقبل حياته ومستقبل اسرته ، هي في الحقيقة : الخوف من الفشل لا كما قال : « كيف أبدأ » .

وفرك نبيل توفيق كفيه قبل أن يقول متحمساً وابتسامة تفاؤل تلوح على ثغره :

— ستكون محاولتي الثالثة معك بعد أن فشلت وحدي مرتين . واني متفائل بالبداية معك ، هات يدك وسنبدأ من الغد . سوف أقوم بالتمويل والمشورة وتقوم أنت بالعمل . ستكون مسؤولاً عن التنفيذ في نطاق ما نتفق عليه .

وفي اللحظة الحاسمة التي انتظر فيها نبيل كلمة الموافقة ينطق بها اسماعيل ، كان الماضي بكل ما فيه من عرق وجهد يلوح امام ذاكرة اسماعيل .. الماضي البعيد ، فترة صباه الباكر ، يتمه وحياته المتواضعة وجدّ أمه في كسب العيش وسهرها المتواصل ، ليلاً طويلاً لم يبد في أفقه مطلع فجر جديد . وأخيراً وبعد حياة حافلة بالشقاء تجرعه على فترات متتالية ، بدأ العمل في هذه الوظيفة ، وكان ذلك إنما يعني في نظره بداية طريق جديد سيباعد بينه وبين الحياة التي قاسى العناء فيها منذ صباه . وحينما لاحت أمامه سبل النجاح وانفتحت أمامه الابواب تدعوه إلى مواصلة السير ، إذ بالاحداث تدفعه إلى هذه الطريق وسلوك سبل أخرى . هو القلق من شيء يعيش في كيانه ، وهو التطلع إلى شيء لا يدريه . هكذا بخطوة واحدة ، بل بكلمة واحدة سوف يستدبر ما استقبل من حياته ، ليغامر في محاولة جديدة لا يعرف نتائجها ، وفشله فيها معناه عودة الشقاء .. العودة إلى حياة سابقة ودعها منذ زمن قصير ، حياة يشقيه مجرد تذكرها .

ولاحت على سمات وجهه آثار فكره المضطرب ، وحيرة نفسه . وهذا الرجل الذي أمامه ، ما مدى اخلاصه للفكرة ، للعمل والمشاركة ، وما هي أهدافه ، وما هي مراميه ؟ لماذا لم يبدأ العمل الحر — ان كان مخلصاً في فكرته — مع شخص آخر ؟

وعاد يقنع نفسه الحائرة .. مصادفات الحياة وظروفها واليد العليا ، تلك اليد القوية التي تسيرنا في الحياة وتدفع بنا إلى طرق السعادة أو الشقاء دون أن يكون لنا جهد في الاختيار . هل قدر لي ان ارتبط ويرتبط مصيري بهذا الرجل . ما أطول الطريق الذي لا أعرف فيه مواقع قدمي وما أشق السير فيه !

وغامت المرئيات امام ناظريه وطال صمته . وكأنما أدرك الرجل اضطراب أفكاره وتردده في قبول العرض . إنه خوف طبيعي استشعره في مواجهة مشروع جديد هي مغامرة بلا شك في نظر هذا الفتى الذي لم يتعوّد المغامرات ، فبادره بقوله :

— لم تجبني ، أراك متردداً ، سوف أترك لك فرصة التفكير يوماً أو يومين .

وسارع اسماعيل بلهجة المتردد قائلاً :

— لديّ سؤال .

وانتظر فترة كأنما يرتب في ذهنه تساؤلاً حيّره ، ثم قال :

— وماذا لو فشلت ؟

وضحك نبيل وهو يتراجع إلى الوراء قائلاً :

— لقد قلت سوف أترك لك فرصة لتفكر في الامر على مهل وتستشير أصدقاءك . هي مغامرة بالنسبة اليك ولا أود أن تبدأ معي وأنت غير واثق من نفسك .

ولكن اسماعيل وقد بدأ يذكر حديثه مع أمه قبل ساعة ، حديث الواثق من نفسه ، كأنما كبر عليه أن يكون متردداً . فسرعان ما استعاد ثقته وتحمسه قائلاً :

— مجرد سؤال لا يؤثر في موافقتي ، فقد وافقت .

ولم يبد على نبيل تحمسه لهذه الموافقة بعد أن أحس تردده فقال :

— ومع ذلك سوف أترك لك فرصة التفكير . سوف أعود اليك بعد ثلاثة أيام ، وإذا شئت ان تبادر قبل هذا الموعد فهاك عنواني بجدة .

ومدّ اليه ببطاقته ، فألقى اسماعيل نظرة عابرة على البطاقة قبل أن يضعها في جيبه وهو يردد : « سوف ارتب أموري فقط ، لست متردداً .. فقد اخترت الطريق بعد تفكير طويل منذ أن قابلتك في المرة الأولى .

وعندما همّ نبيل بمغادرة الحجرة ، وقبل ان يتفق واسماعيل على رأي نهائي ، كان عبد الحميد يدخل الحجرة وسمات وجهه تومي برغبته في الافضاء بأحاديث عاجلة . فرمق الرجل الغريب الواقف أمامه بنظرة استيضاح ، وتردد في موقفه قبل أن يلقي التحية ، ثم أعاد النظر إلى الرجل الذي همّ بمغادرة الحجرة وكأنما يستعجله مبارحة المكان . ثم نظر إلى اسماعيل نظرة تساؤل وكأنما شعر بأن بين الاثنين حديثاً لم ينته بعد ، كان دخوله المفاجئ سبباً في انقطاعه ، فقال متصنعاً التردد في موقفه :

ـ أخشى أن أكون قد قطعت حديثكما .

وقبل أن يتلقى الاجابة كان نبيل يستأذن اسماعيل ويغادر المكان .

وقال اسماعيل يبادر عبد الحميد بالسؤال ، بعد أن أشار اليه بالجلوس :

ـ ما أخبارك ؟

وجلس عبد الحميد في أقرب مقعد والتقط أنفاسه اللاهثة ، وما زال التساؤل يتردد على طرف لسانه . فقال في لهجة المتعجل كأنما يخشى أن ينسى سؤاله العارض بعد أن رأى رجلاً غريباً في هذه الحجرة ، رجلاً لم يره من قبل :

ـ ولكن ما أخبارك أنت أولاً ؟

فضحك اسماعيل وهو يقول :

ـ حاستك البوليسية لا تفارقك . سوف أترك لك تساؤلك تجيب عليه . اني اسألك ما هي اخباري .

ومع هزة الاعتزاز التي ظهرت آثارها واضحة على سمات عبد الحميد ، فقد وجد نفسه عاجزاً عن ان يحدس أو يستشف شيئاً من اخبار اسماعيل . فقال وفي صوته رنة حزن كأنما يرثي بها فطنته الضائعة :

ـ لدي أخبار يهمك أن تنصت اليها .

وقاطعه اسماعيل :

ـ أراك تجاهلت سؤالي ، يبدو لي ان جعبتك مليئة

بالاخبار .

فبادره وهو يرفع كلتا يديه يشير له بالانصات :

– جديدة ، أنا أول من ينقلها وأنت أول من يسمعها.

واستطرد بعد ان التقط أنفاسه :

– حركة ترقيات جديدة ، سوف تحظى بنصيبك منها، وربما يلحقنا منها رشاش .

وتساءل اسماعيل :

– لكن ، ما مصدر هذه الأخبار ؟

فردّ عبد الحميد وهو يرفع صوته :

– لا تسألني عن مصدرها . ذاك سرّ المهنة . ولكني أسألك هل سبق ان نقلت اليك أخباراً لم تتحقق في حينها ؟

وعندما ردّ عليه اسماعيل بالنفي استطرد قائلاً :

– أود أن تعدني بنقلي إلى مكتبك ، أنت وحدك الذي يفهمني في هذه الوزارة .

فقال اسماعيل :

– أعدك بذلك إذا بقيت .

وتحرك عبد الحميد من مقعده متسائلاً :

– إذا بقيت ؟ ماذا تقصد بذلك ؟

فأجابه اسماعيل :

– لديّ رغبة في ترك العمل.

وكأنما كان وقع الخبر عليه أشدّ مما يتحمل صبره ، فأقبل على مكتب اسماعيل وقد ظهرت الدهشة على وجهه ،

وتساءل في حيرة :

– تترك العمل ؟ لماذا ؟ وإلى أين ؟

وهز رأسه هزات متتالية ، وكأنما أدرك أخيراً سرّ وجود الرجل الغريب الذي غـادر الحجرة قبـل قليـل فقال :

لقد حدست ذلك ، وكذّبت ظني وقلت في نفسي « ان بعض الظن اثم » . (وبعد فترة صمت استأنف) : الا يكون الرجل الذي غادر الحجرة هو صاحب هذه الفكرة الخاطئة ؟ نعم ، نعم ، لقد أدركت ذلك (مشيراً إلى رأسه) وكذبت نفسي .

ليته الآن هنا فأناقشه ، أو ليتني بكرت في المجيء إذن لعرفت الأمر على حقيقته . على كل حال ، صارحني بالحقيقة وسأنير لك الطريق بتجاربي ، وسوف تتعرف على موقع قدميك قبل أن تقوم بمغامرة لا تعرف نتائجها .

فردّ عليه اسماعيل وهو يشير له بالسكوت :

– لقد قررت ذلك وسوف تعرف فيما بعد، لماذا ؟ وإلى أين ؟

ولم يشأ عبد الحميد أن يتنازل عن تصميمه فقال :

– لا تقل لي لماذا ؟ ولكن أخبرني إلى أين ؟ هـــذا السؤال فقط وسوف آتيك بتحرياتي الصادقة .

فردّ عليه اسماعيل :

– ولا هذا السؤال . لقد بدأت العمل هنا وفي يدي

حقيبة كتبي ، لقد كان عزمي بين بين ، وكنت متردداً .
لقد انتظرني أخي الاصغر يومذاك في المدرسة ، ولكني لم أعد اليها فقد سرت في الطريق . وكان رأسي يومذاك خالياً من كل تجربة ، ومع ذلك فقد شققت طريقي وسط الاشواك والعراقيل . واعتقد اني نجحت . اني اليوم لست أقل عزماً من ذلك اليوم .

فقال عبد الحميد في لهجة اليائس :

— ولكن هذا العمل جنون . يبدو لي انك لم تستفد بتجاربك ولم تستفد بما قرأته . اسمع ، هناك مثل يقول « عصفور في اليد ... » وقد حرفه العامة فقالوا « جرادة في اليد ... » . ومن ثقافتي وتجاربي استفدت تجربة ثمينة وهي ان العمل الحكومي ، وهو ما يعبر عنه العامة بـ « شغل الميري » هذا الشغل يبعث على راحة البال ، وراحة البال هدف كل عاقل . أوراق تجيء وأوراق تذهب ، وأنت على مكتبك تأمر وتنهى وتصدر الأوامر ، وكل بضعة اشهر بشرى جديدة بنقل أو ترقية . وأنت مع الركب آمن مطمئن . تقبض الراتب أول كل شهر ، ولا تكلف نفسك مؤونة توزيعه فهو موزع على جهاته . نصفه هنا وربعه هناك ، وما تبقى ان بقي منه شيء فللظروف الطارئة . هذه حياة الاستقرار والاطمئنان . ولكن قل هل هو عمل حر ، أم انتقال إلى وظيفة حكومية أخرى ؟

فردّ عليه اسماعيل وهو يضحك :

– لقد عدت إلى تحرياتك ، ومع ذلك أصارحك بأني سأخرج إلى عمل حرّ .

ورفع عبد الحميد يديه يمسك بهما رأسه في ذعر قبل ان يقول :

– عمل حرّ ... هل جننت ؟ سوف يضيع مستقبلك نتيجة لتهورك .

فردّ عليه اسماعيل وهو يبتسم :

– كما ضاع مستقبلك .

وتراجع عبد الحميد كاليائس وهو يقول :

– سوف تندم بعد فوات الأوان .

وبدخول أحد موظفي المكتب ، اضطر الاثنان إلى قطع الحديث . بيد ان عبد الحميد وجد فرصته ليفكر في الأمر على مهل ، وغادر المكتب وعلى سماته وشي حزن وكآبة وأمارات تفكير عميق .

١٢

في حي البغدادية بجدة ، وبين الازقة المتفرعة من الشارع الرئيسي ، راح اسماعيل يسأل عن منزل نبيل توفيق إلى ان وصل .

كان مسكناً مستقلاً يتكون من طابق واحد يحيط به فناء متوسط المساحة ، غرست على جوانبه بعض أشجار الزينة . كما توسط الفناء حوض مستدير نمت فيه بعض الازهار ورصفت حافته بالطوب الاحمر . وبدا حول الحوض بعض المقاعد المتناثرة دون ترتيب . ووقف اسماعيل في الفناء يردد بصره في جوانبه .. ولما لم يظهر له شبح انسان تقدم إلى باب المبنى حيث رأى الجرس فضغط عليه برفق وانتظر .

ووصل إلى سمعه وقع خطوات تقترب من الباب ، ثم انفتحت ضلفة الباب وإذا بنبيل توفيق نفسه يستقبله .

وما ان وقع نظره على اسماعيل حتى ابتسم ابتسامة عريضة مرحباً به ، والتفت يمنة ويسرة متردداً كمن يبحث عن شيء . بيد انه ما لبث ان قال « سوف نجلس في الفناء » ، ثم أردف : « ان الشمس لم تزايل الفناء بعد ، لا بأس سنجلس في هذه الشرفة » . وأسرع إلى مقعدين ينقلهما من جوار حوض الزهور إلى الشرفة المطلة على الفناء .

وبعد ان استقر اسماعيل فوق مقعده لحظة يسيرة مستقبلاً الفناء في جلسته ومستدبراً نوافذ المسكن خلفه ، استأذن منه نبيل بعد ان سأله « هل تفضل الشاي أم القهوة أو أي مشروب بارد ؟ »

قال اسماعيل :

– المشروب البارد أفضله بعد المشوار الطويل .

فقال نبيل وهو يقف منه غير بعيد على أهبة الدخول إلى المسكن :

– لو انتظرت يوماً آخر لتوجهت اليك بنفسي ، ولكن مجيئك على كل حال قد دلّ على رغبتك في ترك عملك الوظيفي . (ثم توقف برهة أردف بعدها) أم لأمر آخر ؟

فقال اسماعيل وفي صوته رنة تصميم تنم عن عزمه :

– بل الامر الاول الذي اتفقنا عليه ، وان كان لديّ استيضاح أو أسئلة أرغب الاستنارة فيها برأيك .

فردّ عليه نبيل وهو ما زال واقفاً بالقرب منه ، وكل انتباهه اليه ، ونصف نظره إلى داخل المنزل عبر الباب

المفتوح :

– دقيقة واحدة وسأعود اليك .

وغاب عنه . وسرح اسماعيل مع أفكاره مستعرضاً كل ما مرّ عليه منذ أن فكّر في ترك وظيفته إلى هذه اللحظة التي وصل فيها إلى بيت الرجل ، وما زال في كيانه بقية من تردد ، فهو سيترك عمله لمجرد فكرة ، حديث عابر يغير به مجرى حياته مع ما في هذا التغيير من مغامرة ليست مأمونة العواقب . فكرة لم تنضج بعد ، ولم يستشر فيها أحداً من الناس . هناك شخص واحد قد استشاره فأشار عليه بتفادي التفكير في مثل هذه الخطوة ، ولكن ما قيمة هذا الشخص في الحياة المتحركة ، وما نصيبه من النجاح فيها ؟ انه عبد الحميد ، الموظف الذي رضي بحاله ورضي بكل ما يحمله له عمله الراكد البطيء .

ليس يعنيه من الحياة سوى الرضى بما قسم ، دون سعي أو كد أو جهد ينتظر فتات الترقيات ويصبر على بقايا الترفيعات والتنقلات ، ويقضي فراغ وقته في الاستماع إلى أخبار المكاتب والادارات ومن ثم ينقلها إلى غيره ، وما تبقى من وقته يصرفه في الاكل وقراءة الروايات البوليسية .. حياة راكدة آسنة .

وجاءه صوت نبيل يشق الصمت العميق ، ويقطع عليه حبل أفكاره :

– حياة العمل الحر كلها حركة ، لقد اكتسبت منها

ان لم اكتسب شيئاً ، هذه الحيوية وهذه الصحة التي أتمتع بها . قل لي يا اسماعيل كم تقدّر لي سناً ؟

قال هذا وهو يتدنى قليلاً ويضع امام اسماعيل زجاجة الكوكاكولا ، ثم يمسكها ثانية ويفرغها في الكأس ثم يضع قدح القهوة أمام المقعد الآخر ، حيث يجلس متجهاً إلى اسماعيل صامتاً ينتظر منه الاجابة :

فردّ عليه اسماعيل بعد فترة من جلوسه :

— لم تتعد الاربعين .

فضحك نبيل وهو يقترب بمقعده نحو اسماعيل مشيراً إلى شعر رأسه ويقول :

— انظر ، شعر أسود ، لا ترى فيه الشيب إلا إذا امعنت نظرك فيه ، وصحة طيبة . والسرّ هنا (مشيراً إلى قلبه (قلب لا يحمل هماً مهما تفاقمت الامور .)

لقد صعدت إلى القمة وعدت إلى الحضيض مرات عديدة ، وهاانذا أعود الآن من البداية بمثل القوة والعزم يوم أن بدأت المحاولة الأولى في صدر شبابي . اني أناهز الخمسين . أنت لا تصدق ذلك ، لي ابن أكبر منك تخرج هذا العام من الجامعة الامبركية ببيروت ، ولي بنت في السابعة عشرة من عمرها أنهت دراستها الثانوية وهي الآن معي .

فقال اسماعيل بعد ان طال انصاته للرجل وهو مسترسل في حديثه الشيق :

– اذن فأنت سعيد كما يبدو لي من حديثك يا سيد نبيل ، ولكن ما سرّ هذه السعادة وما مبعثها ؟

فردّ عليه وهو يرفع كلتا يديه كمن يعيد شرح نظرية بديهية :

– لقد قلت لك ان السرّ هنا في قلبي ، ثم هذه الحياة التي أحياها في بيتي هي دعامة سعادتي . اني لا ازال أذكر ذلك اليوم الذي عدت فيه إلى المنزل مهيض الجناح بعد انهيار كياني المادي في متجري اثر تلاعب كنت في غفلة عنه . وإذا بابتسامة على ثغر زوجتي وكلمة مواساة وتشجيع تزيلان كل اكتئاب وتمسحان كل حزن من جوانب هذا القلب . ولقد كنا يومذاك في مقتبل الشباب حديثي العهد بالزواج . لقد وجدت في وقفتها بجانبي كل تشجيع وإذا بي أنسى كل شيء وأعقد العزم مرة أخرى على ان أعود وأبدأ من جديد ، حياة أُعد خلالها نفسي لتقبل كل فشل (وبعد ان توقف برهة اردف) ثم ما قيمة الحياة إذا لم يكن فيها الجهد والكد والعرق والدموع ! المهم في ذلك كله في موقفي أنا بالذات ، إني وجدت شخصاً آخر يقف خلفي في الازمات ، يخفف عني وقع النكبات ويزيل بابتسامته كل ما ألاقيه في حياتي من عنت . ويشجعني على الاستمرار في الطريق . إني اليوم راض عن نفسي ، قانع بحياتي مزود بطاقة من القوة التي تعينني على البدء مرات ومرات .

وتريث نبيل وهو يشرد بنظره بعيداً قبل أن يستأنف حديثه ، وقد رفّت على ثغره ابتسامة مضيئة استعاد بها وجهه الناضر سمات الفتوة الباكرة :

— البيت السعيد وحياة الخصب التي أحياها منذ شبابي الباكر ، لا أقصد الخصب المادي ، بل الخصب العاطفي ، وإحساسي بالقلب الكبير الذي يقف خلفي ، يحنو عليّ ويخفف عني قسوة الحياة وعناءها ، تلك الدوافع القوية التي أعانتني وستعينني دائماً على اجتياز الدروب الوعرة .

ثم صعّد زفرة وما زالت الابتسامة مرتسمة على ثغره تنم عن السعادة التي عاش فيها وما زال يعيش فيها إلى الآن .

— هه يا سيد اسماعيل . لقد بعدنا عن الموضوع ، ماذا قلت ؟ وما رأيك ؟ (ثم استدرك مستوضحاً) : ولكنك قلت ان لديك أسئلة ترغب الاستنارة فيها برأيي ؟

قال اسماعيل في صوت خافت وكأنما طفا على وجه الماء بعد ان كان غائصاً في أعماقه ، فقد نسي الأمر الذي جاء من أجله ونسي الاسئلة التي استحضرها قبل أن يبدأ الرجل حديثه . وذكر (نجمة المساء) التي كانت في يوم ما هدفه في الحياة . « وما قيمة الحياة إذا لم تحفها نسمة عاطرة تحيل جفاف القلب وجدبه إلى حياة خصبة ثرة بالمعاني الجميلة والعاطفة الرقيقة ! » وضرب كفاً بكف ، أين الهدف ؟ لقد انمحى من أفقه وذاب في الفروق

الاجتماعية التي أقامها المال ، انه الآن يسعى إلى المال فقط لقد استحالت الوسيلة إلى هدف ، وما أضيعه اذن في دروب الحياة :

– هل تزوجت عن حب يا سيد نبيل ؟

وضحك الرجل للسؤال . فقد بعد حقاً عن الموضوع ، وكيف يتأتى له أن يعيد الفتى إلى حديث العمل بعد أن سار به شوطاً بعيداً في حديث الحب ؟ ومع ذلك فقد أجاب :

– نعم . وهل فهمت غير هذا ؟ كنت في مثل سنك وما زلت إلى الآن أعيش فيه . هو الفيء الذي أستظل به . لئن فاتني ان أصل بسرعة إلى الثراء فقد استعضت عنه بالنظرة المتفائلة ، وانني سأصل حتماً ما دمت مزوداً بهذه القوة الدافعة . أنا اليوم مزود بقوة على الكفاح والجلَد .

وضحك اسماعيل قبل ان يقول :

– أخشى ان لا يجتمع الحب والمال .

فرد عليه نبيل وقد بسط كفيه :

– من قال ذلك ؟ (وبعد ان تريث قليلاً استأنف) لنترك هذا الحديث ونعود إلى الموضوع . ما هي أسئلتك ؟

وعلى خفق خطوات هينة لينة وصل صداها إلى سمع اسماعيل ، التفت وراءه ، وإذا به يفاجأ بفتاة شقراء ، طويلة ، نحيلة القوام ، ذات وجه مستدير صغير ينم عن

صغر سنها بالرغم من طولها . وكانت خصلة من شعرها الذهبي تميل إلى الجانب الايمن من جبهتها وقد تدلى طرفها على حاجبها الايمن .

كانت مقبلة في خطواتها الخفيفة على الشرفة ، وعندما وقع نظرها على اسماعيل توقفت برهة في مكانها مترددة بين الإقدام والاحجام . وكانت عيناها قد تلاقت فجـأة بعيني اسماعيل في نظرة فاحصة مع الدهشة البالغة والتساؤل الصامت من الجانبين . وعندما استرد اسماعيل نظره وأنفاسه وانتبه إلى نفسه عقب المفاجأة التي باعدت بينه وبين حديث صاحبه وأنسته ما كان دائراً في فلك تفكيره ، استدار مرة أخرى إلى محدثه وهو غائب حاضر متتبعاً بسمعه وقـع الخطوات الرشيقة التي تمثلها وكأنما هي حفيف الاشجار تستجيب في تمايلها لهبّة نسيم في ربيع عاطر . وابتعدت عنه الخطوات ، ومع ذلك كان يتتبعها بسمعه الذي ازدادت حدته ، إلى أن انقطع الصوت ولم يبق منه إلا بقايا صداه تتردد في سمعه مع صورتها التي طالعته على حين فجأة . ففرك أصابع يديه قبل أن يجيب صاحبه في صوت خافت ، إلا انه مليء بالعزم والقوة :

— لقد جئت اليك لنبدأ العمل ، هناك سؤال واحـد فقط ، ما هي خطة العمل ؟

وغادر نبيل مقعده قائلاً :

— إذن سوف نبدأ من الآن ؟ دقيقة واحدة وسأعود

اليك . واتجه إلى داخل المنزل في خطوات سريعة وبقي اسماعيل صامتاً وقد شرد بنظره إلى بعيد .

« هي اللحظة الحاسمة في ترددي الذي طال أمده ، لقد كان هناك كثير من الاسئلة قبل أن نبدأ الحديث ولكني نسيتها ، لقد كان الوجه الذي رأيته فصل الخطاب ، اني أتفاءل بالوجه الحسن يظهر لي في اللحظات الحاسمة » .

« وأي حسن يحمله هذا الوجه الصغير ، انه حسن من نوع جديد . إني لم أر قبل اليوم جمالاً يحمل اللون الاشقر متوجاً بالشعر الذهبي ، لقد شاهدت السمرة على اختلاف درجاتها ، ولكل لون معنى يحمله . هذا ينتمي إلى الشمس والحرارة والصحراء وذاك يرقى إلى الثلوج والسحب والامطار . ولكل جو من هذه الاجواء سحره وفتنته وأسراره ، الريح السافية في الصحراء تضرب بسياطها مضارب الرعاة ، لها في وجدان البدوي سحر لا يقل أثره ومداه عن سحر قطرات المطر المنهمر على ذرى المنازل في بلاد أخرى أنجبت اللون الاشقر متوجاً بأسلاك الذهب » .

وانتبه إلى نبيل وقد أقبل اليه في خطواته السريعة يحمل بيديه بعض الاوراق والدفاتر . وقال بعد أن أخذ مقعده :

— سوف نبدأ بالتخطيط لعملنا باسم الله . (ثم التفت فجأة إلى اسماعيل بعد أن وضع الاوراق التي كان يمسكها

بيديه) : لقد فوجئت سلوى عندما رأتك . إنها لم تعلم بوجودك معي وان كانت قد سمعت عنك قبل الآن عندما تحدثت مع والدتها في أمرك ، ورفع اسماعيل بصره إلى وجه الرجل متتبعاً حديثه ، بينما استطرد نبيل :

– لقد كنت موضوع حديثنا أمس الماضي فقط ، لقد كان ذلك إثر ما دار بيني وبينك من حديث في موضوع العمل .

وهزّ اسماعيل رأسه وهو يقول :

– ولكن يبدو انها صغيرة . لماذا لم تكمل دراستها ؟

فردّ عليه نبيل وقد رانت على وجهه مسحة حزن دفين :

– لقد أكملت دراستها الثانوية ولم ترغب في اكمال تعليمها الجامعي لظروف خاصة . وقد صحبتنا هذا العام إلى هنا (وقطع مجرى الحديث متسائلاً) : ولكن قل لي لماذا لم تستمر أنت في الدراسة وسنك ما زال صغيراً ؟

وطافت مسحة الحزن ذاتها على وجه اسماعيل وهو يقول :

– لظروف خاصة كذلك . ولو انها تختلف حتماً عن ظروف (وتريث قليلاً كأنما يستذكر الاسم) فجاء الردّ « سلوى » .

واستطردَ : نعم سلوى ، لقد كان حتماً علي أن أترك الدراسة مع رغبتي الاكيدة في الاستمرار فيها ، ولكن

مرض أمي دفع بي إلى طريق العمل في هـــذه السن المبكرة .

وتساءل نبيل :

— وهل توفي والدك منذ زمن بعيد ؟

فردّ اسماعيل :

— نعم ، منذ زمن بعيد ، اني لا أذكر صورته إلا خيالاً باهتاً عفى عليه الزمن . وقد قامت أمي بتربيتي وتربية أخي الأصغر ، وكانت تسهر الليالي الطوال وهي مكبة على ماكينة الخياطة إلى أن وهنت صحتها وعجزت عن العمل (وبعد أن صعد زفرة من صدره استطرد) : لقد عجزتْ عن الاستمرار في العمل — لحسن الحظ — حينما أصبحت أنا أهلاً للعمل .

وكأنما أدرك نبيل ما يعـانيه اسماعيل وهو يتحدث اليه عن حالته فقال بعد أن ارتسمت على ثغره ابتسامة مشجعة :

— لا عليك ، لقد بدأت أنا العمل في مثل سنك . لقد نشأت يتيم الابوين وكفلني عمي وقد كان من حسن حظي أنا الآخر ان كانت خالتي تقيم في البلدة ذاتها وكنت أقضي لديهـا معظم وقتي ، وهناك في عاليه بلدتي الـتي نشأت فيها ، وأظنك سمعت عن هذه البلدة القريبة من بيروت ، ان لي فيها ذكريات جميلة وأخرى كئيبة ولكن الزمن على كل حال كفيل بأن يطوي بمروره كل المـاضي بمحاسنه ومساوئه . لقد حرمت منذ طفولتي الباكرة حنان

الام ولكني لم أحرم انعكاس هذا الحنان من قلب اختها ، لقد كنت سعيداً حقاً لذلك الحنان الدافق الذي كانت تحوطني به خالتي ، وان كنت في بعض الاحيان أجد نفسي في حاجة إلى تشرّب الحنان الاصيل من قلب الام . (وصعد زفرة من صدره بعد أن توقف فجأة ثم استطرد) أنت أسعد حظـاً مني . لقد شاهدت الحنان الاصيل من قلب أمك وشهدت تضحيتها في رعايتك ورعاية أخيك ، تلك منزلة لا ينالها إلا المحظوظون السعداء .

والتفت إلى باب الشقة كما التفت اسماعيل معه على وقع خطوات تقترب منهما ، وكانت سلوى قد أقبلت في ثوب آخر غير الذي كانت ترتديه ، وكانت في خطواتهـا كالمترددة بيد انها استمرت حينما أشار لها أبوها بالمجيء قائلاً :

— سلوى ، تعالي هنا . هذا السيد اسماعيل سامي ، لقد سبق ان حدثتكم بأنه سوف يبدأ معي العمل شريكاً لي فيه .

وكانت سلوى قد وصلت اليهما ، فوقف اسماعيل ماداً اليها يمناه مسلّماً ، بينما كانت تقول وهي تنظر إلى اسماعيل :

— لقد توقعت أن يكون رجلاً كبيراً .

فقاطعها أبوها قائلاً :

— وهو كبير حقاً ، ليس في السن ولكن في العزيمة

وحبّ العمل .

وجذبت سلوى المقعد النائي من أقصى الشرفة وهي تقول في صوت هادئ ينم عن الثقة :

— أتمنى لكما التوفيق وان كان هذا الدعاء من جانبي لا يعدو ان يكون دعاءً لنفسي بالنجاح . إن نجاحكما لا يعني نجاح فردين فقط .

وكانت قد وصلت إلى حيث يجلسان ممسكة بالمقعد الذي جذبته ، فاتخذت مكاناً بجوار والدها في مواجهة اسماعيل وابتسمت وهي تجلس موجهة الكلام إلى اسماعيل :

— إن تمنياتي سوف تشمل ضمناً اناساً آخرين . اخواتك واخوانك ووالديك .

فسارع اسماعيل قائلاً :

— سوف يشمل اثنين فقط ، والدتي وأخي الاصغر .

فقالت وقد اتجهت اليه بانتباهها :

— أهذه كل أسرتك ؟

فقال اسماعيل وهو يشرد بنظره بعيداً ، بينما ركزت هي نظرها فيه :

— نعم . لقد نشأت يتيماً ولذلك فقد قطعت دراستي واتجهت إلى العمل .

فتساءلت في نغمة تنم عن المشاركة في الشعور :

— وهل أنت حزين لتركك الدراسة ؟

فرد في نبرة تنم عن العزم والقوة :



وكانت سلوى قد وصلت اليها ، فوقف اسماعيل ماداً اليها يمناه مسلماً

– كلا ... إنني سعيد ، لقد ضحت أمي بشطر مهم من حياتها ، وأنا الآن أتحمل عنها العبء راضياً كل الرضى عن ذلك . ان العمل هو الهدف والعلم هو الوسيلة وسوف لا أقطع صلتي بالثقافة التي سأستعين بها في عملي وحياتي المستقبلة .

فقالت سلوى وهي تنظر إلى أبيها وتبتسم :

– أخشى أن يشغلك العمل فلا تواصل قراءتك واطلاعك كما شغل أناساً آخرين .

فضحك أبوها قبل أن يقول :

– لكل شخص اتجاهه في الحياة ، يكفيني من الثقافة تتبع أخبار العالم واتجاهاته السياسية ومعرفة الدوافع الحقيقية لكل جانب من الجوانب المتناحرة .

فقاطعته متسائلة :

– وهل هذه هي الثقافة الحقيقية ؟ ان ذلك لا يمثل إلا جانباً واحداً من جوانبها المتعددة . فقد أصبحت الثقافة في وقتنا الحاضر ضرورة من ضرورات الحياة ، فكما أسعى لرزقي بالعمل المتواصل يجب أن أسعى لتنمية ثقافتي وعدم الوقوف بها عند حد معين أو في جانب واحد ، يجب ان تشمل ثقافتي كل ما كتب عن الحياة واستوعب تجارب الآخرين بحثاً أو قصة أو قصيدة أو مجرد خاطرة . ما أجمل ان أستعرض تجربة عمر كامل مركزة في صفحات كتاب . أما السياسة وحدها وتتبع الاخبار فقط فإنما ذلك يعني

الاكتفاء بلون واحـد من الطعـام سرعان ما تعافه النفس.

ولم يمهلها أبوها في الاستطراد فقد قاطعها قائلاً :

ـ ما زلنا مختلفين . لقد قلت ان تجربة واحدة أعيش فيها يومي تعدل مؤلفاً تقضين في قراءته الليالي الطويلة . الحياة هي العلم ، وهي الثقافة ، وما دام هدفنا هو معرفة الانسان ومعرفة الحياة ، فان في ميدان العمل والاختلاط بالناس مجالاً واسعاً لتحقيق هذا الهدف .

فردّتْ قائلة :

ـ ان النظريات نتيجة التجارب ، وأنا عندما اقرأ في كتاب فانما أعيش الحياة نفسها واختصر الطريق وأوفر على نفسي مؤونة التجارب الجديدة .

وهنا أشار اليها والدهـا بكلتا يديه وهو يقـول ضاحكاً :

ـ إلى هنا سأقف في النقاش . يبدو اننا سوف نبدأ من حيث بدأنا كل نقاش سابق . اخبريني أيتها العـالمة النفسانية ماذا ترين في اسماعيل ؟ ما هي ميوله وما طباعه؟ وهل سينجح في عمله الجديد كما نجح في عمله الوظيفي ؟

فردت عليه مبتسمة :

ـ لست قارئة كف ولا فنجان . ولكن أرى في سماته التصميم والعزم ، وهي من مقومات النجاح . أما ما عدا ذلك فشيء لا يمكن ان أعرفـه إلا بعد دراسة مـدة طويلة .

وتحرك نبيل من مقعده متجهاً إلى زوجته التي أقبلت حينذاك تحمل في يديها صينية الشاي ، ونهض اسماعيل يرد عليها تحيتها بينما أزاحت سلوى مقعدها تفسح مكاناً لأمها بجوارها .

وتحدّث نبيل موجهاً الحديث إلى زوجته :

– لقد تحول حديث العمل إلى ندوة كلامية وضاع الوقت في النقاش (ثم ملتفتاً إلى اسماعيل) :

– هيا بنا إلى العمل .

وكأنما خشي اسماعيل أن ينفض المجلس بغتة ويخلو من هذه النفحة الندية التي واتته على غير انتظار ، فتضيع منه فرصة التملي من النظر في وجه المخلوقة الصغيرة التي أمامه . فقد كان خلال النقاش الدائر يتجه بكل انتباهه إلى سلوى ويرقب كل حركة منها .. لقد أعجب بها حقاً وان لم يكن يعرف سرّ الاعجاب ودوافعه .

وقبل أن يعترض على الاقتراح استطرد نبيل قائلاً :

– هل لديك مانع في اشتراكهما معنا في الجلسة فقط لا في النقاش ؟

فردّ عليه مبتهجاً :

– نحن في حاجة إلى النظريات حاجتنا إلى التجارب ، فنستعين بكلتيهما ما دمنا في أول الطريق .

وابتهج عندما لاح له أثر هذه التحية في وجه سلوى ، ابتسامة عريضة وغبطة شملت محياها الباسم بالحبور والابتهاج

فاستطرد متشجعاً وهو يوجه الحديث اليها مباشرة :
– ما رأيكِ ؟
قالت وقد اكتسى وجهها بحمرة وردية :
– فضلٌ أرجو أن أستحقه وأوفيه حقه . وأخشى أن لا أستطيع . إني على كل حال أفخر بهذا التقدير .
واستطردت بعد أن زحمت بالمقعد قليلاً إلى الوراء :
– سوى أن أكون مستمعة فقط ، فما أبعد مجال حديثكم عن ثقافتي ، أنتم رجال أعمال ، أما أنا ...
فقاطعها اسماعيل قائلاً :
– أنا لم أصبح بعد من رجال الاعمال ، وحكمكِ لا يسري عليّ في حالتي الحاضرة .
وكان يبدو في الافق المتدمن خلفها وهي تستدبر الفناء متجهة إلى اسماعيل ، قطع من سحب متناثرة بطيئة الحركة تشكل منظراً خلفياً للوحة مرسومة بعناية فائقة ، وقد توسط وجهها الاشقر المتوج بالشعر الذهبي اطار الصورة ، فبدا المنظر خلاباً في شاعرية لا يعوزها سوى خرير جدول رقراق . بيد أن زغردة العصافير وهي تبحث عن أوكارها قبل حلول الظلام وتنقّلها السريع وخفقات أجنحتها قد أضفت على المنظر فتنة للحواس يشترك فيها السمع مع البصر . فما كان من اسماعيل إلا أن أزاح مقعده إلى الوراء كأنما يتملى المنظر عن بعد ، مثلماً تطالعك الصورة الزيتية فتبتعد عنها كي تحتفظ بهذه الحركة بنسبة البعد عن المنظر ،

فيبدو طبيعياً لا يحتاج إلى خيال لتتمثله على حقيقته .

وهكذا كان ، فقد بدا وجه سلوى وكأنه يطلّ من بين السحب المتناثرة في عرض الافق . وغضّ اسماعيل من بصره كأنما يجرب تحت مختبر ذاكرته مدى انطباع الصورة في مخيلته بعد أن وضحت أمامه الآن ، أو كأنما يختبر قدرته على استعادة هذه الصورة بظلالها وأضوائها وأنغامها . وطال صمته في جلال الموقف وجماله وفتنته ، واستطاع بعد برهة أن يسمع صوت نبيل كأنما هو قادم من بعيد ، من وراء السحب ، أو من وراء الأفق :

– لنبدأ اذن (ثم وجه حديثه إلى اسماعيل) : ان خطوتنا الاولى تتمثل في توزيع العمل . كم راتبك الذي تتقاضاه الآن في الوظيفة ؟

قال اسماعيل يجيبه بعد أن انتزع نفسه من سباته البعيد :

– أربعمائة ريال .

سوف يكون راتبك ستمائة ريال ، تتقاضى منها اربعمائة كل شهر ويضم الباقي وهو مائتا ريال على رأس المال ، قيمة اسهم تكتب باسمك ولك بعد هذا نسبة الثلث في الارباح ، تضم كذلك على رأس المال إلى ان يصل رأس المال مناصفة بيننا فيرتفع نصيبك في الارباح إلى النصف ويحق لك حينذاك التصرف في أرباحك .

قال اسماعيل وقد اختلطت أمامه النسب المتفاوتة :

– إني أسأل قبل أن نبدأ ، كم هو رأس المال ، وما هو العمل الذي سنبدؤه ...؟

فردّ نبيل :

– سوف يأتي التفصيل وستعرف كل شيء .

ولكن اسماعيل استدرك يوضح الامر :

– إني أفكر في المساهمة المادية ، عندما أدبر أمري في بيت قديم أملكه وفي استطاعتي أن أبيعه بعد شهر أو شهرين .

فقال نبيل :

– إن رأس المال الذي أملكه الآن ثلاثون الف ريال ، وأعتقد انه مبلغ كاف بالنسبة لخطوتنا الأولى . أما العمل الذي سنبدؤه فهو الآتي : وقام من مكانه ماداً يده إلى اسماعيل وهو يقول : « تعال معي » .

واتجه به إلى خارج المنزل ، وعندما حاذى الفنـــاء المجاور لمنزله وكان فناء يحيط به جدار لا يتعدى ارتفاعه متراً واحداً عن سطح الارض ، أشار إلى داخل الفناء قائلاً :

– انظر ..

ونظر اسماعيل إلى حيث أشار له الرجل ، فرأى بعض هياكل سيارات قديمـة ومحطمة وقد لحتمها الصدأ وحال لونها وخلت من كل أثر للانتفاع بها . واستطرد الرجل :

– هذا هو عملنا ، مئات السيارات القديمة المحطمة

والتي مضى عليها عشر سنوات أو أكثر ، نستطيـع أن نجمع الآلاف من هذا النوع ونصدره للخارج « خردة » ونتقاضى مقابل ذلك آلاف الريالات . لقد ابتعت هذه الهياكل العشرة بخمسمائة ريال ، هل تصدق ؟ ان أصحابها — ان كان لها أصحاب — يودون لو استطاعوا التخلص منها ، فهي تشغل لهم أماكن هم في حاجة اليها ، فكيف بهم إذا وجدوا من يبتاعها منهم ؟ أنا الآن موظف في محل تجاري وأتقاضى منه راتباً يوازي ثلاثة أمثال راتبك الذي ستتقاضاه مقابل عملك معي ، وسأستمر في عملي طبعاً وسأكون شريكاً لك في هذا العمل بالرأي والتوجيه والمال . وأنت تساهم فيه بالمال ان استطعت وبالعمـل والبحث وتحمل المسؤولية . هذا هو العمل شرحته لك ، فهل قبلت ؟

ثم استدرك مواصلاً حديثه : على ان عملنا سـوف يتطور وسوف لا يقتصر على اتجاه واحد فيه . سوف أقوم بدراسة مشاريع أخرى تأتي في الاهمية بعد هذا المشروع ، وسأحتاج في دراستها إلى وقت أقضيه في الاستقصاء . تأكد يا سيد اسماعيل اننا سنبدأ بداية طيبة ، فقد درست هذا المشروع الذي حدثتك عنه وأنا واثق الآن من نجاحنـا وربحنا المحقق فيه .

إننا في خلال الفترة التي سنبدأ فيها العمل ، سوف نقوم بدراسة غيره من المشاريع . سأتفرغ للعمل معك

بعد ان نكون قد خطونا إلى الامام ، وسأترك عملي الوظيفي كما تركته أنت . أخبرني أولاً هل أنت على استعداد للحركة الدائمة المستمرة والتنقل من مكان إلى آخر دون توان أو كسل ؟ ام انك من عشاق المقاعد الوثيرة والراحة بعد الظهر ساعة أو ساعتين والعودة إلى المنزل في مواعيد محددة . اني اقول لك منذ الآن ان عملنا ليس له وقت محدد ، وهو لا يتفق في تنظيمه مع المواعيد التي تعارف عليها الناس . سوف يتغير لون وجهك وستجد نفسك مضطراً إلى اصطلاء حرارة الشمس دون أن تتناول غداءك أو تأخذ قسطك من الراحة ، كما ستجد نفسك مضطراً إلى السهر لانجاز عمل لا يحتمل التأخير . (ثم انتظر لحظة التفت بعدها إلى اسماعيل قائلاً) : هه ماذا قلت ؟

فردّ اسماعيل في تحمس :

— لقد سبق ان قلت إني جئت للعمل معك وترك الوظيفة . لقد هجرت المقعد المريح إلى غير رجعة ، كما أعددت نفسي لاصطلاء حرارة الشمس المحرقة ، وهذه يدي (ومدّ يمناه قليلاً نحو نبيل) سوف أغوص بها في الاتربة والطين باحثاً عن المال . وارجو ان لا يكون المال سوى وسيلة فقط لهدف أسعى اليه .

وفرك نبيل كفيه وهو ينظر بامعان إلى اسماعيل متتبعاً امارات الصدق وسماته مرتسمة على وجهه ، ومصيخاً

سمعه إلى الحديث ، وقد بدت لهجة الصدق في نبراته التوكيدية واتسعت ابتسامته وهو يتساءل ضاحكاً :

— وسيلة لأي هدف ؟

وتريث اسماعيل قبل أن يجيب في لهجة رقيقة متأنية ، وقد اتجه بصره إلى عرض الافق :

— في حياة كل منا هدف ، وان احلامنا التي تعيش في كياننا منذ الصغر هي أهدافنا الاصيلة في الحياة .

فقاطعته سلوى وهي تعتدل في جلستها بعد ان كانت مستغرقة في الانصات :

— ولكن احلام الصبا أهون من أن تكون أهدافاً . ان أهدافنا تتجدد بتوالي الزمن ، وهي تبتعد كلما طال سيرنا في صحارى الزمن . انظر يا سيد اسماعيل : ان الآفاق المتجددة أمامك وأنت تسير في الصحراء الواسعة هي الصورة الحقيقية للحياة ، كلما طويت أفقاً تجدد أفق آخر أمامك وتجد نفسك المتلهفة تدفعك دفعاً إلى الامام ، إلى اللانهاية . ان الاهداف في حقيقة الأمر ليس لها مدى محدود ، انها لا نهائية ممتدة بامتداد العمر . نحن في حياتنا نسير في صحراء واسعة بعيدة المدى ونشقى في استشراف النهاية . نحن نطلب المستحيل إذا قلنا اننا سنحقق أهدافنا في الحياة .

وضحك نبيل قبل أن يعلق على حديث سلوى :

— لقد انتقلنا الآن من جوّ العمل إلى آفاق الفلسفة .

بيد ان اسماعيل مع تتبعه لحديث سلوى وتفرغه الكامل للانصات اليها ، احس بأنه ضائع ليس في فهم حديثها واستيعابه فقط ، وانما لتزعزع ثقته في الحقائق التي أصغى اليها . إنه يسمعها لأول مرة ، ولكن ما أسرع ان اقتلعت الحقيقة التي كان يؤمن بها . لقد أحس لأول وهلة بأنه تلميذ أمام أستاذه يتلقى منه أسرار الحياة . قبل قليل خشع أمام جمال المنظر وفتنته ، وهو الآن يخشع مرة أخرى أمام جلال الموقف وهيبته . ومع ذلك ما أصعب أن يعيد النظر في أهدافه ، هل هو الضياع الذي سيواجهه في حياته ؟ وإذا كانت حياتنا سوف تمضي نحو أهداف متجددة طويلة المدى ، فانما يعني ذلك اننا سنسير إلى اللانهاية ، وهل الشقاء غير ذلك ؟

وانتشلته من صمته متسائلة :

— هه ، ماذا قلت ؟

— لم أقل شيئاً (وردد في سرّه : ولا أستطيع أن أقول) .

حقاً إنه لا يستطيع أن يقول شيئاً ، ما أبعد آفاقها الواسعة عن أفقه الضيق ، أيهما أجدى : حياة العقل ، أم حياة الحسّ والمادة ؟ انه حائر ، بل قلق . ترى لو كانت ثقافته أرفع مما هي عليه ، هل يتغير مجرى حياته أم ان ذلك لا يؤثر في الموقف ؟ هناك جهلة يستطيع ان يعين أشخاصهم قد حققوا أهدافهم في الحياة ، وهناك

مثقفون يعرفهم قد فشلوا في تحقيق شيء من أهدافهم ، لماذا ؟
ورفع بصره اليها قائلاً :
— ذو العقل يشقى .
فقاطعته :
— أنا لم أقصد قطعاً شقاء الروح ، وإنما أقصد ان التطلع الدائم إلى اللانهاية يورث الساعي شقاء الكـد المتواصل ، وهناك حياة أخرى غير حياة الحس وحياة العقل ، تلك هي حياة الروح ، والاطمئنان النفسي هو سر السعادة . إن السعادة التي تشقى نفوسنا من أجل الوصول اليها ، إنما تعيش في باطننا ، ونحن نتوهم دائماً انها بعيدة المنال ، بعيدة عن متناول أيدينا ، لذلك يظل شقاؤنا يلازمنا ما دام هذا الوهم متأصلاً في نفوسنا ، انها في حقيقة الحال تحت أيدينا بل هي أقرب .. انها هنا ... (وأشارت إلى قلبها) .
وضحك أبوها بصوت عال ، بينما ازداد اسماعيل استغراقاً في الصمت . ثم نظر إلى ساعته وتحرك من مكانه مستأذناً في الخروج ، وقاموا جميعاً يودعونه فسلّم عليهم وهو ما زال دائراً في دوامة التفكير وجاءه صوت نبيل وهو يقول :
— موعدنا بعد غد صباحاً ، سوف أنتظرك هنا .
فأومأ اليه اسماعيل بالموافقة ، واتخذ طريقه إلى باب الفناء .

١٣

ـ لقد سأل عنك العم محمد كثيراً .

والتفت اسماعيل إلى أمه متسائلاً :

ـ وماذا قلتم له ؟

ـ لقد أخبرناه بأنك انتقلت إلى جدة في عمل جديد (وبعد فترة صمت استطردت) لقد قال لاخيك بأنك لو بقيت في الوظيفة لأصبحت خلال هذه الشهور السبعة شيئاً آخر .

« شيء آخر ، هو الآن ذلك الشيء الآخر ، ولو بقي في وظيفته لاستمر الشيء القديم » .

وضحك دون أن يرد على أمه التي استطردت :

ـ لقد سمع ذلك من بعض زملائك السابقين في الوزارة . شخص اسمه عبد الحميد .

والتفتت إلى منصور في شبه تساؤل فقال هذا :

– سمين (ورفع منكبيه يصور سمنته) لقد رأيته يتردد على العم محمد ويتحدث عنك كثيراً .

وهزّ اسماعيل رأسه كأنما يقول : (لقد عرفته) .

واستطرد منصور :

– كمال سأل عنك كذلك ، وكل زملائك في المدرسة.

وابتسم اسماعيل وهو يقول :

– ما شاء الله ، ولم هذا الاهتمام ؟ لقد كثر المتسائلون .

قالت أمه :

– لقد تعودوا على رؤيتك بين فينة وأخرى ، ومنذ سبعة أشهر لم يرك واحد منهم ، انه غياب يستحق السؤال .

وأزاح الغترة من فوق رأسه وأسرعت أمه تتناولها منه وتسأله :

– هل جعت ؟

فأومأ اليها أن تنتظر ، بينما صاح منصور :

– لقد جعت .

فالتفتت اليه بغتة في نظرة طويلة . ثم عادت إلى اسماعيل وجلست في مواجهته كأنما تشبع نظرها منه ، ولبثت صامتة وهي تتفرس في وجهه ثم قالت بصوت خفيض :

– من الجمعة إلى الجمعة ، وبضع ساعات فقط .

وابتسم لها ابتسامة تشي بسعادته واطمئنانه ، وبدا كأنما يطل من طرف لسانه حديث يود ان يفضي به في هـذه اللحظة التي تبدو فيها أمه مبتهجة بلقائه الاسبوعي .

هو الآخر مبتهج وسعيد ، فقد بدأ يحس بالنجاح الذي انتظره ، ليس كل النجاح وإنما بدايته ، بداية الطريق الذي اختاره . منذ سبعة شهور ، يوم أن ترك وظيفته واتجه إلى جدة يغامر بحاضره ومستقبله ، وها هو ذا الآن يقف على أرض صلبة وقد وضحت أمامه الطريق . لقد كافح حقاً خلال هذه الفترة الماضية وكان يلوح أمامه على مدى البصر طيف نجاح ورؤى تغريه بأن يواصل التقدم ويستمر في الكفاح .

وأمه التي تنتظر ، ترقبه عن كثب وتبارك خطواته في صمت ، لم تسأله في يوم من الايام : ما هي النتيجة وما هو الهدف . لقد أحست بكفاحه خلال الفترة الماضية ، الكفاح الذي بدت آثاره واضحة ، سمرة على صفحة وجهه ، وتفكير في بعض الاحيان وشرود في أكثر الاحيان . ولم تسأله يوماً : أين وصلت ، ماذا قطعت من الطريق ، ما الباقي منها ؟ لقد كانت تنتظر ومـا زالت تنتظر ، كلمة تطمئنها ، وتبث في نفسها الثقة فيما هو بسبيله . وهـذا الصمت الذي تواجهه به وهذا التفرس في وجهه ، إنما يعبران عن انتظارها لهذه الكلمة .

قال يطمئنها :

– بضعة أشهر أخرى وسنجتمع ، سنعيش سوية ونعيد أيامنا السالفة .

فتساءلت أمه :

– ستعود الينا وتترك العمل ؟

فنظر اليها مذعوراً وهو يقول :

– كلا وانما تنتقلون معي إلى جدة .

– والمدرسة ؟

قالها منصور في ذعر .

فردّ عليه :

– سوف تواصل دراستك وستكون أسعد حظاً مني .

« وكاد ان يحدد ما يقصده ، ولكنه أمسك . فقد بدت له سعادته التي بدأ يستشعرها منذ ان بدأ عمله ، السعادة التي لا تدانيها سعادة ، لئن توقع لأخيه أن يكون أسعد حظاً منه ، ففي مواصلة الدراسة ، الرغبة الاولى التي كانت تلح عليه وفات عليه ان يحققها لنفسه فتطايرت وتبعثرت تحت ضغط الرغبات الأخرى التي وفدت عليه وزحمت في كيانه الرغبة الأولى . ومع ذلك فهو يستشعر السعادة في أشياء أخرى ، أنسته أهدافاً في الحياة كان واثقاً بأنها الأهداف الحقيقية لسعيه وكدّه ، هو الآن يسير إلى اللانهاية التي أشارت اليها سلوى .

ما أشدّ عجبه ، كأنما كان مستقبله صفحة مفتوحة أمامها حينما تحدثت « ان أهدافنا تتجدد بتوالي الزمن وسيره

وتعظم الاهداف وتبعد كلما طال سيرنا في صحارى الزمن » .

فهل كانت تتحدث عنه وعن أهدافه ، إذن ما أسرع ما تحقق حدسها ، لقد طوى فعلاً آمال الطفولة وأحلام الفتوة الباكرة ، وجدّت أهداف منذ ذلك اليوم ، منذ أن سمع حديثها الاول ، ومن يدري ما هي الاهداف الوافدة ؟..

وصعّد زفرة كأنما هي الخوف من تجدد آمال أخرى ، واذن فسيطول به السير إلى اللانهاية ، نحو المستحيل .

وعاد يستذكر ذلك المساء الندي العاطر ، يوم أن رأى سلوى وجلس اليها وتحدثت اليه ذلك الحديث الذي يعتبره نقطة تحول في أهدافه . لقد كان حديثها ، لا بل كانت هي ذاتها إحدى دعائم الموافقة ، لقد كانت وهي متجهة اليه حيثية أولى في قضية البحث ، منذ أن لمحها وافق على العمل ، ومنذ أن جلس اليها أحس كأنما اقتلعت يدها بقايا آمال ساذجة وأهداف فجة ، منذ تلك اللحظة توقع نجاحه في عمله الجديد .

لقد ولدت آماله الحقة في تلك اللحظة السعيدة .

لا بل ولد هو في مطلع ذلك المساء الذي ظلله الشفق ، وأطلت فيه السحب على بعد في عرض الأفق الممتد أمامه .

لقد كان مساء لا تعوزه الصور الخلابة ولا الانغام الشجية ، فقد عزفت له العصافير ساعة ولد لحناً مطرباً

شجياً ، فلم يبكِ كما يبكي غيره عندما يصافح نور الحياة عينيه ، وإنما تاه في جمال المنظر وسحر النغم ، مـا أسعدها لحظة ، وما أبهج ان نولد هكذا ، نستقبل الدنيـا بفرحة ، وتستقبلنا بنغمة ، الشفق على مدارج الافـق ، وقطع السحاب سابحة في متاهاته ، وصورة الجميلة الشقراء بشعرها الذهبي تتوسط هذا الاطار ، يزفها إلى الوليد نغم علوي ساحر ينساب في رفق ولين .

وصافح سمعه صوت أمه وهي تقول :

– حظكما معاً ، لقد قمت على تربيتكما ولا أتمنى لأحدكما ان يكون أسوأ حظـاً من الآخر .

فردّ عليها وهو ينتزع نفسه من شرودها :

– لقد قلت سيكون أسعد حظـاً مني ، ولم أقل اني سأكون اسوأ حظـاً منه .

قالت أمه في ضيق :

– أنا لا أفهم هذا الكلام .

وتحركت في مكانها متجهة إلى المطبخ وتحرك فـي رأسها وهي تغادر المجلس ذلك السؤال التقليدي : أيهما تفضّل ؟

وبحركة من رأسها تطرد الحاح السؤال كأنما تقول : هما عينان في رأس ، لأحدهما ما للآخر من حب ، والظروف ذاتها تؤكد المساواة المطلوبة في هذا الامر . لقد بعد عنها اسماعيل فترة امتدت الآن إلى سبعة شهور لم تكن

تراه فيها إلا بضع ساعات كل أسبوع ، بيد أن قلبها معه في غيابه ، ولم يبق معها سوى منصور ، لقد لبث بجوارها ، فأصبح بمرور الزمن قطعة من حياتها لا تطيق بعده ، هو سلواها في هذه الوحدة ، ومع ذلك ما الذي يأتي به المستقبل ؟ انها لا تدري ...

لم تكن تتوقع في يوم ما ان تصبر على فراق اسماعيل ، ومع ذلك فقد صبرت ، واكتفت بالساعات القصيرة العابرة في نهاية كل اسبوع تتزود منه بالنظرة واللمحة والحديث القصير ، ذلك زادها وقوتها طوال أيام الاسبوع .

وعادت بالاكل تحمله في أطباقه ، وجلست بينهما كأنما تحتفظ لنفسها بمركز الحبّ توزعه بين الاثنين :

قال اسماعيل بعد أن استقرت أمه ، وقبل ان ترفع اللقمة الاولى إلى فيها :

— سوف أبعثه إلى مدرسة داخلية في مصر أو في بيروت .

وحملقت في وجه اسماعيل مشدوهة وهي تتساءل :

— من تعني ؟

وابتسمت ابتسامة حزينة ، مصدقة مكذبة .

بينما استطرد هو قائلاً :

— سوف تنتقلين معي إلى جدة ، وسأبعث منصور إلى الخارج للدراسة .

وازداد ارتيابها في صدق ما يقول ، وربما ودت من صميم قلبها ان لا يكون . بيد انها تراجعت بغتة ، وهي تناقش الامر في سرّها ، تلك رغبة من رغباتها الاصيلة في الحياة ، أن يواصل ابناها التعليم ، لئن فاتها تحقيق تلك الرغبة في ابنها الاكبر فلا أقل من أن يتحقق الحلم في ابنها الأصغر ، ذلك حلم بعيد كان يلوح لها في الليالي الطويلة التي كانت تقضيها على ماكينة الحياكة ، تحيك بالاجرة ، وتتقاضى ثمن صحتها ونور عينيها بضع ريالات تقيم أودها وأود ولديها .

لقد كانت سلسلة أحلام لا تنتهي ، البيت الكبير ، والمال الوفير . ما أكثر ما تمثلت البيت السعيد الذي يجمع شملهم على سعة ، وما أكثر ما حلمت بالمال يتدفق عليهم دون حساب .

في تلك الليالي التي كانت تسهر فيها قائمة على عملها المتواصل المستمر ، كان اسماعيل لم يزل صغيراً وكان منصور أصغر منه ، يمثلان في حياتها أمل مستقبلها الباسم .

ما أسرع ما يمرّ الزمن ، وما أعجب ما يحمل في مروره من مفاجآت . لقد ترك اسماعيل المدرسة وانتقل خلال عام واحد من عمل إلى عمل ، تستشعر نجاحه فيه، ان لم يكن محسوساً فقد كاد ان يكون .

وتساءلت تخاطب اسماعيل :

— ومن سينفق عليه ؟

– على نفقتي طبعاً ، لقد وصلت قيمة أسهمي في هذه الشركة إلى خمسة عشر الف ريال ، اثر عمليات وصفقات متتالية خلال الاشهر السبعة الماضية ، وسيتضاعف نصيبي في الاشهر القليلة التالية ، لقد ابتعت قطعة أرض خلال هذا الاسبوع ، وأمامنا الآن بضعة مشروعات ستضاعف رصيدي إذا تمّ نجاحنا فيها .

قالت مشدوهة :

– أنا لا أصدق ، كل ذلك من لا شيء ؟ أخشى أن تكون مخدوعاً ؟

ورفع بصره اليها يستوضح ما تعنيه بينما استطردت :

– وهل قبضت في يدك هذه المكاسب ؟

قال يطمئنها في لهجة توكيدية :

– نعم ، إنها ملكي ، وتحت تصرفي ، وقد سجلت باسمي .

بيد أنها تساءلت في تشكك :

– إذا كان صاحبك قد عرف طريقه إلى المكاسب ، فلماذا لم يقم بالعمل منفرداً ؟

وردّ عليها ووشي السرور لمجرى الحديث يبدو على سمات وجهه :

– لا يستطيع ، يجب أن يكون شريكاً لشخص من أهل البلد ، لقد كان ذلك من حسن حظي . ولا تنسي على كل حال جهدي الذي بذلته ، لقد وقفت تحت الشمس

المحرقة أياماً طويلة ، وهذه يدي ما أكثر ما عاونت بها العمال أشاركهم انجاز عمل عاجل .

فقاطعته قائلة وقد سرى في كيانها إحساس بالسعادة :

— لقد اشتدت سمرة وجهك ، وخشنت يدك ، ولا أدري هل يعتبر ذلك من مستلزمات النجاح (ثم بعد ان صعّدت زفرة من صدرها وهي تنظر إلى اسماعيل ، زفرة لا تشي بضيق ، ولا تومي إلى ضجر ، استطردت) :

— غداً تحكي لأولادك ما مرّ بك في حياتك ، لقد دخلت معترك الحياة قبل الأوان (ثم وهي تبتسم) ولا تنس دور أمك في هذه القصة .

وقاطعها منصور قائلاً :

— ودوري أنا .

فردّ اسماعيل يوجه الحديث اليهما :

— تبدأ القصة بثلاث شخصيات ، ثلاثة أبطال يجاهدون ويكافحون ، ولكن ما ختام القصة ؟ هل يقدر لي أن أرويها ؟ ولمن ؟

وسارعت أمه تجيبه :

— لأولادك طبعاً .

ورانت على وجهه سحابة حزن ، بيد انه ابتسم وهو يقول :

— سوف أكتبها ليقرأها الناس .

وتساءلت أمه في ذعر :

— بأسمائنا ؟

فقال ضاحكاً :

— سوف أغيّر الاسماء .

ولكنها عادت تتساءل :

— وما الداعي إلى كتابة قصتنا ؟

وتدخل منصور متسائلاً بغتة :

— وهل سأبقى بعيداً عنكما إلى الابد ؟

والتفتت اليه أمه متسائلة بدورها عما يعنيه فاستطرد :

— عندما أسافر للدراسة .

فأجابه اسماعيل :

— بل ستقضي اجازتك بيننا أو نقضيها معك . من يدري ؟ لنترك تدبير هذه الامور إلى أن يحين أوانها . قل لي ما هي أخبار العم محمد ، وما هي أخبار كمال ؟

واستعاد منصور هدوءه الذي زايله قبل قليل ، ثم ردّ في تأن :

أما العم محمد فأحاديثه لم تتغير ، ولم تتغير طريقته في السرد ، انه يكرر دائماً ما سبق ان قاله ويعيد ما سبق أن رواه . لقد بدأ الرجل يفقد ذاكرته ، وقد تأخرت صحته كثيراً ، انه يسعل ما بين كل كلمة وأخرى ومع ذلك فهو يصر دائماً على اكمال حديثه المكرر .

فقاطعته أمه قائلة :

— اكمل أكلك أولاً ، لقد انتهينا نحن .

فرفع يديه قائلاً :

— لقد انتهيت قبلكم (ثم التفت إلى أخيه يصل ما انقطع من حديث) اما كمال فهو دائم السؤال عنك وعن أحوالك . ولقد حدثته عنك بما أعرفه عن عملك (ثم بلهجة مغايرة) وأنا لم أعرف بعد ماذا تعمل . لقد سألني ذات مرة ما هي وظيفة اسماعيل ؟ فنقلت له ما سمعت منك بأنك تقف تحت الشمس ساعات طويلة وان يدك قد خشنت من العمل .

وابتسم اسماعيل وهو يستمع من أخيه ما احتفظت به ذاكرته من حديثه مع أمه في يوم من الايام .

وتساءل في سرور :

— ماذا كان تعليقه ؟

— لم يتكلم ولم يعلق على ذلك بشيء ، وانما مطّ شفتيه وانصرف .

— وماذا فهمت ؟

وضرب منصور كفاً بكف قبل أن يقول :

— ماذا فهمت ؟ لم أفهم شيئاً ، ويبدو انه لم يعرف إلى الآن ماذا تعمل ، مثلي أنا تماماً . قل لي ما هو عملك لأتمكن من الاجابة على أسئلة أصحابك .

وبسط اسماعيل كفيه أمام عيني أخيه وقال مبتسماً :

— انظر . لقد خشنت يدي ، ولكنها ستعود كما كانت ، غير اني لست حريصاً على ذلك ، لقد غرست

يدي في التراب أبحث عن المال ، وقد عرفت الطريق اليه.
وقاطعته أمه وهي عائدة من المطبخ قائلة :
ـ وأنا لم أعرف بعد ما هو عملك الحقيقي ، كيف غرست يدك في التراب تبحث عن المال ، وكيف ارتفع رأسمالك إلى خمسة عشر الف ريال ، هل عثرت وصاحبك على كنز مدفون في التراب ؟
فضحك وهو يقول :
ـ بين الخرائب .
وضربت عزيزة على صدرها وهي تقول :
ـ هل صحيح ؟ والجن ؟ هل ظهروا لكم ؟ ان لكل كنز حارساً من الجن ، قل لي ماذا فعلت معهم ؟
واقتربت منه وهي مشدوهة وتردد بصوت خفيض ملجلج :
ـ لا ، لا ، اترك هذا العمل ، ولكن صف لي كيف عثرتم على هذا الكنز ، وكيف عرف صاحبك مكانه ، وهو ليس من أهل البلد .
قال وما زالت رنة الجدّ تلون لهجته :
ـ لقد رآه أهل البلد ، كثير منهم رأى هذه الكنوز ، ولم يدركوا انها كنوز ، وانها تخفي الذهب في باطنها .
وابتسمت أمه وان ارتبكت من مجرى الحديث وقالت :
ـ نجمه كشاف ، سبحانه ، لقد كان جدّي كذلك ،



قال وما زالت رنة الجـد تلون لهجته

وكثيراً ما ظهر له « بسم الله الرحمن الرحيم » (ونفخت في اتجاه ولديها قبل ان تواصل) لقد أبدوا له استعدادهم لفتح كنز كان في بيته ولكنه رفض طلباتهم فرفض الحارس فتح الكنز ، لقد كان جدي يرى الكنز كل ليلة ، ومع ذلك (ومصمصت بشفتيها) فقد رفض ان يشرك بربه في سبيل مال زائل .

فردّ عليها اسماعيل :

— لقد فتحوا الكنز لحفيده ، من غير ان يشرك بربه .

فقالت في اطمئنان :

— ربما تغيروا .

فقاطعها :

— ونحن قد تغيرنا . وتغيرت الكنوز كذلك .

وتساءلت وهي تقترب منه :

— ماذا تقصد ؟

فقال :

— لقد كان الكنز الاول الذي عثرنا عليه حديداً بين الخرائب ، وأكواماً مرتفعة من الخردة ، بقايا السيارات القديمة المستهلكة ، هذا هو الكنز الذي عثرنا عليه ، لقد كان نجم صاحبي كشافاً حين أشار إلى هذه الكنوز المبعثرة ، فابتعناها بتراب الفلوس وكسبنا فيهـا عشرات الألوف .

وتخاذلت قواها كأنما فات ان تستمع إلى حديث كانت

تود ان لا يفوتها الاستماع اليه ، بيد انها اطمأنت إلى مصير ابنها فقالت مبتسمة :

– لقد خشيت عليك من حراس الكنوز ، ولكن كنوزكم من حديد .

فقاطعها :

– وليس عليها حراس ، وأمامنا كنوز أخرى ، سوف نعثر عليها باستمرار ، انها امام أعيننا تغرينا ببريقها ولا يتطلب الوصول اليها سوى التفكير ، ثم العمل .

وازداد اطمئنانها قبل أن تتساءل :

– وما هي الكنوز الأخرى ؟

قال :

– سوف نعمل في مقاولات البناء ، هذا كنز آخر لا ينفد ، إني مطمئن إلى نجاحنا فيه .

فقاطعه منصور متسائلاً :

– لم أفهم بعد ما هو عملك ؟

والتفتت اليه أمه تطمئنه :

– سوف تفهم مني فيما بعد (ثم استدارت إلى اسماعيل) ولكن قل لي كيف صاحبك ؟ هل هو أمين ومخلص ؟

فقال متعجلاً وفي لهجة توكيد :

– جداً ، انه مخلص لعمله . أما الامانة فأنا المسؤول عنها ، ان الدخل في يدي ، وأنا القائم على الاعمال ، أصرفها وأنظم الحسابات ، أما دور شريكي فهو الاشراف

والمشورة والتخطيط .

فقالت :

– إذن فأنت مرتاح إلى العمل معه ؟

فقال :

– لاسباب كثيرة !

ولم تسأل هي عن هذه الاسباب . أما هو فقد شرد ، سلوى وأحاديثها الطلية ، ابتسامتها المشرقة والوجه الجميل المتوج باسلاك الذهب ، تلك الجلسات الجميلة على ضوء الشفق في مطلع كل مساء ، ان حياته أصبحت مرتبطة بهذه الاشياء .

ولو سئل : ما حياتك الحاضرة ؟ ما بعدت عن ان تكون (العمل ، وابتسامتها وأمل عريض في أفق الحياة ، يبشر بمولد يوم جديد في حياته)

وابتسم وهو يتمثل وجهها ، وتحرك من مكانه مستأذناً وحمل حقيبته بيمناه واقترب من أمه وقبلها على خديها ، بينما اقترب منه منصور فقبله وغادر المنزل .

١٤

في مطلع الخريف ، كان المساء كأي مساء سابق ، نسمات الشمال المنعشة تهب بين الفينة والفينة ، فتهتز رؤوس الاشجار اهتزازات هينة وينتشر في الجو صدى ضئيل لهذه الحركات ، وفي الافق الغربي بقايا شفق زائل، والصمت يظلل الشارع الرئيسي في حي البغدادية ، فلا تكاد تسمع صوتاً غير اصوات السيارات التي تقطع هذا الشارع في خروجها من المدينة او عودتها اليها ، وكانت اضواء السيارات تحيل الاشجار من اشباح صامتة في الظلام الى كائنات حية تتطلع الى الحركة وتستجيب لهبات النسيم .

كل ما في الجو يوحي بالتأمل ، الصمت ونسمات الهواء، وصدى خطوات المارين في هذا الشارع على قلتهم كأشباح تهيم في الهواء تتبينها تحت اضواء المنازل المتناثرة على الرصيف الطويل ويزايلها الوضوح اذا ما عبرت طريقها نحو الظلام.



في مطلع الخريف ، كان المساء كأي مساء سابق ،
نسمات الشمال المنعشة تهب بين الفينة والفينة

واسماعيل يقطع هذا الشارع كما يقطعه كل ليلـــة في مثل هذا الوقت ، المناظر ذاتها تتكرر امام بصره ، والاصوات ذاتها تتردد على سمعه،وهو متجه الى منزل (نبيل توفيق) الذي يقع في زقاق متفرع من هذا الشارع .

وربمـــا لاول مرة في هذه الفترة الطويلة بدأ يتحسس باطنه ، فـــلم يكن يشعر قبل هذه اللحظة بأي تغير في حياته ، وان كانت حياته قـــد تغيرت فعلاً ومنذ زمن ليس بالقصير . انه يسير في حياته بالعادة والتعود ، لقد أحس في مطلع هذه الفترة بأن تغيراً طرأ على حياته فغيّر معالمها وبدل كثيراً من مظاهرها الا انه سرعان ما عـــاد وألف هذه الحياة ، فلم يعد يحسّ بتطورها ، وسار فيها سيراً طبيعياً فقد معه الاحساس بالطفرة او التغيّر .

ولو انه عاد واستعرض عامه المنصرم لما وجـــد فيه ملامح ماضيه ، كل مظاهر حياته الجديدة تحمل في سماتها الجدّة والحداثة ومع ذلك فقد أصبحت في احساسه قديمـاً مكرراً يعوزه التغيير ، هو الملل او هو القلق او هما معاً، او هو التطلع الى المجهول من مستقبله .

لقد تعوّد خلال الشهور الماضية ان يتناول غداءه على عجل ليلحق بالعمال في بداية عملهم بعد ظهر كل يوم ، وألف الوقوف في الشمس ساعات وساعات دون ان يحس بلسعتها او حرارتها ، وتلك ظاهرة جديدة في حياته صحبت انتقاله الى العمل الحر ، ومع ذلك فقد أصبحت عادة لا

يحسّ لها بهجة التجديد .

وتعوّد كذلك ان يرى المكاسب المتتاليـــة حتى أصبح احساسه بالنجاح في اي عمـــل جديد لا يعدو أن يكون فرضاً متوقعاً ونتيجة حتمية .

وهواية القراءة ، هوايته الجديدة فقدت بمرور الايام بريقهـــا الخاطف ، لقد اصبحت هي الاخرى عادة من عاداته كأي عمـــل يومي لا يحمل له في تضاعيفه سوى نتائج يفترضها مقدماً .

وعاد يتحسس باطنه ويفكر في سلوى وقد قرب من منزلها ، وتساءل عن احساسه الحقيقي نحوها ، لقد كانت الكائن الوحيد الذي يحسّ بجدته في حياته ، بل كان في الحقيقة احساساً متجدداً يتكشف له كل يـوم عن جانب مشرق يخلب لبه ، ومع ذلك فقد وقف موقفاً سلبياً من هـــذا الاحساس ، بل لم يعن قبل اليوم بأن يسائل نفسه عن حقيقة شعوره نحوها .

لقد اخذ أول يوم بجمالها المتألق ، وربما كانت صحوة الجو وظمأ في اعماقه سبباً في ان يتجه اليها بكل مـــا في وجدانه من تطلع الى الجديـــد الذي رآه فيها ، بيد انه اكتشف بمرور الايام جوانب أخرى جذبتـــه الى سلوى فانجذب دون وعي ، وراح يفكر فيهـــا وان لم يفكر في هذا الحدث الجديد الذي طرأ على احساسه .

لقد عرفها في مثل هذه الايام من عـــام مضى ، في

مطلع الخريف وفي مثل هذا الجو من العام الماضي ،وأخرج المفكرة من جيبه ليحدد التاريخ باليوم ، وكم كانت دهشته حينما اكتشف انه قد رآها وتعرف عليها في مثل هذا اليوم بل وفي مثل هذه الساعة . وبدت أمامه ذكرى تلك الامسية حينما جلست امامه واتجهت بوجهها اليه وقد اطلعت قطع السحاب من ورائهـــا تسبح في عرض الافق المكلل بلون الشفق .

منظر سحري يخلب لبـه كلما ذكره ، وكلما تباعدت الايام بدت الصورة في ذهنه اروع وأشد بريقاً كأنمـــا تستمد روعتها من مرور الايام .

وعـــاد يتساءل وقد قربت خطواته من المنزل ، عن حقيقة احساسه نحو سلوى ...

انه سؤال جديد لاح له في عنف يطرق عليه وحدته وهو يقصد منزلها .

ان المفكرة تشير الى مضيّ عام كامل على تعرفه بها ، ولم يسبق له طوال هذا العام ان سأل نفسه هذا السؤال . انه لم يلتفت يوماً الى الوراء ، بل ولم يتوقف لحظة يعيد النظر في أمر نفسه ، في هذا الجانب المهم من حياته .

في هذا اليوم فقط ، وفي هـــذه الساعة بالذات بدأ يتساءل . فهل بلغ احساسه بهـــا القمة التي لا تحتاج الى التسويف في التفكير ؟

ما أعجب ذلك . بمرور عام كامل يبدأ يحاسب نفسه

ويسائلها :

ما حقيقة سلوى في حياتي ؟

واستعرض في هذه الخطوات القليلة التي تقوده نحو منزلها ، كل تاريخه معها ، تاريخ عام كامل من الاحداث الصغيرة والاحاديث العابرة التي لم يعن بمناقشتها أولاً بأول . كأنما كان يعيش ليومه فقط ، كأي عامل صغير يعيش على اجر يومه لا يفكر في مستقبله ولا يفكر في ماضيه . الحاضر وحده هو كل دنياه .

وكمن يواجه الموت في لحظاته الأخيرة، تبدو له حياته الماضية الحافلة نقطة واحدة يتركز بها كل الماضي، رؤوس الاحداث فقط ، والأحداث المهمة وحدها هي التي تبدو في هذه اللحظات . وعاد شهوراً الى الوراء وذكر حدثاً هاماً في تاريخه معها .

لقد قالت له يوماً بعد ان قصّ عليها قصة واقعية مرحة : انك تتحدث دائماً عن البهجة في حياة الآخرين، ولم تتحدث يوماً عن بهجة بدت لك في حياتك .

فردّ عليها بعد ان غاص في أعماق نفسه يبحث عن قصة مرحة في حياته : لم أجد بعد فرحة في حياتي . ان الماضي القريب الذي عشته وما زلت أعيشه انما يمثل بداية لقصة كفاح ، وستضم هذه القصة حتماً فصولاً مشرقة بالبهجة ، ولكن ربما يطول انتظاري لها ، اني الآن أتمثل نهاية القصة ، ولكني لم أتبين لمحة الاشراق التي يهفو اليها

قلبي بعد .

فردت عليه في جهد وقد بدا على سماتها ما يشي بحزنها:

– دع التفاؤل يصبغ احساسك بالبهجة والاشراق (ثم متسائلة) وماضيك البعيد ؟

قال :

– سلسلة من الآلام .

وأمسكت لحظتذاك عن الاستطراد في اسئلتها، واستطاعت ان تدير دفة الحديث نحو موضوع آخر .

لقد جرى ذلك الحديث في الشهور الاولى ،ومنذ ذلك اليوم شعر بزيادة اهتمامها به ، بيد انـه ثار في نفسه من ذلك ، انه لا يرضى لنفسه ان يكون موضع عطفها، وانما يطمح ان يكون موضع تقديرها .

ولم يستطع ان يصبر اكثر من ايام ، وعاد يقول لها دون مقدمات :

– أخشى ان يكون حديثي الذي حدثتك به قد جعلك تعطفين عليّ كأي انسان بائس أو شقي .

ورفعت بصرها اليه في تساؤل يومي الى نسيانها . وعندما ذكرها بالحديث ردت عليه تقول : انك حساس ، تحمل الكلمة فوق طاقتها . اني لم اعطف عليك وانمـــا حزنت لان ماضيك مثقل بالآلام ، مثلي تماماً ، لقد تخلصت انا من آلامي وارجو ان تتخلص مثلي من آلامك. ان الماضي يمثل العدم والموت ، اما المستقبل فهو الحياة والحقيقة التي

يجب ان نعيش من أجلها . وعاد يسائلهـا : وما سبب العطف الذي أحسست به في معاملتك لي .

فقالت في توكيد :

ليس هناك عطف ، انك واهم ، ان في اعماقي تقديراً لكل من واجه الآلام في ماضيه ، ويعظم تقديري له اذا نبذ تلك الآلام واطاح بها بعيداً عن طريقه .

وبعد ان تريثت برهة عادت تتساءل :

ولكن لم تحمل هذه الآلام على ظهرك وقد شققت طريقك ؟

وذكر بهذا السؤال صديقه كمال وأسرة كمال وكيف انهم رفضوا خطبته لابنتهم . لقد خلفت الاحداث آثاراً بارزة في اعماقه، هي الجروح التي اندملت بعد ان تركت ندوباً تشير وتذكر ، انها في اعماق الاعمـاق تخزه مع مرور الايام .

فردّ عليهـا وكأنما طفا على وجه الماء يرى الحقيقة لاول مرة :

– هذا ما يجب عليّ ان اعمله .

فقالت تشجعه :

– حاول وستنجح .

وحاول ان ينسى وأن ينسى وان يطرح الماضي بعيداً عن طريقه كما أوصته . ومرت الايام وكأنمـا نسي كل آلامه . واستقبل دنياه بالتفاؤل ، واتجه الى مستقبله بالبهجة

والابتسام .

وعاد يستقبل سلوى كما تستقبله بالايناس ، واصبحت في حياته تمثل طوق النجاة . ومع ذلك فلم يسأل نفسه في اي يوم مضى ، ما حقيقة شعوري نحوها ؟

وفي هـــذه الليلة كأنما استيقظ في نفسه كائن جديد يتساءل : لقد اكتشفت عاطفتها الحقيقية نحوك، فما عاطفتك نحوها ؟

ما الاثر الذي خلفته في حياتك الحاضرة ، لقد انقضى عام كامل حمل الى حياتك كل جديد منذ تعرفت بهـــا وانت تكتشف في كل يوم جانباً مشرقاً من شخصيتهـــا التي تميزت بكل تفوق .

وتلاشى مـــا بقي من التساؤل الملحّ وهو يجتاز باب الفناء ، وتطالعه الشرفة وقد جلس بها في شكل حلقـــة كل من نبيل توفيق تجاوره زوجته ثم سلوى ، وفي الجزء المقابل جلس شخصان لم يرهما اسماعيل من قبل .

وبعد ان سلّم على الحاضرين ، وتم تعارفه بالزائرين الجديدين ، اتخذ بجوارهما مكاناً لجلوسه ، واستأنف نبيل توفيق الحديث الذي انقطع بدخول اسماعيل ، فقـــال مشيراً اليه :

ــ هذا هو شريكي الذي حدثتكم عنه .

والتفت الرجل الملاصق له فجـــأة ، مسدداً نظراته المتفحصة الى وجهه في حركة تنم عن الدهشة ، بيد انه

لم يتكلم .

وكانت فرصة سانحة لاسماعيل ان ينظر مرة اخرى الى الضيفين ، كان اقربهما اليه يناهز الخمسين من عمره ، وقد تعرف عليه بوصفه أبا للشاب الذي يصحبه ، ثم نقل بصره الى الابن فألفاه طويلاً ، أبيض اللون ، وكانا يرتديان الملابس الافرنجية في تأنق ظاهر وعناية لفتت نظر اسماعيل ، بيد ان ما استرعى انتباهه هو مظهر الشاب الذي بدا صامتاً يسارق سلوى النظر بين لحظة وأخرى .

ولا يدري لماذا ثار في كيانه احساس مفاجيء بكراهية هذين الشخصين ،لقد بدا له انهما من مواطني هذه الاسرة ، وهو يراهما لأول مرة في زيارة هذا البيت على كثرة ما رأى من زوار تربطهم بهذه العائلة روابط شتى من القرابة او الصداقة او الجوار . ولاذ بالصمت باحثاً في مظهر الضيفين او مظهر احدهما ما يؤيد احساسه المفاجيء بكراهيتها . وانتزعه من صمته صوت الأب معلقاً على ما قاله نبيل توفيق :

— غير معقول .

وكأنما جاء الحكم المفاجيء مؤيداً لاحساسه الذي استشعره دون معرفة الاسباب ، القضية التي كانت مدار تفكيره الى ما قبل لحظة يؤيدها حكم الرجل ، لقد ناصبه العداء دون مقدمات ، وطابت نفسه للنتيجة قدر ما تألم من الحكم ذاته .

وردّ عليه نبيل في توكيد ما قرره :

— ولكن هذا هو الواقع ، انه شريكي .

وتدخل الابن الشاب ، دون مقدمات كذلك ، بعد ان انتزع نفسه من فكرة سرحت به بعيداً عن الحديث الدائر :

— وانا اقول ذلك ايضاً ، هذا غير معقول .

وتحرك اسماعيل في قلق ، كمن يهم بالقفز . ودّ لو تتلاشى الاعتبارات الاجتماعية ويدخل في معركة معهما مجتمعين . وعاوده الدافع الذي احس به في يوم بعيد ، اليوم الذي قصد فيه وزارة المالية يبحث عن عمل بعد ان اعتزم ترك الدراسة . لقد اشار له الحاجب بايماءة من رأسه الى مكتب الاستاذ «أمين» دون ان يقف له باحترام كان يتوقعه منه ، لطمة تلقاها في اليوم الاول وهو يواجه الحياة العملية ، ثم ما تلا ذلك من اهانة تلقاها من سليمان فتحي مدير المكتب الذي كال له النصائح في اسلوب خلا من الذوق والمجاملة . الموقف ذاته يتكرر ودوافع النضال ذاتها تعود في صورة أخرى ، وهي اليوم تدفعه بعنف الى ان ينشب أظفاره في عنقي هذين الشخصين ، وهو اليوم يشعر بقدرته على تنفيذ ما اعتزمه دون عائق يعوقه من حاجة الى اي منهما او ارتباط مصيره بهما في يوم من الايام .

بيد ان صوت نبيل توفيق أنقذه من هذه الانفعالات وهو يقول :

ـ ولكن هذا هو الواقع .

فردّ عليه الأب وقد بدا من لهجته تراجعه عن المعارضة :

ـ هذا أمر غريب .

وتدخل الابن مرة أخرى في اصرار وعناد قائلاً :

ـ ولكني لا اصدق .

ووجد اسماعيل نفسه مرغماً على الدخول في النقاش الدائر في شأنه فقال :

ـ وما السبب في عدم التصديق ؟

ومطّ الشاب شفتيه ولم يجبه ، ولاحت على ثغره ابتسامة خفية لا تشي بمعنى معين ، بينما اكتشف اسماعيل فيهـا اكثر من معنى ، وثارت فيه روح التحفز والنضال بعد ان اقتنع بصدق احساسه وتأكد منه ، وألفى نفسه يعيد النظر اليها في غيظ مكبوت ولا يدري لماذا انطلق ذهنه في موازنة سريعة بين الاب والحاجب الذي استقبله دون مبالاة ، وموازنة اخرى بين الابن وسليمان فتحي مدير المكتب ، ويعود ببصره متفحصاً الشاب فيجد فيـه اكثر من صلة تربطه بسليمان فتحي : كلاهما طويل وانيق ، ويبدو من نظرات هذا الشاب انه معجب بنفسه وواثق بها الى درجة يتلاشى بجانبها الاعتراف بمميزات الغير ، ولم يبق امـام اسماعيل غير ان يستمع الى ازيز حذاء هذا الشاب ليكون صورة اخرى من سليمان فتحي ، ودّلو خطى امامه بضع خطوات فيحكم عليه الحكم النهائي من هذا الجانب .

وقطع عليه حبل افكاره ما سمع من استئذان الرجل وابنه في الخروج ، فهب واقفاً في مكانه مع من وقف وودعها بفتور ونظرة حقد ، بينما صحبهما نبيل الى باب الخروج .

ولم يعد اسماعيل الى الجلوس على مقعده ، فقد لبث واقفاً في مكانه يتبعهما بنظره وهما يغادران المنزل . وكانت سلوى قد عادت الى الجلوس بينما اتجهت امها الى داخل المنزل . وعندما التفت الى سلوى – وقد أمن بعد الضيفين – تلاقت عيناه بنظرة متفحصة متسائلة من عيني سلوى ، فغضّ من بصره ، بعد ان حدس انها تتابعه بنظراتها ، وربما نفذت الى اعماقه ببصيرتها الملهمة ، ود آنذاك ان لو يهرب بأفكاره عن نظراتها المتتابعة ، او ان يتخلص هو من هذه الافكار . وعاد الى مكانه ولم يزل في كيانه خليط من هذه الانفعالات، وركام من التساؤل عن الزائرين وصلتهما بأهل هذا المنزل ، وسبب زيارتهما الى آخر ما هنالك من اسئلة توالت على ذهنه تتطلب الجواب ، وتنقذه من حيرته ، ثم هذه الكراهية المتبادلة من اول لحظة ، دون اسباب ودون مقدمات ، تجربة اولى يخوضها دون ان يسمع بها او يقرأ عنها من قبل لقد سمع عن الحب من اول نظرة ، لا بل خاض التجربة ، ويعود اليه تساؤله الذي زايله عند باب الفناء ، ما شعورك نحو سلوى ؟ وتعود اليه الحيرة تضفي على كيانه قلقاً في البحث عن

الجواب . وتنفذه سلوى بقولها :

— انه مغرور .

كالطبيب الذي يتحسس بكفه مواضع الالم وعندما تصل كفه الى مركزه يجيبه المريض بكلمة «آه» كأنما يقول في اطمئنان «نعم ، هنا مركز الالم» .

قال : غريب حقاً ، ذلك هو احساسي الذي خامرني وانا أراه . وقد اثار في نفسي اسوأ ذكرى لليوم الاول الذي خرجت فيه الى الحياة العملية.

فقالت وهي تبتسم :

— نعم لقد تذكرت،رئيسك الذي لم يسمح لك بمحاذاته في السير ، لقد تركك تتبعه وهو يلقي عليك نصائحه .

وابتسم هو الآخر قبل ان يقول :

— الصورة ذاتها ، الغريب في الامر انهما متشابهان الى حدّ بعيد حتى في القوام واللون .

فقالت وهي تنظر الى أبيها الذي اقبل من أول الفناء بعد توديع ضيفيه :

— حتى أزيز حذائه،ام انك لم تصغ اليه (وضحكت قبل ان تستأنف) ولكن علاقتك برئيسك قد تحسنت بعد ذلك اليوم كما أخبرتني .

وقبل ان يجيبها كان نبيل يقف امامها ويوجه حديثه الى سلوى قائلاً :

— سوف يعودان غداً في مثل هذا الوقت .

فردت عليه سلوى بعد ان غاضت الابتسامة من ثغرها :
— لقد قلت رأيي ، فما جدوى عودتهما . اني غير مستعدة . وقد صارحتهما بذلك .
فقال ابوها وهو يرفع يمناه الى رأسه كمن يفكر في أمر مهم :
— لا بأس ، ولكن لنردهما رداً جميلاً .
فسارعت تقول وهي تتجه ببصرها الى أبيها :
— هذه مهمتك ، أما أنا فقد فرغت من مهمتي .
وكأنما حدس اسماعيل موضوع حديثهما وان لم يتأكد لديه ظنه ، لقد اهتدى إلى ما يشبه الحقيقة بحاسته المتيقظة وحسّه المرهف . فردد في سره متسائلاً : « وهل تبدأ مهمتي من الآن ؟ » وعاد ينظر إلى سلوي وهي متجهة الى ابيها ، وقد بدا على وجهها طيف عابر من آثار حزن دفين ، الوجه المضيء يبدو من وراء خمار شفاف من الحزن ، اسود كالليل ، او سحابة ترنو على وجه القمر لا تحجب ضياءه قدر ما تزيد من فتنته وتضاعف من روعته . وصعد زفرة من صدره لا يدري أهي تجاوب مع موقف سلوى ، أم هي الحيرة التي يتردى فيها قلبه .
لقد شدت الرحال من بلد الى بلد ، وعرضت رغبات على بساط البحث وسوف ترفض هذه الرغبات وتعود نفوس كان يملؤها الامل بخيبة وسوء مآل . وانت سادر في حيرتك ، لا تدري اين مركز القمر من فلكك ، تأخذ

الأمور كل الأمور بالعادة والتعود ، تسير في تيار الحياة وكأنك قد أمنت الزوابع ، بعقل اللامبالي ، وهـذا عام طويل قد خضته بكل قواك فما حصادك منه ؟

المال ..؟ لقد كان سبب البلاء مما تقاسيه .

ما قيمته ، اذا ووزن بلحظة سعادة في ركب الحياة، في هذا القطار الطويل الذي ينتظم الأحياء ، نفوس أشقاها البحث عن السعادة، والسعادة رهن كلمة،قلها ولا تخف .

هل أقولها ؟

والتفت اليها لحظة ان اجتاز أبوها الشرفة متجهـاً الى داخل الدار ، ولم تزل بقايا من حزن تلوح على سماتهـا ممتزجة بدلائل التصميم والعزم .

قال اسماعيل :

ــ لقد عرفت او كدت .

والتفتت اليه تحدق نظرها فيه كأنما شغلتهـا فكرة عن تركيز انتباهها في ما قاله ورددت :

ــ لقد عرفت .. (وبعد فترة صمت) ماذا عرفت ؟

فأجابها وهو يومي برأسه الى باب الفنـاء الذي خرج منه الزائران :

ــ لقد عرفت الآن مهمتهما التي قدما من أجلها .

فتساءلت بعد ان استعادت ابتسامتها :

ــ قل لي ماذا عرفت ؟

فقال متسائلاً هو الآخر :

– أهو امتحان ؟

وزادت ابتسامتها اتساعاً واشرق وجهها وهي تقول في لهجة مازحة :

– نعم .

فقال وقد اتخذ مظهر الجدّ بشيء من التردد :

– سوف يعودان بخفي حنين .

فردت عليه وهي تصعد ضحكة رقيقة :

– لكل منهما خف ، (ثم أبدلت بلهجتها لهجة رزينة) اني اكرههما .

-- مثلي تماماً ، لقد كرهتهما دون ابداء الاسباب .

فقالت :

– ولكني اكرهما لاسباب كثيرة .

فتساءل :

– هل سبق أن تحدثتم في هذا الامر قبل اليوم ؟

فردت عليه وهي تسند خدها الى كفها الايمن وتنظر الى بعيد :

– نعم ، لقد سبق ان تحدثنا فيه ورفضت هذا الامر كلية . ان صلتي بسليم صلة قديمة منذ ان كنا متجاورين في بيروت ، وتربط اسرتينا رابطة صداقة قديمة . لقد كنا زميلين في الدراسة الثانوية وان كان يسبقني بعامين . لقد عرفته كما لم يعرفه احد من قبل ، وقد تأكدت من عدم صلاحية احدنا للآخر . ان مبادئه غير مبادئي ،

ونظرته الى الحياة تختلف عن نظرتي اليها ، كما ان اهدافي ومثلي بعيدة كل البعد عن اهدافه ومثله ، لا اعتقد ان هناك ما يصل احدنا بالآخر في اي جانب من جوانب الحياة ، فما معنى ان اقبل الارتباط به ؟

فقاطعها متسائلاً :

ـ وما معنى ان لا تقبلي الارتباط به ؟

ـ هذا هو الأصل ، لكل منا طريق يسير فيه ، فاذا جدت دواع للارتباط كان التقارب واصبح الطريقان طريقاً واحداً ، والا فسيبقى كل فرد سائراً في طريقه .

وتساءل مرة أخرى :

ـ لم لا يكون البدء منكما معاً ؟ تشيدان البناء جنباً الى جنب .

فقالت :

ـ وما هو الاساس الذي نبني عليه ؟

ـ اتفاق وفهم .

ـ لقد فهمته ويصعب الاتفاق .

قال اسماعيل وقد تداعت الى ذهنه صور الزيجات في بلده ، كما يعرفها ، من وراء حجاب أعقبها مشكلات انسانية ولكنه ردد في سره « فلسفة حديثة » قبل ان يقول :

ـ لتكن كما هي في بلدي ، لقد تزوج جدي دون ان يرى جدتي قبل « الشرعة » وأبي كذلك لم ير أمي الا على كرسي « النّصة » ومع ذلك فقد كانوا سعداء .

فتساءلت :

— اي سعادة تعني ، وسعادة من منهما ؟

فقال :

— سعادة الاثنين ، وسعادة البيت .

فقالت متسائلة وهي تضحك :

— وشباب اليوم في بلدك، هل يرتضون هذا الاسلوب في الزواج وهذا النوع من السعادة ؟

وسكت .

واستطردت :

— أغلب ظني ان معيار السعادة في نظرهم قد تغير .

فردّ عليها بقوله :

— العصر قد تغيّر فتغيروا معه . لقد اتجه اكثرهم الى الخارج .

فعادت تقول :

— وليس كلهم سعداء ، ليس المهم ان تراها وتعجب بها ، وانما المهم ان تتقارب الطبائع وتتفق الاتجاهات ، لقد كان الزواج عندكم كورق اليانصيب .

فقاطعها قائلاً :

— شختك بختك .

ولم تدرك ما يعنيه واستطردت :

— من المحتمل ان يربح صاحب ورقة من بين ألف.

فقال يشرح لها ما يعنيه :

ـ مثل شختلك بختاك تماماً. هو سلوتنا في أيام الاعياد، يجد بعضنا علبة كبريت ويجد الآخر علبة حليب . والسعر موحد قرش واحد لكل من العلبتين .

فقالت ضاحكة وهي ترفع يمناهـا كمن وجد ضالته بعد بحث :

ـ علبة الحليب هي السعادة . (ثم متسائلة) ولكن قل لي هل يجد اكثر الاطفال علبة حليب ؟

فأجابها وهو يفكر :

ـ كلا ، انا مثلاً لم اجد علبة حليب في حياتي ، لقد كان نصيبي دائماً مسامير اسطمبوللي وطراطيع فاسدة، ولو طالت طفولتي لما كان نصيبي اكثر من ذلك .

وابتسمت تشجعه قبل ان تقول :

ـ هذا فأل حسن .

وابتسم بمرارة كاليائس وتساءل :

ـ فأل حسن على اي شيء ؟

فردت وما زالت الابتسامة على ثغرها :

ـ على ان حظك في الحياة عكس ذلك .

وابتسم وهو يقول :

ـ لقد سمعت ذلك .

بيد ان الابتسامة سرعـان ما غاصت من ثغره وهو يستطرد :

ـ آمل ذلك .

فردت عليه في توكيد :

– ألم تدرك النجاح في عملك من العام الاول ؟

وكأنما كان يلوح له شيء بعيد ، فغض من بصره ، وشرد ذهنه ، وسمع صوت نبيل وهو يعود اليهما في الشرفة ويسأله :

– أين الأوراق ؟

فردّ عليه :

– انها معي في الحقيبة .

وتناول الحقيبة من جدار الشرفة واخرج اوراقه .

واستأذنت سلوى وتركتهما وحدهما واتجهت الى داخل المنزل .

١٥

اتجه اسماعيل في خطواته البطيئة الى المقعد الذي يحتل الركن القصي من البهو ، وقبل ان يجلس اضاء المصباح الكهربائي على يمين المقعد ، فتساقط الضوء قوياً على هذا الجانب وانتشر في خفوت متدرج على الجوانب الأخرى ، ومدّ يده الى الكتاب الموضوع على حافة المنضدة وتناوله في تأن ثم فتحه بعد ان اتجه في جلسته الى باب البهو المفتوح على مصراعيه ، ولم ينس ان يمدّ رجليه الى أطول مسافة ممكنة أمامه في استرخاء تام .

ولم يكن قد بدأ في القراءة حينما وصل الى سمعه وقع خطوات امه متجهة اليه من الطابق العلوي فأصاخ سمعه الى خطواتها وهي تهبط الدرج ، وقبل ان تصل اليه كان قد هبّ من مكانه متجهاً اليها وابتسم ثم أخذ يمناها ولثمها قبل ان يقول :

ـ لم أرك منذ الصباح ، كيف حالك ؟

واتجهت صامتة الى المقعد المجاور ، وما ان جلسا حتى بادرته متسائلة :

ـ كيف حالك أنت ؟ (ثم مستطردة في حديثها كمن لا ينتظر جواباً) لقد تغير الحال وسبحان من لا يتغير ، كنت سعيدة ايما سعادة في ذلك البيت القديم بزقاق الباشا ، مطمئنة راضية بتلك الحياة ، اما اليوم فالبال مشغول والفكر مشتت بين الغائب وراء البحار ، وبين هذا الذي لا اراه طول اليوم سوى لحظات ، لقد اصبحت وحيدة في هذا البيت مع افكاري وهواجس نفسي ومنظر البحـــر امامي يثير في نفسي ذكريات الغائب وراءه ، ترى كيف حاله ، وكيف قضى ثلاثة أعوام بعيداً عني ؟ ترى هل استطاب العيش بعيداً عن امه ؟ (ثم صعدت تنهيدة عميقـــة من صدرها قبل ان تستطرد في صوت خافت كأنمـــا تحدث نفسها) بودي لو نعود الى منزلنا القديم في مكة .

واصطنع اسماعيل ضحكة مقتضبة قبل ان يقول :

ـ ولمن شيدت هذا البيت ؟ ألم يرقك نظامـه ؟ اني مستعد لتغييره اذا رغبت في ذلك .

فقاطعته وهي تبتسم ابتسامة باهتة :

ـ اذا كان من أجلي فلا ، انا يكفيني مربع صغير ذو اربعة جدران ، وليس لي مطمح في الدنيا سوى ان اراك وأرى منصور في السعادة التي اتمناها لكما .

فقال اسماعيل :

— اني سعيد ، واعتقد ان منصور سعيد بحياته في القاهرة . لقد ادركت ذلك من خطابه الذي تلقيته منه قبل يومين . لقد تمنى ان يرانا ونجتمع به هناك وليس هنا ، (وبعد فترة استطرد متسائلاً) : ما رأيك في زيارته خلال عطلة الصيف القادمة ، اي بعد شهرين ؟

ورفعت بصرها اليه متسائلة :

— وعملك ؟

فقال وقد اتجه اليها في جلسته :

لقد اتفقت مع نبيل على ان اقوم بزيارة لبنان ومصر خلال الصيف القادم ، وسوف اقضي خلال زيارتي بعض المهام المتعلقة بعملنا .

فردت عليه :

— لقد تمّ الاتفاق اذن .

فقاطعها :

— مجرد اتفاق على ان تصحبيني في هذه الرحله،والامر يرجع اليك قبل التنفيذ .

فردّت مبتسمة :

— اذا كان من اجلك فاني موافقة ، ثم اني مشوقة لمنصور .

— لقد اتفقنا اذن ؟

فأومأت اليه برأسها بالموافقة ، بينما شرد بصرها عبر

الباب المفتوح ، بيد انها استدركت قائلة وقد همّ اسماعيل ان يفتح الكتاب الذي كان ممسكاً به :

— لقد ذهبت الى مكة .

واعاد الكتاب قبل ان يقول :

— نعم ، لقد اخبرتك بعزمي من الصباح ، وقد قضيت النهار هناك .

— لقد كنت ارغب في الذهاب معك (ثم متسائلة) كيف وجدت حينا القديم ؟

ومطّ شفتيه وهو يستعيد الصورة الجديدة التي رآها وقال :

— لقد مررت اليوم على تلك الناحية ، فلم اجد فيها شيئاً من معالم الماضي ،ولم احس بالحياة التي كنت أتصورها والتي ما زالت مرتسمة في ذاكرتي ، لقد طمست تلك المعالم وتلاشى الماضي بموت العم محمد قبل عام واحد ، كأنما كان الرجل يمسك بيده خيوط الحوادث واطراف الذكريات ، اني لم اجد الاطفال الذين كانوا يملؤون الساحة ويعلو صراخهم أمام دكانه ، لقد تلاشى الماضي شيئاً فشيئاً من الساحة الواسعة ، منذ ان انتقلنا الى جده قبل ثلاثة اعوام ، لقد رأيت حينا القديم وهو يحتضر ، اذكر عندما زرت العم محمد قبل عامين تقريباً وكانت معاول العمال تهدم الدار القديمة بجواره ، وهو ينظر الى العمال بحسرة وحزن ويقول (كل يوم هو في شأن ،

انظر يا اسماعيل لقد بدأ الحيّ يتغير ، هناك كان بيت المتولي ، وهنا كان وقف المراغنة وامامي كانت عزلة الاشراف. لقد ارتفعت العمارات الشاهقة واحتلت رقعة تلك البيوت الكبيرة لم يبق للماضي من أثر سوى ما نعيه في ذاكرتنا ، وسوف تتلاشى تلك الصور مع مرور الايام).

لقد بهت اليوم وانا استعرض الساحة التي اتسعت عن ذي قبل ، واذكر حديث الرجل وحسرته ، لقد تغيرت معالم الحي وتلاشى الماضي فعلاً بموت العم محمد ، أما حانوته فلم يبق له أثر .

وران على البهو سكون شامل وقد توقف اسماعيل في حديثه ، وتنهدت عزيزة بعمق بعد ان تخيلت الصورة الجديدة للحي الذي قضت فيه فترة طويلة من عمرها ، وبالرغم من ان تلك الفترة لم تكن مشرقة الى الحد الذي يدعو الى الاسف لفراقها ، الا انها استشعرت الأسى لتغير المعالم التي كانت تمثل في نظرها حياة كفاحها وطفولة ولديها ، لقد ارتبطت الصورتان في ذهنها اشد الارتباط ، وربما كانت تمثل في احساسها العاطفي « لمّ الشمل وجمع الشتات » . ففي اليوم الذي انتقلت فيه الى جدّه سافر منصور الى مصر وهي لم تره منذ ان سافر ، أما اسماعيل فهو منشغل بأعماله يغيب عنها طوال اليوم ، وربما غاب عنها اسبوعاً واسبوعين في السفر الى شرقي البلاد او شماليها يتتبع اعمال شركته . وتبقى هي تجترّ الذكريات وحيدة

في منزل كبير ذي طابقين تحسّ فيه بالشقاء بالرغم من مظاهر السعادة المادية .

لقد بعد عنها منصور بروحه وجسده ، وبعد عنها اسماعيل بروحه ، وبقيت هي كأنما ألقي بها في بحر محيط لا ترى منه الشاطىء ولا تحس فيه بالأمان .

لقد كان ذلك الماضي — بقسوته — اخصب فترات عمرها ، اخصبها بالجد والكفاح والراحة النفسية، واخصبها بالخيال والاحلام ، لقد كانت تتخيل هذا الحاضر الذي تعيش فيه الآن وتحلم به ، اما اليوم ، وبعد ان تحقق حلمها واصبحت ترتع في بحبوحة من العيش وتسكن هذا المنزل الذي هيأه اسماعيل بكل ما يكفل لها الراحة ، فقد احست بانتهاء مهمتها في الحياة ، وبأنها قد أدت رسالتها في الدنيا . لقد شقّ اسماعيل طريقه في الحياة العملية ، وشقّ منصور الطريق في حياته الدراسية ، وشعر كل منهما بالاستقلال الوجداني بينما عادت هي إلى الوحدة العاطفية ، لقد أصبح يومها صورة مما سبقه وصورة لما يليه من ايام، حتى خدمة البيت والاشراف على شؤونه الصغيرة والكبيرة تضاءلت عن ذي قبل بعد ان شاركها الخدم شؤون المنزل. لقد كانت تعتز في ماضيها بمعرفة مكان « علبة الكمون » في المطبخ وتفخر بتحديد التاريخ الذي يحتاجون فيه الى نوع معين من الخزين ، قدر اعتزازها وافتخارها بمعرفة ما تملكه من نقود في صندوقها القديم ، تحدد كل ذلك

وتعينه ببصيرتها الملهمة وتجربتها الطويلة التي اكسبتها دقة في التوقيت ودقة في الحساب . بيد انها — مع شقائها الذي تحس به في قرارة اعماقها — راضت نفسها على تقبل هذه الحياة الجديدة .

وربما كان ذلك — في رأيها — مسوغاً لقبول هذه الصورة الجديدة للحي الذي كانت تسكنه في مكة ، هذه الصورة التي رسمها اسماعيل منذ لحظة ، فقالت وهي تطبع ابتسامة باهتة على ثغرها :

— اذن لقد تغيّر حينا القديم كما تغيرنا ، ولكن قل لي ما هي اخبار جيراننا الأقدمين ؟

فردّ عليها متسائلاً :

— وممن استقي الاخبار ؟

— ألم تسأل عن اصحابك ؟ صديقك المخبر مثلاً .

فقاطعها وهو يتذكره :

— عبد الحميد ، لا اعرف عن اخباره شيئاً ولم أره منذ عام ، اما كمال فقد زرته قبل شهر وقد عرفت ان والده مريض .

— ألم تزره ؟

فقال :

— لم استحسن زيارته فقد كان الوقت متأخراً .

وكأنما ادركت خطأ ابنها فقالت محتدة :

— وهل الزيارة متعذرة بالنسبة اليك ، وأنت صديق

كمال حتى ولو كان الوقت متأخراً .
فردّ في صوت خافت :
— لقد كان ، اما اليوم فلا . (ثم في لهجة مغايرة)
الا تسأليني عن أخبارهم ؟
فتساءلت وما زال صوتها متأثراً بانفعالها :
— ما هي أخبارهم ؟
— لقد خطبت سميرة .
وعادت تقول متعجبة :
— وما اهتمامك بهذا الامر ، اما زلت تفكر في خطبتها ؟
ولم يجبها ولكنه قال :
— رجل ثريّ .
وتجاهلت قوله كأنها لم تسمعه ثم تساءلت :
— ما رأيك في سلوى ؟
ورفع عينيه الى امه وقد دقّ قلبه دقات سريعة متوالية
فاستأنفت كأنما تجيب عن السؤال الذي ألقته قبل لحظة :
— جميلة ، أليس كذلك ؟ إنها اجمل من سميرة .
فقال :
— ومثقفة ، لقد دفعتني الى القراءة بقوة ، اني لأشعر
ان ثقافتي قد تضاعفت بفضلها .
فأكملت امه :
— وست بيت ممتازة . لقد ادركت ذلك خلال زياراتها
المتعاقبة ، وكان اهتمامي متجهاً الى تتبع حديثها ومراقبة

حركاتها ، انها مهذبة وعاقلة ، وهي قبل كل هذا وذاك جميلة . (ثم متسائلة) لم تقل لي رأيك ؟

« فيم تطلب رأيه » ؟ ومتى ؟ لقد طال الامد قبل ان يسمع هذا السؤال . ليتها ألقت سؤالها قبل اليوم، اذن لكان جوابه غير هذه الحيرة التي يتردى فيها الآن ، انه متردد بين لا ونعم .

القلب والعاطفة وفترة طويلة تربو على ثلاث سنوات وربما بلغت اربعاً عاش خلالها في نعيم العاطفة الثرة الندية، وليال زينت بكل بهيج من الصور الحالمة ، وأيام خلفت في اعقابها سعادة دغدغت وجدانه وايقظت قلبه من سباته، كلها تهتف به من اعماقه (نعم) .

ويجيبه ، ولماذا (لا ؟) هذا الهاتف الآخر الذي كدّر عليه صفو حياته .

انه يجهل السبب . طالما بحث وتساءل ، ولكنه لم يظفر بجواب ينقذه من حيرته . انه وافد جديد أحس به منذ شهر واحد فقط ، منذ ان سمع بخطبة سميرة من رجل ثري ، لقد ظلّ يتساءل يومذاك (ولماذا من رجل ثري؟) أترى كان يرضى ويطمئن اذا خطبت من رجل متوسط الحال . وظلّ يدور منذ ذلك اليوم في حلقة مفرغة تسلمه كل خطوة فيها الى خطوة أخرى وتتقاذفه اسئلة حائرة محيرة .

ورفع بصره الى امه وهو ما زال بضرب في متاهة

اللانهاية وقال :

– اني حائر .

– ولم الحيرة ؟

« سؤال محير هو الآخر »

واغتصب ابتسامة باهتة قبل ان يقول :

– الامر يحتاج الى تفكير .

– ألم تفكر طيلة هذه المدة ، لقد ظننت انلك انتهيت الى رأي . الا تذكر ما قلت لي قبل أن أرى سلوى ؟

ومرر يمناه على جبهته كمن يريد ان يتذكر .

وابتسمت امه في اشفاق :

– سرعان ما نسيت .

– لم أنس ، وكيف أنسى ؟

وعادت تقول :

– ورأيها فيك ، يسرك من غير شك .

« لقد عرف بنفسه رأيها فيه ، بل تحسس عاطفتها ، لا بل تسلل الى اعماقها ، انه الامر الذي لا يحتاج الى برهان » . ومع ذلك فقد تساءل :

– وما رأيها فيّ ؟

فقالت أمه وقد انطبعت ابتسامة مشرقة على ثغرها :

– شاب ناجح ، انك مطمح آمالها ومنتهى ما تتمناه .

ورانت على وجهه سحابة حزن وهو يتخيل صورة سلوى ، بل يستعرض تاريخه معها منذ ان رآها في مطلع

مساء جميل ، قبل سنوات من اليوم .

« ما أقصر الربيع وهو يعدل في قيمته كـــل فصول العام مجتمعة »

ولا يدري كيف قفز ذهنه مرة أخرى الى سميرة فقال دون وعي :

– مسكينة ؟

وتساءلت امه :

– من تعني ؟

– سميرة .

وكأنما أحست بالخوف على ابنها فقد ارتفع صوتهـــا في ذعر :

– وما اهتمامك بها ؟

فقال بعد ان استدرك خطأه :

– لست مهتماً بها ، ولكني مشفق عليها .

فعادت تقول :

– انه دليل اهتمامك بها .

وردّ في لهجة توكيدية :

– لا ، لست مهتماً بها ،ولست مشفقاً عليها بالذات ، ولكني مشفق من خطورة هذه الآراء التي يعتنقونها .

ومصمصت بشفتيها في حسرة وضربت كفاً بكف قائلة :

– لا حول ولا قوة الا بالله ، انك ما زلت تفكر فيهم ، كفى ما سمعنـــا . اترك الماضي ، ما فات مات

ونحن أولاد اليوم ، وما الذي يعنينا منهم الآن ؟

فردّ في تحمس يشوبه حزن دفين :

– لقد باعوا سميرة .

وضحكت من قلبها لأول مرة وقالت :

– المال . انه كل شيء ، أليس كذلك؟لقد أصبحت ثرياً مثلهم فما الذي يهمك منهم ؟

وسكت ، بينما استطردت امه تتساءل :

– وهل عرفوا بنجاحك ؟

فردّ وهو شارد ببصره :

– لم يعرفوا كل شيء .

وسرحت هي الأخرى برهة قبل ان تقول :

– الخير في الواقع (ثم ضاحكة وهي تستطرد) لم ننته في موضوعنا الى شيء ، ما رأيك في سلوى ؟

– ممتازة ومثالية .

– في كل شيء ؟

وانتظر برهة قبل ان يجيب :

– دون شك .

– لقد اتفقنا اذن ، اني في حاجة الى انيس في هذا المنزل الكبير ، ما رأيك ؟

وابتسم :

– دون تفكير ؟ ألا تتركين لي فرصة معالجة الأمر بنفسي ؟

– ان الامر يعنيك قبل ان يعنيني ، ولكني اريد ان اطمئن .

– سوف أفكر .

فصاحت في ضجر :

– لقد فكرت قبل الآن مرات ومرات ، اني متأكدة مما أقول ، ولكني أحس ان رأيك قد تغير . لقد نسيت الآن كل ما قلت ورددت على مسمعي . سوف لا اراجعك في هذا الامر أو أبحثه معك بعد اليوم ، أنت حرّ فيما تفعل ، ولكني مشفقة عليك .

ورفع بصره اليها وكاد ان يقول (اني موافق) ، ولكنه امسك وخفض بصره ولاذ بالصمت ، وغادرته امه متجهة إلى الطابق العاوي من المنزل .

١٦

قالت سلوى وهي تتناول منه الكتاب :

ـ لقد استغرقت وقتاً طويلاً في قراءته ، انك لم تعد القارىء الذي يلتهم الكتب كما كنت . (ثم بلهجة تساؤل) أم ان العمل قد استحوذ على وقت فراغك ؟

ولم يحر جواباً ، بل ولم يرفع اليها بصره، كان شارداً بأفكاره عبر الأفق الممتد أمامه .

واستطردت وهي تبتسم :

ـ ماذا قرأت في رحلتك الاخيرة ؟

قال وهو يسترد نظراته ويعود الى نفسه :

ـ أنت ادرى مني بهذه الرحلات وضيق أوقات الفراغ فيها ، لقد كنت اقتنص الفراغ بشدة لاقرأ .

فقاطعته :



— يكفينا في مثل هذه الرحلات ما نفيده خلالها من ثقافة واطلاع وتجربة ، اننا نقابل انماطاً كثيرة من الخلق وانواعاً متعددة من الاخلاق والعادات والتقاليد ، ونطلع على علاقات الناس بعضهم ببعض ومعاملاتهم مع الغير ، هذه هي الحياة وهي المعين ، بل الاصل الذي يعود اليه كل كاتب وأديب وفنان . ألم تلاحظ ذلك في جولتك هذه ؟ بالنسبة لي كان يروقني كثيراً ويشوقني ان أتتبع شخصية ما في الحياة واقارنها بشخصية اخرى في قصة قرأتها فأجدها بكل اندهاش ، هي ذات الشخصية ، في الشكل والمحتوى ، في المظهر والمخبر ، في كل تصرف من التصرفات فأقف مبهوتة مندهشة امام صدق التصوير ودقة الوصف . تلك كانت هوايتي في جميع رحلاتي واسفاري منذ كنت طالبة ابحث عن الشخصيات التي قرأتها بين من اقابلهم في الحياة . (وبعد فترة صمت واصلت) ، ألم تواجه شيئاً مثل هذا في رحلتك ؟

ضحك وهو ينظر اليها :

— ولكني لم أصل بعد الى هذه الدرجة ، اني ما زلت في حاجة الى معرفة نفسي اولاً ، وانا الآن ابحث فيها عن شيء يحيرني .

ورفعت اليه عينين بدا فيهما اثر اشفاق :

— عمّ تبحث ، هذه اعراض قلق ، يبدو انك تعاني من حالة نفسية (ثم ضاحكة) لا تنس على كل حال اني

استاذتك .

– بودي لو اعتزل الناس فترة اخلو فيها الى نفسي .

ضحكت بصوت عال :

– لقد اعتزلت العمل والناس خلال اجازتك الاخيرة مدة شهرين ، وهي فترة كافية تخلو فيها الى نفسك وتبحث في اعماقك عما يحيرك . واذا كنت لم تصل الى نتيجة فذلك امر محير (ثم نظرت اليه بامعان) هذه حالة يمر بها كل شخص حينما يحتار بين اتجاهين لا يستطيع تفضيل احدهما على الآخر . او عندما يواجه الخطوة الحاسمة في أمر يواجهه (ثم ضاحكة) اي الحالتين حالتك ؟

ورفع اليها بصره ، واستعرض في لمحة عابرة تاريخه معها منذ خمس سنوات ، منذ ذلك اليوم البعيد ، في تلك الامسية الجميلة ، عندما فتح عينيه على اشراقة غده . ذلك الغد الذي سرعان ما تحول الى ماض يجترّه في وحدته ، ويستعرضه في مثل هذه اللمحات العابرة .

وعاد الى نفسه يبحث عن الكلمة التي كان يود ان يقولها لسلوى ، فلم يعثر عليها ، لقد تلاشت في طيات نفسه الحائرة .

وردّد في نفسه ، ما سرّ هذا التردد ؟.

لقد بات أمله وشيك التحقيق ، هناك كلمة واحدة لو قالها ، ما باله لم يقلها ؟

لقد تركته امه يفكر في الأمر منذ شهور فلم يصل في

أمره الى قرار . بل زاد تردداً وحيرة منذ ان اعاد صلته بعبد الحميد ، زميله القديم الذي انقطعت صلته به . فعاد اليه ذلك الصديق يحمل له اخبار كمال واسرة كمال ، وما انتهى اليه امر شقيقته سميرة . فقد عرف انها تزوجت من كهل ثري، كما علم بتدهور حالة الاسرة المادية بعد انقطاع عميدها عن الاشراف على محلهم التجاري اثر امراض انتابته شهوراً عديدة ، وقد انتهى به الحال الى ملازمة الدار بعد عجزه .

قال يوماً لعبد الحميد في معرض حديث في موضوعه المفضل :

– لقد باعوها على كهل .

وضحك عبد الحميد :

– ولكنه ثري .

وابتسم في مرارة :

– اني أعرف ذلك . لقد رفضوا الفقير الشاب(وبعد لحظة تفكير استأنف) حتى كمال صديقي ورفيق الطفولة كان مؤمناً باتجاه أبيه . ترى هل تغيرت افكاره ؟.

فقال عبد الحميد :

– لا أعتقد، ولو عرفوا بنجاحك هذا قبل ان يزوجوا ابنتهم لما تأخروا عن الاتصال بك في هذا الامر ، هذا اعتقادي على كل حال .

ضحك في مرارة :

– الحفاظ على المبدأ ، انهم يزوجونها للـمال ، ولو تحقق هذا لرفضت انا . يكفيـني في هذا الموقف ان لو سعوا اليّ ولا يهمني بعد ذلك ان اتزوجها او ارفض .

ورفع عبد الحميد حاجبيه في حالة تعجب :

– هل يرضيك هذا ، أهو موقف انتقام .

فأجابه :

– لا . ولكن ...

ولم يستطع ان يستطرد . ومطّ شفتيه شأن من يتحسر على شيء فات .

واعاد النظر الى سلوى التي كانت تمعن نظرها فيه .

واعاد سؤالها على نفسه « اي الحالتين حالتك ؟ » .

« حتى هذا لا يدريه »

– لا ادري .

فقالت وهي تشير الى الكتاب الذي تحمله :

– في هذه الحالة ، عد الى القراءة ، طالما قلت لي ان حياة الفكر التي تحياها بين الكتب قد حملتك الى عالم فسيح احسست فيه بتميم الفكر الانساني ، وانك قد امتلكت بكثرة القراءة ذلك المفتاح السحري الذي اقتحمت به ابواباً محكمة الاغلاق على اسرار الحياة .

واقبل نبيل توفيق من الباب الخارجي بعد ان اوقف سيارته، وكان صوت السيارة قد وصل اليها وهما يتحدثان.

واشارت سلوى الى ابيها وهو مقبل عليها وقبـل ان

يلقي بتحيته سارعت قائلة :

ـ ان اسماعيل ينوي اعتزال الناس والمجتمع فترة من الزمن ، ما رأيك في هذه الحالة ؟

وعندما وصل اليهما حياهما تحية مقتضبة ثم ارتكز بمرفقه على جدار الشرفة وقال بعد ان تأنى لحظة وركز نظره على اسماعيل :

ـ وما مصير الشركة ؟ على كل حال ، هذه نوبة تنسك ورهبنة سرعان ما تزول بزوال الاسباب . اما علاجها فهو (وبعد ان توقف متردداً استأنف) انا لا ادري شيئاً عن الأسباب ، يجب اولاً ان نشخص المرض لنصف العلاج .

ووقف اسماعيل بجوار نبيل واستند هو الآخر بمرفقه على الجدار ، وما لبثت سلوى ان تبعتهما في الوقوف واستندت بكلتا يديها على مرفق المقعد في مواجهتهما . وسارع اسماعيل وهو يبتسم قائلاً :

ـ كثير من الأطباء يخلقون من الاعراض البسيطة شيئاً ذا خطر . لقد شفيت الآن حقاً . وكل ما قلته ان هو الا نتيجة اوهام لا اساس لها من الواقع .

ضحكت سلوى قائلة :

ـ انك تخاف من الاطباء .

ـ منذ الصغر ، اني اثق في الوصفات القديمة .

فتساءل نبيل :

– وما العلاج الذي ستستخدمه في حالتك هذه ؟
فأجاب وهو ما زال يضحك :
– اقوم برحلة اخرى .
فقالت سلوى وهي تشير الى ابيها :
– وهل يقبل شريكك .
فقال نبيل :
– ليس لديّ مانع اذا كان في السفر علاجه .
وسارعت سلوى قائلة :
– على شرط ان تعتنق هوايتي .
وحينما تساءل ابوها عن هوايتها اجابت :
– البحث عن شخصيات القصص التي تقرأها بين من نقابلهم في الحياة . هواية لطيفة ، ما رأيك ؟
وضحك ابوها قائلاً :
– هواية لطيفة ، ولكنها متعبة . (ثم مستطرداً وهو يتجه الى داخل المنزل) انا موافق على كل حال .
وحينما انفردا ، التفتت اليه سلوى قائلة :
– لم نصل الى حل لمشكلتك .
فتساءل وهو يبسط كفيه :
– اي مشكلة ؟ لقــد قلت اني شفيت ، وقد حلت المشكلة .
بينما استطردت سلوى :
– لقد لاحظت عليك كثرة التفكير في الآونة الاخيرة،

هناك شيء يشغلك .

وابتسم :

— انك تنسين، كثيراً ما وصفتني بأنني ابدو في صمتي وكأنني من رجال الفكر .

وضحكت بينما استطرد مشيراً الى الكتاب الذي اعاده اليها :

— ما رأيك في هذه القصة ؟

وصمتت متفكرة ثم تساءلت :

— هل تأثرت بها انت ؟ انها تعالج عقــدة في البطل نتيجة عاهة فيه .

قال سارحاً بنظره بعيداً :

— مسكين ، انه ضحية (ثم متسائلاً) ضحية من؟

قالت في لهجة اسيفة بعد ان امتدت يدها نحو الكتاب :

— اني آسفة .

قال معتذراً لالمها :

— اني احب هذا النوع من القصص .

واستعاد وجهها اشراقه قبل ان تقول :

— نعم ، نعم ، لقد ذكرت الآن . انك تعد نفسك لتكون قصصياً ، ولكن متى ستبدأ ؟

فقال وهو يتجه الى مقعده :

— لقد تعبت (وبعد ان جلس استطرد) ليس الآن، لقد وعدت امي واخي منصور بذلك .

فقاطعته :

ووعدتني كذلك : هل نسيت؟ولكن متى ستبدأ القصة الاولى .

فقال ضاحكاً :

– بودي لو اكتبها في الستين من عمري .

وضحكت هي الأخرى قبل ان تقول :

– حينما تمشي على عكاز .

– نعم ، واجتر تاريخ حياتي ، مستنداً برأسي على ظهر السرير .

– تاريخ حافل يسرك استعراضه ، وصور مشرقة يسعدك استعراضها .

ولاحت على وجهه سمات التفكير :

– وهل تعتقدين ذلك .

– الى درجة الايمان . وهل تشك انت فيه . لقد بدأت كفاحك مبكراً . هذا موضوع لقصة انسانية فريدة .

– كل الناس يكافحون ، كل على طريقته ، لقد كافح غيري وهو لم يزل فكرة وامنية في قلب والديه ، اي قبل ان يولد بل قبل ان يصبح جنيناً في بطن امه .

ضحكت :

– فكرة طريفة لموضوع آخر.واذن فما موضوع قصتك؟

وسرح ثانية بنظره ثم قال :

– لم تكمل التجربة بعد ، وارجو ان تقرئيها يوما ما.

فقالت في لهجة توكيدية وابتسامة تضيء وجهها :

– على وجه التأكيد ، سأقرأها حتماً . ارجو فقط ان تبدأ في كتابتها .

وصمت في كآبة بيد انه استدرك وهو يصطنع ابتسامة:

– كأنما اصبحت كاتباً ، احدد منــذ الآن متى ابدأ الموضوع (ثم ضاحكــاً بصوت مرتفع) وانا لم أحاول بعد كتابة اي موضوع بسيط .

قالت تشجعه :

– المهم على كل حال استيعاب التجربة ، هـذه هي الخامه (ثم بلهجة مرحة) وسوف اصحح لك ما تكتب. ما رأيك ؟

فأجابها في تردد :

– ارجو ذلك .

بيد ان شعور الكآبة قد عاوده وهو يفكر: اي الموضوعين اولى باهتمامه ، واي التجربتين اعمق في وجدانه .

قصته مع الاسرة التي رفضته لفقره ، ام هذه القصة التي يعيش تجربتها الآن ؟

هناك الهالة التي كانت تمثل في نظره حينذاك معنى الجاه الذي كان يفتقده والغنى الذي كان يحلم به ، انه لم يكن يسعى الى سميرة قدر ما كان يسعى الى الجاه ويطلب المظهر. اما هنا فقصة الحياة بمعناها الجميل .

ومع ذلك ، فهو متردد حائر ، يحس – كلما فكر – بأن في حياته شيئاً ينقصه ، هـذا الشيء ليس في سلوى

وليس في أسرتها ، اين هو ، ان لم يكن فيها ؟
وظل الكآبة يرنو على سماته في لحظات التفكير ، وعندما يواجه سلوى .
ورفع اليها بصره وواجهته الابتسامة المشرقة على ثغرها الوضاء . « مشرقة الى الابد » واستطردت سلوى :
ــ وسأكمل لك ما ستنساه .
فردّ بسرعة :
ــ أنا لا أنسى شيئاً .
قالت له :
ــ سأختبرك اذن . (وبعد لحظة تفكير) ما عمري؟
قال في لهجة الواثق :
ــ اثنان وعشرون . انت اصغر مني بعام واحد .
فابتسمت قبل ان تقول :
ــ لقد نسيت اذن ما قلته لك قبل عام .
ورفع اليها بصره مستوضحاً بينما استطردت مبتسمة :
ــ أنا عمري الآن (ومدت يمناها تعد على اصابعها) خمسة أعوام فقط .
ولاحت على ثغره ابتسامة حزينة ، ذاك تاريخ لقائهما ، قبل خمسة أعوام عرف سلوى ، هذا هو التاريخ الحقيقي ، لقد ولد هو الآخر قبل خمسة اعوام ، في مطلع خريف ندي بنسماته العاطرة الواهنة . ولد في مطلع تلك الامسية الجميلة على رؤى الشفق الحالم الذي انتشر في عرض الافق

امامه ، ما باله نسي اغاريد الطيور التي عزفت لـه لحن مولده ، ساعة ولد ، بل لحظة ولد ؟

وغامت المرئيات أمام عينيه ، انه يحس بالخجل أمام هذه التي لقنته معنى الحياة .

ولفه الصمت بينما استطردت :

– ألم تصدق ؟

« كيف لا يصدق ، قضية لا يعوزها البرهان ، ان أعماقه تردد هذا القول ، القول ذاته،وانا عمري كذلك »

وقبل ان يجيب بلا أو نعم أشارت اليه تستنظره لحظـة وغادرت مكانها في خطوات رشيقة متجهة الى حجرتها ، وعادت وقد اشرق وجهها اشراقة المنتصر تحمـل في يدها بضع مفكرات . وبعد ان جلست في مقعدها قدمت اليـه واحدة منها بينما وضعت الباقي منها على المنضدة أمامها ، ثم قلبت بضع صفحات في المفكرة الاولى واشارت له الى صفحة معينة قائلة « اقرأ » ثم مستدركة « اقرأ التاريـخ أولاً » .

فقرأ التاريخ ، كان تاريخ اليوم الاول الذي لقيهـا فيه ، انه يذكره ، ثم : (أ – لقد لقيته اليوم ، اليوم فقط ، انه في مثل سني تبدو عليه سمات التصميم في العمل الذي جاء من اجله ، واتوقع له نجاحاً مع ابـي ، لقـد عرفت اسمه قبل ان اراه من ابـي الذي حدثنا عنه ، له بعض سمات الفنانين ، شرود في النظرات،وصمت عجيب،

يبدو ان قوته العاطفية تتوارى خلف صمته العميق » .

وقبل ان يلتقط أنفاسه قلبت صفحة اخرى فقرأ

(أ — س — انه يطيل نظراته إلي ، وانا اتحدث اليه وهو يفتعل الاسباب لتكرار النظر ، اني سعيدة يعجبني فيه حساسية الفنان ورقته،نظراته شفافة تكشف ما وراءها، انه لا يستطيع بالرغم من محاولاته ان يحجب ما وراء نظراته ، لقد رقت لهجته ووشت سمات وجهه بما يعتمل في صدره .

ورفع اليها بصره وهي تقلب الصفحات « هذا تاريخه، وهو تاريخها كذلك . ما أسعدنا عندما نستعرض حياتنا في صفحات مشرقة »

وابتسم :

— هذا تاريخ الجبرتي .

وضحكت :

— بل مذكرات قلب .

فعاد يقرأ « حياتي ربيع دائم ، لقد استمر في القراءة بنهم ، لقد كاد يقرأ كل ما أملكه من كتب ، وطالت جلساتنا اناقشه ما قرأ؛سعادته تكاد تطفر من عينيه وانا...»

ورفع اليها رأسه مستوضحاً . فغضت من بصرها وتناولت منه المفكرة .

وعاد أبوها فجمعت مفكراتها وهي تبتسم وتساءل نبيل متجهاً الى اسماعيل :



ورفع اليها رأسه مستوضحاً : فغضت بصرها وتناولت منه المفكرة

– هل رسمت برنامجك ؟

وتدخلت سلوى :

– لقد رسمه منذ زمن (والتفتت الى اسماعيل مستطردة وهي تبتسم) انه يحتفظ بأفكاره خلف صمته .

وأومأ اليها برأسه مبتسماً ثم نظر الى ساعتـه واستأذن في الخروج وغـــادر المنزل ، بينما تبدو على وجهه سمات التفكير العميق .

١٧

كان اسماعيل متهيئاً للخروج بعد ان ارتدى ملابسه ، وكانت امه تجلس على احد المقاعد سارحة بأفكارهـا ، وتتابعه بنظراتها العميقة التي تنم عن تفكيرها في أمر يشغل بالها . وحينما دنـا الى المنضدة التي بجوارها يهم بأخـذ ساعته ، التفتت اليه تسأله :

– أي رغبة في غداء معين ؟

والتقط الساعة ، ودون ان يلتفت اليها أجاب :

– كلا ، سأتناول اي غداء (ثم مستدركاً) ربمـا أتأخر قليلاً ، فقد حددت لنبيل موعداً بعد انتهاء العمل حسب طلبه .

وتحركت في مكانها كأنما تهمّ بالقيام ، بيد انها استمرت جالسة وابتسمت قبل ان تتساءل :

– وهل عرفت شيئاً عن الامر الذي سيتحدث فيه ؟

فنظر اليها في تمعن وقطب جبينه مفكراً وقال :

– لا أعرف شيئاً عن ذلك ، ما اكثر احاديثه هـذه الايام .

وأشارت اليه بالجلوس وقد ظهرت سمات الارتياح على وجهها وقالت :

– تعال هنا بجانبي ، اقترب مني .

وجلس كالمتردد بينما بدا على وجهه اهتماماً بالخبر تشوبه امارت انفعال ، بينما استطردت أمه وقـد انطبعت على ثغرها ابتسامة عريضة :

– ألم تعرف (وبعد فترة انتصار كأنما تأكدت خلالها بأنه لم يعرف بعد ، واصلت) ان زوجة نبيل قد زارتني ليلة البارحة وعرفت منهـا اعتزامها السفر الى لبنان بعد شهر من الآن ، وسوف تصحبها سلوى في هذه الرحلة ، وربما تطول غيبتهم الى ستة شهور اي الى ما بعد انتهاء فصل الصيف .

ورفع اليها بصره كأنما يستوضح الجانب الذي يعنيـه من هذا الخبر ، بينما استطردت هي قائلة :

– ما رأيك ؟

وركز نظره في امه كالمستوضح وتساءل :

– رأيي في ماذا ؟

وابتسمت في رقة وأراحت ظهرها على المقعد بعد ان زحفت في جلستها الى الوراء وقالت :

— في الامر الذي تحدثنا فيه منذ شهور ، في موضوع سلوى ، حتام ننتظر ، قل لي ألم ينته تفكيرك بعد ؟ ان اهلها بكل صراحة ينتظرون منك كلمة في هذا الموضوع ، لقــد طال انتظارهم ، طال كثيراً كأن الامر يستدعي كل ذلك .

وازداد انفعاله وهــو يصغي في صمت وتفكير ويتابع حديث امه بتفرغ وانتباه ، ثم التفت اليها بعد ان شبك يديه وزحف في جلسته نحو حافة المقعد وتساءل :

— وهل جاءت امها لهذا الامر بالذات ؟ (ثم بعد لحظة تفكير) هل تحدثت اليك بلسان سلوى ؟

وأراحت رأسها على ظهر المقعد تنظــر اليه في تمعن كأنما تنفذ بنظراتها الى اعماقه ، الى ما وراء كلماته ، وما يرمي اليه من هذا التساؤل « لسان سلوى » رغباتها ، وما يكنه قلبها ، وهل ما زال الى الآن لا يعرف مكنون قلبها او هو في حاجة الى من يكشف له عن هذا المكنون ؟.
وهزت رأسها في حركة تنم عن شكّها ، بيد انه استطرد دون ان ينتظر اجابتها :

— ما زلت افكر على كل حال ، هناك امور تستدعي مني التفكير والتريث .

ورفعت رأسها اليه في حركة مفاجئة وقالت في لهجة انفعال وبصوت مرتفع :

— اي امور تعني ؟ لقد عرفت سلوى منــذ خمس

سنوات ، واعتقد انها فترة تكفي لتسوية كل امر ، قل لي هل نسيت احاديثك المستفيضة عنهـا ، ام قد تغيّر رأيك فيها ؟

قال وهو يهم بالوقوف :

ـ لا ، لا اقصد ذلك ، وانما هناك امور اخرى لا تتصل بها ، بودي تسويتها قبل ان اقول كلمتي .

واستنظرته باشارة من يدها ان يجلس وقالت في لهجة مغايرة :

ـ لا تتعجل الخروج ، صارحني اولاً بهذه الأمور التي تشغل بالك ، هل تقصد أمراً من امور عملك ، ام هناك شيء آخـر لا اعـرفه ؟ بودي لو ننتهي من هذا الموضوع خلال الشهر الحالي اي قبل سفرهم .

فتساءل وهو يهم ثانية بمغادرة مكانه :

ـ بلا او نعم ؟

فعاجلته :

ـ بنعم على وجه التأكيد (ثم في دهشة) وهل تفكر في ان تقول غير نعم ؟

وصمت كأنما ادرك خطأه ثم قال :

ـ سوف أتحدث معك في وقت آخر .

بيد انها وقفت مصممة على مواصلة الحديث :

ـ اعتقد ان هذا هو الأمر الذي سيتحدث فيه نبيل، فما سيكون جوابك له ؟

والتفت اليها قائلاً في لهجة لا مبالية :

— نفس الجواب من غير شك (ثم مستطـــرداً بعد فترة صمت) ولم العجلة ؟

فصعدت ضحكة بينما كان وجهها ينم عن الكدر :

— بعد خمسة اعوام ، ثم تقول لم العجلة ؟ اني بكل صراحة قد بدأت اشك في هذا التردد ، ان قلبي يحدثني بأن هناك أمراً آخر تفكر فيه . (وشردت ببصرها بعيداً كأنما تفكر في هذا الأمر واستطردت) قل لي لم استعدت صلتك بعبد الحميد ؟ انه وجه الشؤم ، لقد شعرت بتغير افكارك منذ ان استعدتما صداقتكما القديمة . انا عـلى كل حال لا ارتاح لهذا الرجل ، فقد رأيته (واشارت بيدها كالمتقززة) يا لطيف ، ارجو ان لا يدخل هذا البغـــل منزلنا بعد اليوم .

وتوقف اسماعيل مبهوتاً بعد ان كان يتعجل الخروج ، والتفت الى امه في نظرة استعطاف وقد أحس انفعالها وما بدا على سماتها من آثار الغضب ، ثم قال في لهجة رقيقة :

— وماذا فهمت من استعادة صلتي بعبد الحميد ؟

فأطرقت في صمت ثم ما لبثت ان رفعت نظرهـا اليه قائلة :

— مـــاذا فهمت ؟ لقد فهمت كل شيء ، وأنت تعرف ذلك .

فردّ في ذات اللهجة الرقيقة :

ـ أريد ان اعرف ، ربما التبس عليك الامر .

فصعدت ضحكة استهزاء قبل ان تقول :

ـ من جاءك بأخبار سميرة ، من أخبرك بأنها قد تزوجت من كهل ثري ؟ ومن اخبرك بتدهور حالتهم المادية ، قل لي ما سرّ اهتمامك بهؤلاء الناس بعد ان ابتعدنا عنهم وقطعنا صلتنا بهم ، هل ما زلت تفكر في مصاهرتهم ، ليس لديهم ـ على كل حال ـ غير سميرة وقد زوّجوها. (ثم ضحكت في تبكيت ولوم ظاهر واستطردت) أم انك تسعى الى تطليقها ؟

فنكس رأسه وقد حال لون وجهه وبدا عليه الاضطراب ثم التفت اليها قائلاً في صوت خفيض مضطرب :

ـ ولكن من قال لك ذلك ؟

ولما لم تجبه استطرد :

ـ اني اطمئنك على كل حال بأنهم لو عرضوها عليّ قبل زواجها هذا لرفضت العرض . وكيف اقبل الآن وقد رفضوا يدي من قبل ؟ انك لا تتصورين شعوري نحو هذه العائلة . (وبعد فترة قصيرة اطرق خلالها في صمت استطرد في لهجة اسيفة) سرعان ما تغيّر الحال ، من كان يظن ذلك او يتصوره ، في مدة خمسة أعوام فقط يأخذ كل منا مركز الآخر ، لقد عرفت انهم قد باعوا منزلهم الكبير الذي كانوا يملكونه في الشبيكة وقد نفد المبلغ خلال مدة قصيرة بين العلاج ومصروفات البيت

وتسديد خسائر المحل وأجور صبيانه ، كما باعوا دكاكين أخرى بثمن بخس يواجهون بذلك مصروفات العلاج في مرض العم عبدالله ، ومع ذلك فلا فائدة ، لقد أصبح الرجل قعيد المنزل ، وقام كمال بشؤون الاسرة . ولا أظن انه يستطيع تحمل المسؤوليات بصبر وجلد .

وقبل ان يستفيض في استطراده سارعت قائلة :

— لنبادر اذن في انهاء خطبتك الى سلوى (ثم أبدلت بلهجتها لهجة أرق) لا تنس ما وراء ذلك لو عرفوا بزواجك ، هه ما رأيك ؟

فردّ في لهجة يشوبها ألم مكبوت :

— سوف يتحقق ذلك لو تزوجت من اسرة غنية (وابتسم في مرارة) وسأدعوهم ليلة الدخلة ، ما رأيك في هذا المشروع ؟

وكأنما فزعت من مشروعه فقد تساءلت في لهجة مذعورة :

— وسلوى ؟ قل لي هل فكرت جدياً فيما تقول ،وهل هذا سبب ترددك ؟

بيد انه نفى في لهجة المتردد :

— لا ، لا ، انا ما قصدت ذلك بالضبط .

— ما هو قصدك اذن ؟ اما زلت متردداً ؟

ولم يجبها فاستطردت :

— سوف اتخلى عن هذا الامر منذ اليوم . انت حرّ

فيما تفعل .

وتركته واقفاً بينما اتجهت هي صاعدة الى الدور العلوي وقد ظهر اثر انفعالها في خطواتها المضطربة، وعندما تلاشى صدى خطواتها ووصل الى سمعه صوت صفقة بابها وهي تغلقه بشدة ، اتجه نحو الباب الخارجي في تخاذل يسحب قدميه على ارض الصالة في هيئة المهزوم المكروب، مطرقاً الى الارض في صمت موحش .

وفي الخطوات القليلة التي قادته نحو سيارته خارج المنزل، استعاد ذهنه كل الحوار الذي دار بينه وبين امه ، كما استعاد احاديثها السابقة عن سلوى . لقد قام هو برسم الصورة المثالية لسلوى ، وصفها لامه قبل ان تراها، وحينما عرفتها وجلست اليها تكشفت لها جوانب مشرقة كثيرة ومتعددة من اخلاقها وميزاتها العديدة فازدادت اعجاباً بها وحباً لها . لقد كان يقول لها دائماً « سوف اتركك تحكمين » وقد حكمت منذ ان رأتها اول مرة ، كان حكماً عادلاً في رأيه، رضي عنه كل الرضا وبات ليلتذاك مطمئن البال ساكن النفس كأنما توج الحكم العادل جهاده الطويل وكفاحه المرير بكلمة حق كان ينتظرها على مدى الاعوام الطويلة .

في ذلك المساء البعيد ، منذ اكثر من ثلاثة اعوام ، عندما عاد الى منزله متأخراً عن موعده ، وكانت سلوى قد غادرت المنزل عقب الزيارة الاولى لهذا المنزل . لقد

جاءت بصحبة امها تتعرف بأمه وتحقق بهذه الزيارة رغبة سعى الطرفان لتحقيقها .

لقد استقبلته امه بابتسامة عريضة قرأ فيها الرضا واكتشف فيها الاعجاب وابتسم هو الآخر كأنما يردّ تحية امه بتحية مماثلة ، ولم تنتظر سؤاله وانما بادرته قائلة « لقد صدقت في كل ما حدثتني به ، بل لقد غاب عنك ان تحدثني عن ادبها .

وابتسم مستوضحاً بينما استطردت « لقد كانت تستمع طيلة الجلسة الى حديثي مع امها ولم تكن تتدخل الا بقدر وحينما تحدثت كانت تتحدث بصوت خفيض . اما جمالها فسبحان الخالق » . وكأنما ارضاه هذا الاطراء فنظر الى امه يستزيدها الحديث فواصلت «سوف افرح بكما عماقريب » . واطرق ساعتذاك وقد مثلت امامه صورة الفرح الذي تتمناه امه . انها تفترق حتماً عن الصورة التي تخيلها على مدى الايام والليالي الطويلة ، لقد قام هو برسم الصورة في رفق وأناة وصبر ، فبدت في ظلالها واضوائها رائعة روعة الخيال التي كوّنها .

وعندما تساءلت امه في لهفة « ولكن اخبرني هل هي مخطوبة ؟ اني اريد ان اطمئن » .

فردّ عليها بلهجة الواثق « ولو » كأنما يتحدى نفسه .

واستأنفت « عجل بالأمر » . فابتسم ابتسامة الواثق من امر مؤكد التحقيق .

ومرت الايام في انسياب كأنما هي السلسل العذب ، رخية لينة سخية بالعطاء والكرم تحمل له في كل لحظة معنى متجدداً للحياة ، وتترك له في كل خطوة نفحة عاطرة معطرة ، حتى لقد لمس السعادة وأحس بها . لمسها بيديه ، وأحس بها في وجدانه .

وهو في استطاعته الآن ان يؤرخ لهذا التطور الذي طرأ على تفكيره وعلى نظرته للحياة ، لقد صدقت أمه ، ولم تبعد عن الحقيقة عندما قالت له « ان عبد الحميد كان وجه الشؤم في القضية . لقد اثار فيه الرجل كل انفعالاته، ونفض عن ماضيه غبار النسيان فعاد يجتر آلامه السابقة منذ ان اعاد صلته بعبد الحميد .

ترى اين تلك الايام التي كانت زينة عمره وبهجة حياته ؟

بل أين ابتسامته التي كان يستقبل بها المجهول من دنياه ؟

لقد أحس فعلاً بالتغير ، احس به منذ ان اعاد صلته بعبد الحميد .

وصعّد تنهيدة من اعمق اعماقه ، ولفه الصمت الحزين وهو يمسك بعجلة القيادة في سيارته متجهاً نحو عمله ، بعد ان ترك امه في المنزل وحيدة تفكر هي الاخرى في الحديث الذي دار بينهما قبل لحظات .

وأهدافنا في الحياة ..

وعاد يفكر .

ما هدفه بعد اليوم ؟ لقد عاش منذ خمس سنوات في بهجة لا تدانيها بهجة ، كل اهدافه ان يحقق في لحظـــة رغبات اعوام ، بل رغبات عمر بكامله ، فما باله يحطم ما بناه وسهر في تشييده الليالي الطوال ، يذروه في الرياح – كأن لم يكن – في لحظة يأس ، لحظـة حملت له من الماضي البعيد صور آلامه ، سحابة سوداء ، بدت له في الافق فكدرت عليه صفاء ايامه وعكرت عليه صفو لياليه، سميرة وكمال وأسرة ثرية ، تطل من عليائها على هذا الصبي اليتيم ، نظرة لا تحمل معنى التقدير والاحترام قـــدر ما تحمل معنى العطف .

وفي الجانب الآخر ، هناك في احد الازقة المتواضعة، اسرة صغيرة تقوم الام فيها على تربية ولديها ومنزل متهالك متهدم ، وصبي يحمل حقيبة كتبه يتبعه اخوه كل صباح من البيت الى المدرسة ، ومشاهد الكفاح المرّ تجري أمام اعينهما،ونبضات القلب الصغير تزداد قوة امام هذه المشاهد، ماكينة الحياكة تجلس اليهـــا الام طيلة نهارها وجزءاً من الليل لا تغادرها الا الى خدمة ولديها الصغيرين وواجبات المنزل الاخرى . شريط طويل سجلته ذاكرته لحياة الاسرة الماضية .

وتوالت المشاهد امام ذاكرته في ترتيب وانتظـام وهو ما زال صامتاً يمسك بعجلة القيادة بحذر واعصاب مشدودة متوترة .

وكانت الشوارع التي يجتازها كثيرة الالتواءات تتفرع من جوانبها شوارع جانبية صغيرة ، فكان يهدىء من سرعة عربته كلما اقبل على تقاطع جديد « ولا يدري لماذا زاد من سرعة سيارته بعد ان وقع نظره فجأة على رجل يقف بجانب الطريق ،وكاد ان يدهس بهذه السرعة المفاجئة صبياً ، يقود عجلته على يمين الطريق .

وارتبك للحادث الذي كاد ان يقع ، ووجد نفسه مضطراً الى ان يوقف السيارة برهة على جانب من الطريق ، وتنفس بعمق بعد ان أطفأ ماكينة السيارة واستند بكلتا يديه على عجلة القيادة وعاد يستذكر صورة الرجل الذي رآه . انه يعرفه ، او يعرف من يشبهه . وبحث عن الصورة بين مئات الصور التي يحتفظ بها في ذاكرته وسرعان ما تذكر . انه الشيخ عبدالله والد صديقه كمال او هو شبيهه، انه يحمل سماته ، سماته التي ما زالت منطبعة في ذاكرته بكل تفاصيلها ،وخيل اليه ان الرجل كان يبتسم ، ولكن لم يبتسم ؟. لقد استطاع حقاً ان يلمح ابتسامة على ثغر الرجل اثارت فيه كل كوامن آلامه .

وضاق صدره وهو يستند الى عجلة القيادة ، جاداً في استعراض ما مر به قبل سنوات .

ركام النسيان ،وصور متلألئة من حاضره يزيحها بتصميم عن ذاكرته ليستعرض الماضي البعيد .

وبعد ان طالت وقفته عاد يتساءل :

واين الشيخ عبدالله الآن ؟ انه قعيد المنزل .

وادار محرك السيارة في تخاذل مستأنفاً سيره الى المكتب، وقبل ان يجتاز مدخل العمارة بعد ان اقفل سيارته ، سمع من ورائه صوت نبيل وهو يناديه في لهجة باسمة متوددة . والتفت كالمذعور يواجه الابتسامة على ثغر الرجل، الابتسامة التي كانت احدى سمات الاسرة . وتذكّر ابتسامة سلوى وابتسامة امها ، كل جو الاسرة ابتسام وتفاؤل حتى هو قد اصبح بالعادة والتعوّد مبتسماً ومتفائلاً .

وبعد ان طالت وقفته عاد يتساءل :

ولكن ...

وتنهد في ضجر كأنما يواجه ابتسامة صفراء من رجل غريب لا يعرفه . وتوقف الى ان وصل اليه نبيل وقد مدّ يمناه اليه يحييه تحية الصباح . ومدّ هو الآخر يده ولكن في تخاذل .

قال نبيل بعد ان استرد يمناه واعادها مرة اخرى على كتف اسماعيل في حركة تشي بالحب :

— لقد تأخرت اليوم قليلاً ، ما اخبارك ؟ انا على العكس منك لقد احسست بالنشاط منذ الصباح الباكر ، وقد مررت علي عمارة البغدادية ثم عمارة الكندرة، واخيراً ذهبت الى البنك وهأنذا امامك بعد ان انجزت اعمالاً كثيرة في الساعات التي مرت من هذا الصباح . (وبعد فترة صمت) هه ما اخبارك انت ؟ (ثم مبتسماً) اني

انتظر منك الاخبار السارة .

واطرق اسماعيل صامتاً بينما استطرد نبيل :

ـ لقد كانت العائلة في زيارتكم ليلة البارحة ، لقد عرفت طبعاً .

وودّ اسماعيل من اعماق قلبه ان لو تذوب الابتسامة او تتلاشى فترة قصيرة عن ثغر الرجل ، فترة مهما كانت قصيرة فهي تكفي حتماً لينطق باجابته ، الاجابة التي أعدها والتي رددها لأمه قبل قليل .

وكأنما كان ضميره يقف ضده فقد وقف متردداً بيد انه تشجع بعد ان اطرق نبيل منتظراً اجابته ، فقد قال :

ـ لقد تحدثت مع امي قبل قليل في هذا الامر .

ورفع نبيل رأسه ينظر اليه في ترقب بينما استطرد هو :

ـ ان الامر يحتاج الى تفكير ، واني آسف اذ اقول ذلك ، واخشى ان يطول الانتظار .

واختلج وجه نبيل وهو ينظر اليه ويقول :

ـ لم افهم بعد .

فأطرق اسماعيل قبل ان يستأنف حديثه :

ـ هناك أمور كثيرة يجب تسويتهـا قبل ان نبت في امر سلوى .

واستعاد نبيل ثقته في الامل الذي يرنو اليه فقد ابتسم قبل ان يقول :

ـ ليس هناك استعجال في الامر . وانما اقصد الارتباط

قبل سفر سلوى . انها سوف تغيب ستة شهور ، وأنت تعرف على كل حال موقفي كوالد .

فردّ عليه اسماعيل في ذات اللهجة المترددة :

— ولماذا لا نؤخر الامر الى عودتها .

فعاد نبيل وقد عقد ما بين حاجبيه كمن يفكر في أمر استعصى عليه فهمه :

— ولكن ما السبب ؟ اني فهمت غير ذلك ، وسلوى نفسها قد فهمت غير ذلك ، ويسرنا جميعاً ان ننتهي من هذا الامر قبل ان تسافر سلوى بصحبة والدتها .

وعاد اسماعيل خطوة الى الوراء وقد زال ارتباكه ولكن سمات الانفعال كانت واضحة على وجهه وقال :

— ولكن ماذا فهمت انت ، وماذا فهمت سلوى ؟

وتراجع نبيل هو الآخر خطوة الى الوراء واتجه بنظره الى الخارج عبر باب العمارة قبل ان يقول :

— ولقد عرفت من زوجتي بعد عودتها ليلة البارحة بأن والدتك قد فهمت هذا الفهم كذلك ، ولم اكن اشك في أن هذا هو رأيك .

وودّ اسماعيل ان يتراجع عما قاله او ان يبث في نفس نبيل حالة من التشكك في فهم ما قاله . بيد ان نبيل استطرد قائلا :

هل افهم من ذلك انك متردد في خطبة سلوى ؟

وصمت اسماعيل بينما استطرد نبيل وقد شبك كلتا يديه

على صدره :

ــ ولكن ... (وبعد فترة صمت وفي لهجة هامسة) ماذا اقول لها ؟

فسارع اسماعيل :

ــ ولكني غير متردد ، فقط اطلب الانتظار .

ــ الى ما بعد ستة اشهر اخرى،وهذه الاعوام الطويلة التي مرت يا اسماعيل ألم تكن كافية ؟

فابتسم اسماعيل ابتسامة المهزوم ولم يتكلم ، بينما ضرب نبيل كفاً بكف كاليائس وهو يردد :

ــ اني لم افهم بعد ، بالرغم من تجاربي الطويلة في الحياة (ثم ملتفتاً الى اسماعيل) هل من الممكن ان نتحدث في الامر مرة أخرى ؟

وحينما اجابه اسماعيل بتحمس (نعم بكل تأكيد) ، عاد نبيل متجهاً الى باب العمارة في خطوات بطيئة بينما اتجه اسماعيل الى مصعد العمارة .

١٨

ضمّ اسماعيل الورقة التي كانت بين يديه والتي فرغ وشيكاً من كتابتها ، الى مجموعة الورقات الأخرى على طرف المكتب ، واعاد وضع الثقالة على كامل المجموعة ، واستأنف الكتابة على ورقة جديدة . ثم ما لبث ان وضع القلم على الورقة في تأن وهدوء وراح يفكر .

متى يفرغ من هذه الرسالة ؟ انه يشعر — هو ذاته — بعدم الاقتناع بما جاء فيها ، ومع ذلك فهو مستمر في كتابتها يختلق الاسباب ويصطنعها بكد وجهد ، وهذا من غير شك سرّ الارهاق الذي يحسّه . انه لم يكد يفرغ من صفحة حتى يعود الى نفسه مفكراً فيما سيكتب في الصفحات التالية . لقد فرغت جعبته وخوى عقله من كل سبب مقبول يسوقه . ان ظاهرة الكذب التي اصطبغ بها الخطاب جعله يعيد قراءة كل سطر ثم يمط شفته ويهز

رأسه ذات اليمين وذات الشمال ويردد في سره « كذبة مكشوفة » ومع ذلك فقد كان حريصاً على ان يفرغ من كتابة الرسالة على اي نحو . ان ذلك يعني في رأيه خروجه من الدوامة التي عاش فيها خلال الايام الثلاثة الاخيرة ، منذ ان تحدث مع نبيل ذلك الحديث الخاطف على اتفاق في اعادة البحث .

لقد انتظر نبيل في اليوم الاول فلم يره ، ومر اليوم الثاني فلم يقع نظره عليه ، فأحس بأن وراء غيابه عن المكتب سراً يكاد يعرفه . وراح يتساءل في سره ويعلل غيابه ، وفي صباح هذا اليوم عندما سأل احد موظفي المكتب عن نبيل عرف انه عدل مواعيد حضوره الى مكتب الشركة من الصباح الى المساء ، اي في الفترة التي لا يحضر فيها هو . واذن فالرجل يتفادى مقابلته ، وتلك رغبته هو . لو ترك لنفسه حرية التصرف ، بيد ان بقية من شجاعة دفعته الى ان يصمد في موقفه ، ومع ذلك فقد أحس بالخور وهو يفكر فيما سيقوله للرجل اذا فتح باب الحديث في الامر .

وعاد يتساءل : وهل استطاع نبيل ان يحدث سلوى في الأمر ؟

ولم يخرج من تساؤله بما يطمئن نفسه .

فهو قد عرف على مدى السنوات التي اختلط فيها بهذا الرجل مبلغ ما يكنه الاب لابنته من حب كبير يستند

على الاحترام والفخار ، تؤكده نظرات رقيقة حنون عندما تتحدث سلوى او تبدي رأياً في موضوع معين .

بل ان قلب الرجل تعدى هذا النطاق من الحب المحدود فأصبح يحب اسماعيل ذاته ويفتقده في غيابه ويسأل عنه اذا تأخر .

جوّ هذه الاسرة يوحي بالحب ، ترى هل يجرؤ نبيل وهو ذو الحنان الدافق ان يواجه ابنته بهذه الحقيقة الجديدة التي اكتشفها في حديث اسماعيل ، حقيقة تردد اسماعيل في الامر الذي كاد ان يتحقق في أية لحظة خلال الاعوام السابقة ؟

وقبل ان يجيب على نفسه ، كان نبيل يدخل الحجرة بعد ان طرق على الباب مستأذناً في الدخول . .

وحياه الرجل في حرارة لا يعوزها الصدق وان كان يشوبها ألم خفي يبدو على سماته وقال مبتسماً :

— ربّ فرصة خير من ميعاد ، لم اكن اتوقع وجودك ولم أرك خلال الايام الثلاثة الأخيرة . قل لي يا اسماعيل كيف حالك ؟ (ثم في لهجة المعتذر) لقد انشغلت خلال هذه الايام بالتجول على أعمالنا التي لم تنجز بعد . ان جميعها تسير وفق تقديراتنا وخططنا المرسومة ، وكنت احضر الى هنا بعد عصر كل يوم ولهذا لم ارك (وبعد فترة صمت رفع بصره الى اسماعيل في حنان . ذات النظرة التي تحمل العطف والحب) اشتقت اليك كثيراً يا اسماعيل

وكنت انتظر زيارتك المعتادة لنا بالمنزل ولكن ...
فسارع اسماعيل يقول في لهجة توكيدية :
ـ ارجو ان لا تكون قد تأثرت بحديثي الاخير ، او ان تكون قد فهمت منه ما لم أقصده .
ولم يجبه نبيل . راح يفكر في هذا القول . ان احساسه يهتف به « لا تصدق » بيد ان عاطفته نحو اسماعيل وتجربته الطويلة به يؤكدان له صدقه ، ان اسماعيل لا يكذب . وعاد الى نفسه يوازن في صمت بين الاحساس الخفي والعاطفة.
وعندما نظر اسماعيل الى ساعته تساءل نبيل :
ـ هل تنتظر أحداً ؟
وأجابه اسماعيل بالنفي فاستطرد :
ـ لنخرج اذن .
ونهض اسماعيل بعـــد ان جمع اوراقه وأودعها جيب ثوبه . وسار الاثنان متجهين الى الباب في صمت ضاعف من وحشته هدوء حجرات المكتب الأخرى ، لقد كانت خالية ومظلمة يظللها الهدوء العميق،وكان الحارس العجوز يجلس على مقعده في الطرف القصيّ من البهو ، وقـــد امسك مسبحته في يمناه مغمض العينين ، وكان ما يلبث بين فترة واخرى ان يرفع رأسه الى الحجرة المضيئة كأنما ينتظر أن يغادرها الاثنان فيفرغ الى نفسه . وما ان سمع دبيب الخطوات داخل الحجرة حتى تحرك في مقعـــده في هيئة استعداد . وعندما انفتح الباب نهض في نشاط ورفع

يمناه يودعها في ابتسامة . فهمس نبيل في اذن اسماعيل :
— هذا هو السعيد .
فرد اسماعيل وهو يلقي نظرة جانبية عابرة على الحارس:
— ليتني مثله .
فضحك نبيل قائلاً :
— هذا ما يقوله هو ، ويحدث به نفسه الآن « ليتني مثلهما » نحن في نظره سعداء وهو في نظرنا سعيد ، ولا يحس واحد منا شقاء الآخر (ثم صعد تنهيدة من صدره وصمت) .
وصمت اسماعيل هو الآخر متشاغلاً يتحسس الاوراق التي وضعها في جيبه .
وعندما وصلا الى باب الشارع اتجها الى الزقاق الجانبي حيث اوقفا عربتيهما . ووقفا يفكران ،ثم ما لبث ان قال نبيل :
— اترك سيارتك وتعال معي وسأوصلك الى سيارتك عندما نعود .
وكانت الشمس قد غربت وشيكاً ، مخلفة وراءها بقايا من أشعتها الغاربة ، تشوبها حمرة الشفق التي لونت الافق، فبدت الكائنات تحت امتداد الافق العريض كأنما اكتست بوشاح شفاف لا يستر ما خلفه قدر ما يضفي عليه فتنة المنظر وروعة المظهر .
واحتل نبيل مقعد القيادة كما جلس اسماعيل الى جواره،

وصمت الاثنان كأنما كان ينتظر كل واحد من صاحبه ان يفتتح باب الحديث. كان جوّ الانتظار بينهما يوحي بالتفكير في صمت وهدوء، وكان كل منهما يفكر فيما يعنيه وبالطريقة التي اختارها . لقد كان الأمر الذي يفكـــر فيه كلاهما واحداً ولكن الجانب المنظور بالنسبة لكل منهما كان مختلفاً. لقد كان أشبه بكرة وضعت بينهما يرى كل واحد منهما ما لا يراه الآخر .

لقد كان الاحساسان متباينين حقاً . كان اسماعيل يفكر فيما بقي عليه من الخطاب ، يفكر فيما سيكتبه ، أما نبيل فقد كان يدور تفكيره في ما قاله اسماعيل قبل لحظات ، انه حائر بين التصديق والتكذيب .

وكأنما أحس الاثنان بثقل الصمت فسارع اسماعيل وادار بحركة من يده مفتاح المذياع فارتفع صوته وظهر على سماتهما وشي رضا بهذا الصوت المرتفع كأنما هي محاولة من كلا الطرفين يحجب بها صوت تفكيره . وسرح كل منهما مع نفسه والسيارة تنساب في هدوء ، عبر الشوارع المؤدية الى شمال جده حيث المقاهي المتناثرة على جانبي طريق المدينـة المنورة . وعندما اجتازت العربة في سيرها البطيء الشارع الرئيسي الذي يتفرع منه مدخل الشارع الذي يقطن به نبيل. كان اسماعيل يلتفت الى يمناه في نظرة عابرة، نظرة كادت تنزح من عينه دمعة ، فسارع وادار نظـــره الشارد الى الامام . ها هنا في دائرة قطرها عدة أمتار يربض منزل

بسيط تظلله الاشجار من جميع جوانبه ، يضم بين جدرانه أعز ذكريات وأجمل أحلام رفت على أهداب حالم، عاش فترة بين هذه الجدران التي لا ترتفع كثيراً،اجمل ربيع ، وأثمن حصاد لعمر شاب .

ما سرّ التحول في شعوره ؟ هو لا يدريـــه . كل احساسه ان هاتفاً يهتف به من أعماقه ويقض عليه مضجعه ويعكر عليه صفو حاله . لماذا لا يتزوج من اسرة غنية ؟ كان هذا التساؤل،مدار تفكيره بل عقدة حياته الحاضرة، لقد كان المال سبب آلامه حينما كان يقطن ذلك المنـزل المتهالك ويحيا تلك الحياة المتواضعة في مطلع فتوته ، وهو اليوم سبب شقائه . لقد ارتفع رصيده من الاعمال الناجحة المتتالية وطار صيته وامتد في سرعـــة مذهلة ، وعاد بعد انقطاع اعوام صديقه القـــديم الذي استقبله في اول يوم يستقبل فيه العمل، عبد الحميد ذلك الكهل الذي أخذ على عاتقه نقل الاخبار اليه كما كان ينقلها اليه وهما يجلسان على مكتب واحد بوزارة المالية .

وبدت سلوى أمامه . فالتفت الى نبيل يسأله :

ــ وهل تحدثت الى سلوى ؟

ومدّ نبيل يمناه الى مفتاح المذياع وأقفله قبل ان يقول في لهجة تشوبها رنة حزن دفين :

ــ سلوى ؟ انا لا استطيع ان اواجهها (ثم في لهجة تساؤل) الا ترى من الافضل ان تحدثها انت،وسأصارحها



وسرح اسماعيل مع نفسه ، والسيارة تنساب في هدوء ...

فيما بعد بما فهمت منك . المهم الآن هو أن تبدأ معهـــا الحديث .

وتساءل اسماعيل وهو يلتفت اليه متمعناً فيه بنظرة طويلة :

— وماذا فهمت من حديثي ؟

— انك متردد في الامر . ان من مصلحتها ان تعرف ذلك . تصور انها كانت تتحدث عنك كما لو كان الامر قد انتهى بحثه وتمّ الاتفـاق على جزئياته ودقائقه . (ثم مصمص بشفتيه في أسف ظاهر) يبدو أنها أخطأت التقدير واساءت الفهم (ثم ملتفتاً الى اسماعيل التفاتة عابرة) وما رأيك في ان تحدثها الآن ؟

وقبل ان يجيبه كان قد ادار عجلة القيادة الى عكس الاتجاه الذي كان يسير فيـــه ، عائداً من حيث أتى ، وضاعف من سرعة العربة وهو صامت ، وما أن وصل الى مدخل الشارع الذي يقطنه حتى هدأ من سرعة السيارة قليلاً ، ثم التفت الى اسماعيل بعد ان صعد تنهيدة عميقة شفعها بابتسامة لا تنم عن السرور قدر ما تشي بالارتياح كمن يلقي حملاً ثقيلاً ناء به كاهله وقال :

— اسلم طريقة ، ابدأ أنت الحـديث واترك لي الباقي الى فرصة أخرى .

وكاد اسماعيل ان يتكلم ولكنه صمتَ صمت المستسلم أمام الامر الواقع ، لم يستطع ان يقول لا او يقول نعم .

ما أسرع ما تطورت الامور ، كأنما كان مع المفاجآت

على موعد ، على مدى أيامه منذ ان ترك المدرسة صباح ذلك اليوم كان يحمل فيه حقيبته ، مفاجأة اثر مفاجأة ، وتطور سريع متتال . احداث صغيرة وأخرى كبيرة حملت كل منها مفاجأة ذات لون جديد ، كان يواجه كل ذلك بنفس مبتهجة وقلب متفتح وثغر باسم لقد كانت الاحداث ذاتها ، ذات الوان بهيجة وكان التطور دائماً الى احسن، لم يكن في يوم ما الى أسوأ ، لقد حمل له كل غريب . الطفرة هي خطوات حياته،وكل غريب من الامور كان حدثاً من احداث حياته . ترى هل انتهى الى القمة والذروة من احداث الحياة السعيدة،فاستقبل منذ يومه السفح هبوطاً سيتلوه هبوط ؟

لقد كان هناك على مدى الافق البعيد ، مجهول كان يتوقعه ، لقد حدسه كأنما هو الالهام او البصيرة الكاشفة، في ذلك اليوم البعيد ، يوم ان ضمه المجلس بأمه وأخيه منصور وكان عمله الجديد مدار حديثهم ، وما لاحظاه من التغيير الذي طرأ على شكله ، اشتداد سمرة وجهه وخشونة يده ، لقد قالت له امه : « غداً تحكي لأولادك ما مرّ بك في حياتك » . لقد تساءل وهو لا يدري لم تساءل « هل يقدر لي ان اروي قصة حياتي ؟ ولمن ؟» واستطرد كأنما يجيب على نفسه « سوف أكتبها ليقرأها الناس » .

ترى هل يتحقق المجهول الذي توقعه ؟. لقد نسي في

غمرة الاحداث والمفاجآت التي لم تترك له فضلة من الوقت يفكر خلالها في نفسه أو في حياته ، نسي ذلك الحديث عبر السنوات الاخيرة التي عاش كل لحظاتها ودقائقهـــا بروح المتعجل الذي اعتاد الطفرة والقفزة .

وفي هذه اللحظات وهو قادم الى المنزل الذي شهـــد مولده في مطلع أمسية ندية عاطرة ، قادم اليه في عربـة مسرعة ، لا عربة بطيئة ولا مشياً على الاقدام ، ترى هل هو مقبل حقاً على تحقيق ما توقعه بذات الخطوات السريعة المتعجلة . وهل سيخط بيده الليلة نهاية فصل من فصول قصته ؟. ربما سيكون الفصل ذاته، ذلك الذي كتب بدايته في هذا المنزل منذ سنوات .

وأوقف نبيل السيارة والتفت اليه كأنما يستحثه بالنظرة ان يغادر مقعده وهبط مستقبلاً باب الفناء وقبل ان يصله كان صوت العربة يبتعد عنه على مهل . وضغط الجرس وسرعان ما فتح الباب وكان الخادم الصغير يستقبله بابتسامة وكلمات ترحيب وارسل نظرة متفحصة على الفناء الفسيح الذي تظلله الاشجار من جميع جوانبه . وسرعان ما استقرت عيناه على « سلوى » وهي تقف بالشرفـــة تبتسم له في بهجة تكاد تطفر من عينيها الجميلتـــين فغض من بصره وازداد وجيب قلبه، ولم يجد بداً الا ان يرد عليها بابتسامة رسمها بتصنع على ثغره . واقبل عليها في خطوات بطيئـة كمن يقبل على حتف يتوقعه وحياها بارتباك حاول جهـد

المستطاع ستره،وقربت اليه أحد المقاعد المتناثرة بعد ان وضعت على طرف المنضدة كتلة الخيوط الصوفية والابرة التي كانت تمسك بها ، قائلة له في صوت مغرد يشي بسعادتها وبهجتها المتزايدة « تفضل » . وما ان جلس حتى اشارت الى القطعة المنسوجة متسائلة :

– ما رأيك في هذا اللون . بلوفر رائع (ثم ضاحكة) وتزجية فراغ (وبعد فترة صمت) : لقد قرأت اليوم رواية سوف تعجبك لقد تذكرت احدى فقراتها الآن ، فقد وصف المؤلف بطلة الرواية وهي تمسك الابرة باحدى يديها سارحة مفكرة وكان طفلها الصغير يسرح امامها في مرح « بأنها بينما تنسج بيديها سترة صوفية لابنها كان خيالها ينسج خيوط ايامه المستقبلة ، ومع ذلك فهي لا تستطيع ان تتخيل الصورة الكاملة ، ان الخيال على اي حال لا يحيط بصورة واضحة للمجهول،كل قدرته تتمثل في تصور الجزئيات المتناثرة التي لا يجمع بينها رابط » (وضحكت قبل ان تستطرد) على أية حال فان لشغل الابرة فائدة مزدوجة،المنفعة التي اجنيها من قطعة الصوف التي أنتجها وانفرادي بنفسي ، في سبحات من التفكير اللانهائي (ورفعت اليه بصرها مستطردة) ما أجمل ان ينفرد الانسان بنفسه يستعرض ماضيه ويتخيل مستقبله (ثم في لهجة تساؤل) قل لي هل لديك فرص تفكر خلالها على هذا النحو ؟

وفرك يديه في حيرة ، هناك ماض يؤرقه التفكير فيه. أما مستقبله ؟ أي مستقبل أبقاه له خياله المـــريض ؟ ما أشقاه وهو يمسك المعول في يمناه يحطم هذا الذي بناه على مدى الايام السعيدة ، لحظة الشقاء تمحو من دنيـــاه كل الرؤى المبهجة ، هو الآن أعمى لا يبصر ، خبط عشواء في ظلام دامس .

ولم يحر جواباً ومع ذلك فقد أجاب في صوت ملجلج شفعه بابتسامة باهتة :

– وهل بقي لدي وقت للتفكير ؟امامي شهور وشهور حتى أنتهي من المشاكل .

ونظرت اليه متسائلة في تعجب :

– أية مشاكل تعني ؟ عهدي بك حلال المشاكل : اني متتبعة حياتك وليس فيها ما يعز عليك حله . (ثم في لهجة تساؤل) أم هناك ما لا اعلمه ؟

فردّ عليها بعد ان عاد الى نفسه مفكراً :

– لقد رسمت لنفسي هدفاً منذ ان بدأت العمل ، بل درجة معينة فرضت على نفسي الوصول اليها ، وانا الآن في منتصف الطريق ، هذه مشكلتي .

وازداد استغرابها ، هذا وافد جديد لم تعرفه ، وهي مدركة اشد الادراك بأنها لم تفهم ما يعنيه فقالت وما زالت سمات الدهشة ترسم على وجهها تساؤلاً اثر تساؤل :

– لم أفهم ما تعنيه . هل تقصد درجة معينة من الناحية

المادية .

ولم يجد بداً الا ان يقول :

– نعم .

فضحكت :

– هذا كلام جديد .

– بالنسبة لي احساس قديم .

– ولكني لم اسمعه منك قبل اليوم .

– ربما .. (وبعد ان امسك بيمناه مقدمة جبهته استطرد) هناك كلام لا يقال .

فقاطعته وهي تبتسم في تخاذل :

– كلامك اليوم بالرموز .

وأدار وجهه نحو الحديقة كأنما يستمد القوة التي تعوزه من خلال لحظة التفكير ، وقال بعد ان التفت مرة أخرى مقطباً جبينه :

– سلوى ، هل سبق ان اتفقنا على شيء معين في الزواج ؟

وغاض الدم من وجهها فجأة . وشعرت بالجفاف في حلقها وهي تردّ عليه :

– ماذا تقصد يا اسماعيل ؟ أوضح ما تريد ، أنا لم افهم بعد ما تعنيه .

فردّ عليها وقد بدا على وجهه سمات عذاب باطني :

– أقصد هل حدثتك في يوم ما – منذ ان عرفتك –

ان لي رغبة في خطبتك ؟

ورفعت رأسها في كبرياء قبل ان تقول في لهجة جادة رصينة :

— وما هي المناسبة ؟ أوضح من فضلك ، هل حدثك أحد في هذا الأمر ؟

وصمت مفكراً بينما استطردت سلوى بنبرة تشي بالالم الممض :

— أخشى ان يكون والدي قد حدثك في امر كهذا . ولكني اقسم لك يا اسماعيل بأني لم احدثه في هذا الامر. وهل من المعقول ان اتحدث فيه ؟ ما معنى ذلك ؟ انه الهوان في نظري . اذا كان لي ان اتحدث فيه فمعك وحدك (واطرقت الى الارض وقد أحست بارتجاف اطرافها تحت وطأة الانفعال) وما لبثت ان رفعت رأسها وقد حال لونها الى احمرار قان وقالت « أنا آسفة لسوء فهم وسوء تصرف وقع فيهما ابي،ومع ذلك فكل ما أرجوه ان لا يؤثر هذا الذي حصل في شركتكما . اني اؤكد لك بأنه لم يؤخذ رأيي في الموضوع ، والا لكان غير ذلك بالمرة .

ومع شعوره بالخطأ الذي وقع فيه من تعجله ، الا انه تساءل :

— غير ذلك بالمرة ؟

— نعم ، اذا كان هناك تجاوب وتعاطف وتفاهم ، فان هناك اموراً كثيرة يجب ان تدخل في الحسبان . ان

امور الزواج – في نظري على الأقل – لا تؤخذ بهذه البساطة ، انها لا تؤخذ بالوساطة ، او الحديث من وراء حجاب . نعم لقد شعرت وما زلت أشعر نحوك بفيض من الاعجاب ولكن هذا لا يعني ما فهمته (وبعد ان اطرقت برأسها عادت تستأنف حديثها) أتريدني اكثر صراحة ، اصدقني الجواب اذا سألتك : ألم تفكر أنت في خطبتي عبر هذه السنوات الطويلة ؟ تكلم يا اسماعيل ، لقد أحسست ذلك منك مرات ومرات ، ان قلبي لا يخطئه الاحساس الصادق،ومع الأسف فقد أخطأني التقدير الصحيح . لقد كنت انتظر منك الكلمة . نعم ، ولكن لم يكن منتظراً ان اقول انا هذه الكلمة . (ورانت على وجهها سمات حزن وهي تستطرد) ما أسرع ما تغيّر الحال ، لقد لاحظت عليك اشياء في الشهور الأخيرة وذهبت بي الظنون كل مذهب ، ومع ذلك فقد كذبت نفسي بل عدت عليها باللائمة ، لقد احسست ان هناك شيئاً في الجو،سحابة بدت خفيفة متطايرة مع الريح ولكن ما لبثت ان اسودت وثقلت اطرافها . وبقيت انا حائرة ادور في حلقة مفرغة اعلل النفس واقول سحابة صيف ، هي متاعب الحياة واحداثها ولكن – واصدقك القول – لم يصل تفكيري إلى هذا الذي تقوله . اذن هناك شيء جديد اصدقني احساسي به وكذبته عاطفتي (وصعدت تنهيدة من صدرها وهي سارحة بأفكارها شاردة البصر عبر

الافق البعيد)نعم،نحن لم نتحدث في هذا الامر بلغة الكلام ولكن ...

وسارع اسماعيل يتمول في صوت متأثر بالموقف :

— انا لم اقصد هذا الذي تقولينه، انما اعني ان نؤجل الموضوع إلى عودتك من الرحلة .

وقاطعته بصوت ثابت النبرات:

— لتفكّر في الموضوع ؟ فيم اذن سؤالك ؟ اما من ناحيتي فأني سأفكر كذلك . واعود فاؤكد لك انــي لم أتحدث مع احد في هـذا الموضوع ، وليس لسواي الحق في ان يتحدث فيه (وتناولت منديلها الموضوع على طرف المنضدة ومسحت به جبهتها ثم استسلمت الى الصمت تنظر ما بين آونة وأخرى الى اسماعيل ،وكان هو قد بدا كمن فوجىء بأمر لم يكن ينتظره . انه يعترف بكل ما تحدثت به ، الصدق في كلامها لا يعوزه الدليل ، وللعيون حديث لا يقل وضوحاً عن لغة اللسان .

وكأنما لاح لها الماضي وهي تنظر إلى اسماعيل ، انها لم تكن تتوقع هذا التغيير المفاجىء ، من طرف الى طرف هكذا انتقل الثقل ، ما اشقاها وهي تفكر في الأمر على وضعه الظاهر ، ولكن ، ما سر هذا التحول ؟

ورفعت عينيها اليه تتساءل بعد ان طال صمته :

— ألا تذكر ؟

وعندما استوضحها بنظره استطردت تشير الى اطراف

الشرفة التي يجلسان عليها :

– هنا في هـذه الشرفة بالذات،لقد قلت لك « ليس المهم ان تراها وتعجب بها وانما المهم ان تتقارب الطباع وتتفق الاتجاهات » . فعاد يتساءل في نبرة المتعذر :

– وهل لديك شك في حقيقة شعوري ؟

فصمتت برهة قبل ان تقول :

– كن صريحاً معي ، وعهدي بك لا تكذب .

ونكس رأسه وقد غامت المرئيات أمام عينيه ، وعندما رفع رأسه رآها سارحة شاردة بفكرها بعيداً عنـه ولكن نظراتها كانت متجهـة اليه . واستطاع ان يرى من بين اهدابها لمعان دموع حبيسة لم تنطلق بعد . فارتجف قلبـه وزادت دقاته واستشعر الجبن والتردد في ان يقول كلمة، أي كلمة ، فعاد الى صمته ، بينما استطردت سلوى :

– لقد فهمت ، لم يكن شيء بيننا يا اسماعيل، وأنت على حق ، لقد أخطأني احساسي قبل ان يخطئني التقدير. هناك شيء واحد فقط من الممكن ان ابوح به الآن، اني اعترف بأني (ولم تكمل ، بيد أنها استبدلت بلهجتهـا لهجة جديدة) اني اتمنى لك السعادة في حياتك المقبلـة.

فقاطعها في نبرة حزينة :

– أية سعادة تعنين ؟

فردت عليه :

– اني اعذرك على كل حال . ربما كانت هناك دوافع تملي عليك هذا الموقف .

فسارع قائلاً :

– ربما تزول .

فردت عليه وهي تبتسم ابتسامة باهتة :

– أخشى ان لا تزول .

– هذا حكم سريع .

فشردت ببصرها :

– لقد حكمت به منذ ان رأيتك .

ثم همت واقفة وهي تنظر الى ساعتها قائلة :

– لقد طالت جلستنا ، (ثم ملتفتة الى الباب على صوت سيارة أبيها) لقد وصل أبي ، استأذنك .

فسارع اسماعيل يشير اليها بيمناه ان تنتظر وهو يقول :

– بهذه السرعة تحكمين الحكم النهائي ، ان القضية تحتاج الى تفكير من كلا الطرفين .

فرفعت رأسها اليه تنظر في صمت وتساؤل ثم ما لبثت ان مدت يدها اليه فصافحها بتخاذل ، وراعه ما أحس بكفها من برودة شديدة . ولم يفته ان يرفع بصره الى وجهها ، وخامره احساس بالحزن وهو يرى اصفرار وجهها وكأنما هي في دور نقاهة اثر مرض طويل .

وعندما وصل اليها نبيل ، كان اسماعيل يغادر الشرفة وسار بجوار الاب صامتاً الى ان ركب السيارة .

١٩

تساءلت عزيزة وهي تحتل المقعد بجوار سرير ابنها :

ـ ماذا قال الطبيب ؟

فالتفت اليها اسماعيل مبتسماً :

ـ لقد صرّح لي بالخروج . كما سمح لي بالعمل في حدود ساعتين فقط (ورفع قبضته امام عيني امه) الحمد لله ، اني اشعر بتقدم صحتي (ثم استدار الى شماله ومدّ يده الى انبوبتين فارغتين من الدواء وناولها لامه واستطرد) لقد فرغنا من هذين النوعين ولم يبق الا هذا الدواء سوف استمر على تناوله . (وبعد برهة صمت استطرد وهو يرفع الوسادة ويتناول ورقة مطوية قدّمها الى امه) وهذه بشرى ثانية ، برقية من منصور ، لقد نجح والحمد لله ، بعد عامين آخرين سينتهي من دراسته ويكون معنا هنا ،سيحتل مكاني في الشركة ويتولى اعمالها ،

وسأحيل نفسي على التقاعد .

وابتسمت امه بعد ان اشرق وجهها بالبشريات المتتالية بيد انها قالت في لهجة استنكار :

– تقاعد ، في هذه السن المبكرة؟ لقد كان المفروض ان تبدأ الآن حياتك العملية .

فقاطعها :

– لقد بذلت من جهدي خلال هذه السنوات ما يوازي جهد عمر بكامله ، وليتني نجحت .

فردت متعجلة وما زالت الابتسامة تضيء وجهها :

– وهل أعظم من هذا النجاح،صاحب شركة عظيمة ذات سمعة طيبة وصيت واسع . ان المستقبل العظيم ما زال ينتظرك ، انت الآن ما زلت في منتصف الطريق .

فالتفت اليها وقد ارتسمت على وجهه سحابة حزن وقال :

– ولكني فشلت في شيء واحد .

وقطبت عزيزة وهي تزوي ما بين عينيها بعد ان ابدلت بلهجتها لهجة جادة رصينة :

– عدنا للكلام المعاد ، سوف نكرر ما قلناه ونردد ما رددناه الف مرة . لقد قلت لك اترك الماضي ، اترك الامور بيد الله ، هذه ارادته وهذا قضاؤه ، كل شيء مكتوب نستوفيه دون زيادة او نقص . قل لي هل اكملت قراءة القصة الاخيرة .(ثم مدت يدها الى الكتاب الموضوع

فوق المنضدة وبعد ان قلبته بيدها مرتين استأنفت) ولكن ليس هذا هو الكتاب الذي كنت تقرأ فيه . اين هو ؟ (والتفتت يمنة ويسرة تبحث بعينيها في ارجاء الحجرة) .

فسارع اسماعيل ومدّ اليها يده بالكتاب قائلاً :

— هنا ، هذه هي القصة التي رويت لك طرفاً منها . اني لم انته بعد من قراءتها ، ومع ذلك فقد بدأت في قراءة الكتاب الآخر .

فتساءلت في لهجة استغراب :

— هل تقرأ كتابين في وقت واحد ؟ ما جعل الله لرجل من قلبين ....

— هذه عادتي (ثم عاد مبتسماً) القصة أقرأها في الليل ، اما هذا الكتاب فأقرأه خلال النهار . لقد اتاح لي المرض فرصة القراءة ، بعد ان هجرتها شهوراً طويلة. (ثم اشار الى المكتبة الصغيرة في ركن الحجرة واستطرد) المكتبة عامرة ، وجزى الله الاسباب ، بودي لو اكمل قراءة كل ما بقي من هذه الكتب . (ثم اشار الى الصف الاعلى من المكتبة) انظري لقد قرأت هذه المجموعة اول ما قرأت ، كان ذلك قبل خمس سنوات . لقد استوعبت كل ما فيها وكان النقاش يدور بيني وبين... (ثم توقف وخفض بصره) .

فبادرته امه قائلة في لهجة تشجيع شفعتها بابتسامة :

— تجربة من تجارب الحياة ، فلتكن لك درساً نافعاً

في مستقبلك .

— ولكني جنيت على نفس بريئة .

فاستعادت عزيزة سمات الجد قائلة في نبرة تأنيب :

— الخير في الواقع على كل حال، فلنترك هذا الموضوع.

— لقد كنت مخطئاً في تصرفي معها . ولو تريثت قليلاً ما وقع كل ذلك .

فردت في صوت مرتفع :

— لو ولو، سوف لا تنتهي من هـذا الحديث . اني سأترك لك الحجرة اذا أصررت على الحديث في هذا الموضوع.

والتفتت عزيزة على صوت الخادم وهي مقبلة تحمل في يدها قدحاً من الشاي كان قد طلبه اسماعيل قبل برهة ، وفي اجتيازها باب الحجرة كانت توجه حديثها الى عزيزة قائلـة :

— زوار في حجرة الاستقبال ، قدموا قبل برهة .

والتفتت عزيزة تنظر اليهـا في تساؤل بينما استطردت الخادمة قائلة :

— ثلاث سيدات .

وقامت عزيزة من مكانها وقبل ان تغادر الحجرة تدنت قليلاً نحو اسماعيل ومدت يمناهـا الى مقدمة جبهته تجس حرارته ، ثم قربت المنضدة نحو السرير حيث وضعت عليها قدح الشاي، وما لبثت ان غادرت الحجرة ومعها الخادم .

وما ان شعر اسماعيل بانفراده في الحجرة حتى استدار

الى الجهة اليسرى ورفع طرف الوسادة حيث أخرج خطاباً مطوياً بعناية يتكون من اربع صفحات ثم عاد لجلسته السابقة وأسند رأسه الى ظهر السرير ورفع ركبتيه قليــلاً حيث بسط ورقات الخطاب وراح يقرأ في تأن ، ويتوقف بين كل فقرة وأخرى حيث يشرد ببصره مفكراً ومستعرضــاً تاريخ هذا الخطاب معه،وكيف قرأه للمرة الاولى وحقيقة الانفعالات التي أحسّ بها وهو يمرّ على سطوره بنظراته المتلهفة .

كان ذلك قبل شهر تقريباً ، وبعد شهـرين من سفر سلوى الى بيروت .

في مساء يوم من تلك الايام الهادئة التي اعقبت انفصال نبيل عن الشركة بعد ان حصل على كامل استحقاقه في الشركة ، لقد ساد الاتفاق بين الطرفين نفس الروح التي سادت شركتها في العمل خلال خمس سنوات ، وغادر نبيل مقر الشركة بعد ان جمع كل اوراقه وودع اسماعيل بالتمنيات الطيبة التي نمت عن حبه .

في تلك الفترة التي اعقبت هذا الانفصال حيث اتجه نبيل الى استثمار ماله في شركة اخري ،كان اسماعيل يباشر عمله بالشركة في كل الاوقات ، والاشراف الكامل على كل جزئيات العمل وعلاقة الشركة بالعملاء .

وفي امسية من تلك الامسيات ، وبين زحمة الاوراق والموظفين، وقعت يده على هذا الخطاب بين اوراق رسمية

من اوراق الشركة،ففتحه دون عناية او اهتمام واستعرض بنظره السطرين الاولين ، وكاد ان يطويه ، فقـــد كان موجهاً الى نبيل من زوجته ، ولكن انسياب نظره عـــلى السطر الثالث دفعه إلى ان يعدل عن فكرتـه فسرعان ما استمر في قراءة السطور التالية ، وما لبث بعد لحظات ان ازاح كل ما أمامه من اوراق في حركة تشي بأهميـة ما ورد في الخطاب . انه يذكـــر انفعاله واضطرابه وذلك الاحساس الحزين الذي شعر به نحو مخلوقة كان لها الاثر القوي في حياته ، نحو سلوى التي كانت الى ما قبل شهور كل شغله الشاغل في حياته المزدحمة بالعمل والكفاح . لقد كانت في نظره إحدى دعائم كفاحه ، وواحة يستظل في افيائها ويستروح ظلالها كل ما شعر بمشقة العمـل ومرارة الكفاح ، لقد كانت نظرة واحدة منها توحي اليه بالتفاؤل والتشجيع وكل المعاني التي يفتقدها في لحظته .

لقد بدأ السطر الثالث من الخطاب بفقرة جديـدة من حديث الزوجة إلى زوجها :

« لقد سألتني عن سلوى ولماذا لم تكتب اليك ، واني أقول لك بصراحة وفي اختصار يغني عن الافاضة ان سلوى ابنتنا التي عرفناها قد انتهت . معي الآن سلوى اخرى ، ليس فيها من ابنتنا شيء ، لقد تلاشت تلك الابتسامة التي كانت احدى سماتها الأصيلة . اما تلك الروح المرحة التي تهفو دائماً الى كل جميل في الحياة فقد زالت واستبدلت

بروح أخرى لم نعهدها في حياتها السابقة ، الضجر والكآبة والتفكير المتواصل والجنوح الى الوحدة والصمت . ولقد حاولت خلال هذه الفترة منذ قدومنا الى بيروت ان أروح عنها باستعادة صلاتنا بأصدقائنا الذين انقطعنا عنهم خلال فترة غيابنا ، كما حاولت في مرات اخرى ان اصحبها في رحلات قصيرة الى قرى الجبل مع مجموعة من صديقاتها وزميلاتها السابقات ، ولكني فشلت فيما هدفت اليه ، ولم أوفق في ازالة هذا الطارىء الجديد الوافد على حياة سلوى. وفي الاسبوع الأخير بدأت تشكو من صداع ينتابها فترات طويلة وأنا اعرف سبب الصداع ، انه الارق الذي لازمها خلال هذه الفترة . ولقد عافت نفسها الاكل . وفي وجبات غذائنا العادية كانت تجلس الى المائدة وتمد يدها الى الطعام بنفس مترددة وما تلبث ان تغادر المائدة على عجل منتحلة اوهى الاعذار . وقد طلبت منها قبل اسبوع ان نعود طبيباً ليصف لها العلاج مما تشكوه بالرغم من اني اعرف السبب ، ولم نجد بطبيعة الحال علاج الطبيب وهي ما زالت الى الآن تشكو الشكوى ذاتها ، واني ارى حالتها تزداد سوءاً يوماً بعد يوم ، مما بث في نفسي القلق على صحتها المتدهورة ،واني اقترح عودتك لنتكاتف على ايجاد علاج لهذه الحالة فقد احسست انا الاخرى بتدهور صحتي . ان وجودك معنا ضروري واني لانتظر قدومك في اقرب فرصة . انك ولا شك تعرف الاسباب الحقيقية لهذه الحالة

فعسى ان يساعد وجودك معنا على شفائها . انها تسأل عن خطاباتك وتقرؤها بعناية وهي متتبعة خطواتك خطوة خطوة، وقـــد طلبت مني ان اكتب اليك كي تعدل عن عزمك الاخير في الانفصال عن الشركة ، لقد اخبرتني بأنهـــا طلبت من اسماعيل الاستمرار معك،وان لا يؤثر المـوقف الاخير في مركز الشركة . انهـا لم تتوقع ان تقوم انت بهذه الخطوة ولذا فقد طلبت مني ان اكتب اليك برأيها . ولقد يكون من الاجدى ان تخبرها لدى قدومك بأنك قد حققت لها هذه الرغبة،ربما يكون ذلك مرضاة لها في حالتها الحاضرة ، واني اكتب لك خطابـي هذا دون ان تعرف هي به ، كي تكون على علم بكل حالتها قبل قدومك .

لقد قلت لي في احدى رسائلك ان اسماعيل قد سألك عنها عدة مرات وانك تحاشيت إجابته ، ولقد اخفيت عن سلوى هذا الخطاب الذي وردت به هـذه الفقرة . واني لا اوافقك على ذلك بالرغم من موقف اسماعيل الاخير . لقد كان في الامكان ان تحدثه عن اخبارها لا لنستجديه شيئاً فموقف سلوى قد عرفناه ، انها سترفضه اذا تقـــدم اليها بعد ان حطّم كبرياءها وبعد ان أحست هي بخيبـة املها في أمر كانت ترنو الى تحقيقه ، هذا ما فهمته من احاديثها معي ، انها ما زالت الى الآن تعيش تحت تأثـير الصدمة العاطفية ، وان الجرح الذي لحقها اكـبر من ان يندمل ، هذا هو احساسي وأرجو ان لا يكون صادقـــاً

وان اكون مخطئة في هذا التقدير . لقد سألتها مرة : هل حدثها اسماعيل عن رغبته في الزواج منها ، فلم تجب . واني لاترك لك ان تتصور سلوى الصريحة معنا دائماً وقد لاذت بالصمت امام هذا السؤال ، ومع ذلك فأني اعجب لموقفها من اسماعيل . فقد حاولت مرة ان اصور شخصيته في حديث عابر بأسلوب مهذب بعيد عن الذم ، لقد قلت لها ان اسماعيل ليس هو الشخص الذي يمكن ان يكون مطمحاً لآمالها وإذا بها تغضب وتعتبر هذا الرأي مناهضاً لرأيها فيه ، لقد دافعت عنه وانتحلت له الاعذار لموقفه الاخير منها . واني لأرى دائماً خلف نظراتها الشاردة معنى أجهله ولم استطع تفسيره ، هل هو لوم نفسها على الانسياق وراء عاطفة أضلها التقدير الصحيح ؟ أم هو الالم لسوء حظها في تحقيق السعادة التي كانت تسعى اليها؟ اني حائرة ، واني اكرر لك عسى ان يكون وجودك معنا مما يساعد على مواجهة هذا الامر » .

وطوى اسماعيل الرسالة يومذاك واستدعى مراسل الشركة وسلمه الخطاب بعد ان وضعه في ظرف وختمه وأمره بتسليمه الى نبيل في مكتبه الجديد الذي يقع في منتصف الشارع ذاته . ثم عاد الى أوراقه التي ازاحها قبل قليل وجمع شتاتها وحاول عبثاً ان يستأنف عمله ، فقد أحس انه انتقل بتفكيره بعيداً عن هذه الحجرة ، وبعيداً عن مكتب الشركة ، بل بعيداً عن جدة .

لم يعد يشعر بالزمان او المكان اللذين يحتويانه، لقد عاد ثانية يستعرض تاريخه منذ ان تعرف على سلوى ، ايامه ولياليه ، ولحظات السعادة التي كان يستشعرها في تلك الفترة ، واحساسه بالحركة المستمرة في حياته . لم يكن هناك فراغ ، فقد كان عمله في الشركة وتفكيره في سلوى يستنفدان كل دقائق أيامه ولحظاتها، وكمن ينتبه من غفلته على قرعات شديدة توقظ أحاسيسه الغافلة ، فتح اسماعيل عينيه وتساءل : ما الذي عملت ؟ وأي حماقة ارتكبتها في حق هذه المخلوقة التي أشرقت على حياتي فأيقظت مواتها، وهزت في كياني أحاسيس الحب والخير والجمال ؟ لقد كنت سائراً في صحراء واسعة ليس لمداها حد أو نهاية، فكانت هي الواحة التي اويت الى ظلها ولذت الى فيئها، استروح فيها نسيم الراحة والبهجة بعد هجير الكدّ والشقاء والعناء في حياتي الفارغة الواهية . لقد كانت كل املي وهدفي في الحياة ، وكانت كل خطواتي انما تستهدف هذا الهدف ، وأخيراً تنتهي هذه الحياة العريضة بحماقة ارتكبها تطوي معها كل مباهج الحياة ، وتذرو في الرياح هشيم السعادة التي حطمتها بيدي هذه .

وانتبه الى نفسه وقد عاد المراسل يحمل في يده المظروف قائلاً : « لقد غادر الاستاذ نبيل مكتبه قبل ربع ساعة ولم أسلمه لأحد غيره حسب أمرك » .

وتناول الخطاب ووضعه على مكتبه . وفي اليوم التالي

تغيب هو عن المكتب ، وعندما عاد في اليوم الثالث وقع نظره على الخطاب فاستدعى المراسل وأمره بتسليمه إلى نبيل ، وعاد اليه الخادم يخبره بسفر الرجل . وفي هدوء أعاد الظرف هذه المرة إلى جيبه .

وبدأت فترة جديدة في حياة اسماعيل منذ ان وقعت يده على هذا الخطاب . فقد عاد يومذاك الى منزله في خطوات ضعيفة واهنة كأنما هو عائد من معركة خاسرة، واستقبلته أمه بابتسامتها المعهودة . وانتظرت وهي تستقبله وتحييه ان يلقي على مسمعها أخبار شركته شأنه كلما عاد الى المنزل في الايام الأخيرة،وعندما طال صمته قالت وهي واقفة منه غير بعيد « يبدو من صمتك فراغ جعبتك من الأخبار » وفي لهجة مغايرة « أو انها مليئة بالأخبار المهمة وأنت حائر في ترتيبها حسب أهميتها » .

فأجابها مبتسماً ولكن في لهجة متخاذلة « بل هي أخبار مهمة » ومدّ يده بالظرف أمام عينيها واستطرد « أخبار تهمك جداً » هل أقرأها عليك ؟ وجذب امه برفق حيث جلسا الى مقعدين متجاورين . وفضّ الظرف بتأن وهدوء وبعد ان بسط الورقة الأولى استدار الى امه التي كانت تنظر اليه نظرة استيضاح مشوبة بالفزع من صمته المتكلف وهدوئه المصطنع . قال في هدوئه الذي لم يزايله بعد « خطاب مرسل الى نبيل من زوجته ، نسيه بين الأوراق وقد وجدته أمس الأول . ولم يكن في نيتي ان اقرأه لولا

ما ورد فيه من أخبار عن سلوى بعد عودتها الى بيروت .
وقد أشار الخطاب الى موقفي منها مما دفعني الى الاعتقاد بأن الخطاب قد وضع بين الاوراق عن قصد . وقبل ان تنبس عزيزة بكلمة بدأ في تلاوة الخطاب .

وتابعته وهو يقرأ صامتة، مصيخة سمعها الى كل كلمة، وكانت ترفع رأسها اليه أثر كل فقرة ، وعندما انتهى من تلاوته قالت في صوت واه ضعيف اثر تنهيدة عميقة « اذن فهي مريضة ؟ » . فردّ عليها اسماعيل متسائلاً : ما رأيك في هذه الأخبار ؟.

ولم تجبه ، وبعد فترة صمت همت قائمة من مكانها ووقفت تنظر اليه لحظات ثم ما لبثت ان قالت في لهجة قوية زايلها الضعف والحزن « مزّق هذا الخطاب ، انا لا أرى في بقائه اية فائدة » . وكاد اسماعيل ان يعارضها في تمزيقه ، بيد انه ردّ بعد فترة تفكير « لا مانع لدي في تمزيقه » وطوى الخطاب بهدوء وعندما غادرته عاد ووضعه في جيبه وغادر هو الآخر مقعده متوجهاً الى حجرته .

ومنذ تلك الليلة ، عاش مع الخطاب يقرأه في وحدته بعيداً عن نظر امه ، وبمرور الايام تطورت نظرته الى الخطاب، فقد اصبح يرى وراء كل كلمة يقرؤها صفحات مطولة من تاريخه ، صفحات يرى فيها ايامه ولياليه ، بدقائقها ولحظاتها السعيدة ، كانت سلوى تقف له بين كل فترة وأخرى كأنما تذكره من مكانها النائي البعيد بما عسى

ان نسيه .

ونشطت ذاكرته في عرض كل ذلك التاريخ حتى الكلمة العابرة والايماءة البسيطة ، أحاديث ساوى واسلوبها في الحديث وابتساماتها المشرقة ، ورموزها المعبرة « ما عمري؟ لقد نسيت اذن ما قلته لك قبل عام ، انا عمري الآن خمسة اعوام فقط . اني سعيدة يعجبني فيه حساسية الفنان ورقته ، هذا تاريخ الجبرتي ، لا بل مذكرات قلب ... الى آخر ذلك الشريط الطويل .

وكأنما ضاق صحوه في عرض كل الذكريات فاشتركت احلامه تمده بالحوادث كما وقعت والاحاديث كما قيلت ، صراحة ورمزاً . وهكذا اصبحت حياته الواعية واللاواعية دوامة كبيرة يدور فيها وينتهي حيث بدأ ويبدأ من حيث انتهى .

وقبل اسبوعين احس بتخاذل قواه ولزم الفراش ، وكلما عزم على القيام أعيته قواه الواهنة ، وعاده الطبيب حيث امره بملازمة البيت واتباع ارشاداته التي املاها عليه مع انواع من العقارات المتنوعة .

وعادت امه بعد توديع ضيوفها وعندما وصل اليه صوت خطواتها طوى الخطاب واعاده تحت الوسادة في الوقت الذي تناول فيه الكتاب الموضوع على المنضدة الصغيرة وفتحه بسرعة ، واستقبل امه وهي تجتاز باب الحجرة بابتسامة اصطنعها على ثغره قائلاً :

ـ هكذا بسرعة خرج الضيوف ؟

ـ ساعة ونصف ، مدة كافية للزيارة، ثم اني مشغولة بمريض .

فردّ متسائلاً في دهشة :

ـ ساعة ونصف ، هذا غير معقول .

واتجهت الى المقعد قبل ان تقول :

ـ يبدو انك لم تحسّ بمرور الوقت (ثم وهي تنظر الى الكتاب الذي بيده) لا بد وانه كتاب مسلّ ؟

فأومأ اليها برأسه في ايجاب بينما استطرد :

ـ تاريخ وذكريات .

ـ اقرأ لي منه .

ـ من الذاكرة استطيع ان ألخص لك ما قرأته .

فاستدارت اليه في هيئة انتباه وقالت :

ـ اني مصغية اليك .

فطوى الكتاب ووضعه بجواره والتفت اليها قائلاً :

ـ مؤلف هذا الكتاب أديب فيلسوف .

وقبل ان يستطرد رفعت يديها قائلة :

ـ أعـــوذ بالله وانت مريض تقرأ الفيلسوف أين ... القصة التي كنت تقرؤها ؟

فقاطعها قائلاً :

ـ اسمعي أولاً ، الفيلسوف يعني الرجل الحكيم .

فضحكت في استهزاء قبل ان تقول :

ـ اني اعرفه . لقد حدثتني عنه قبل الآن .

ـ هذا غيره . اسمعي أولاً انه يقول : اذا كان قلبك بركاناً فكيف تتوقع ان تزهر الازهار في يديك ؟ .

فصعدت ضحكة وهي تقول :

ـ لم افهم شيئاً .

ـ ليس المهم ان تفهمي معنى هذه الحكمة ، وانما استمعي الى حديث الرجل . انه يؤرخ لنفسه ويصف حياته من طفولته الى أن يصبح رجلاً يستطيع بحكمته أن ينقد ويحلل كل الرواسب في نفسه .

وتحركت في مكانها تهم بالقيام في حركة تشي بضيقها فأشار اليها مستمهلاً وهو يقول :

ـ لم تستمعي بعد الى قصته .

وردت عليه وهي تهم بمغادرة الحجرة :

ـ أنا لا احب الفيلسوف .

فسارع قائلاً :

ـ لنترك هذا الكتاب اذن . ما رأيك في ان اكتب لنبيل خطاباً اسأله عن سلوى ؟

فوقفت في مكانها مفكرة قبل ان تردّ :

ـ انا لا امانع في ذلك . ولكن هل هناك فائدة ؟

فقال متشجعاً :

ـ محاولة . ربما استطيع ان اتدارك الامر ، لقد شعرت بخطئي الآن .

ـ بعد فوات الاوان . الا تذكر ما جاء في الخطاب الذي قرأته عليّ . انك ضعيف الذاكرة ، ولا تثبت على رأي واحد (ثم عادت تجلس في مكانها مستطردة) أرجو ان لا يتصرف منصور في حيـــاته مثل تصرفاتك . اني حائرة الى الآن في فهمك او فهم معنى لتصرفاتك الأخيرة وموقفك من سلوى .

فرفع رأسه بعد ان كان مطرقاً يتتبع حديث امه في صمت وقال :

ـ أما منصور فمن المؤكد انه شخص آخر بعيد عني كل البعد .

ـ ولكنكما شقيقان .

فردّ وقد عاد الى اطراقته :

ـ لم يواجه في حياته ما واجهت .

ـ أنا لا افهم هذا الكلام . انك محظوظ في حياتك وتستطيع ان تتدارك خطأك (ثم في لهجة دعاء) أرجو ان يتحقق أملك .

ـ أرجو ذلك .

ثم ردد في سره « لا أعتقد » .



ألا تذكر ما جاء في الخطاب الذي قرأته علي

٣٠

ومرت الايام ...

أربعة اعوام طويلة منذ ان سافرت سلوى وسافر أبوها، وكانت شؤون الحياة قد باعدت بين اسماعيل وبين التفكير في امرهما ، فقد بعث في بداية تلك الفترة ثلاثة خطابات متتالية باسم نبيل، وانتظر الاجابة ، وطال انتظاره فتلاشى الامل،ومن ثم توارى الماضي ، كل الماضي وراء المشاغل وشؤون الحياة .

وكان هذا الصباح كأي صباح في شتاء مدينة الرياض، الريح الباردة تصفع وجوه النوافذ بعنف وتزأر بشدة من خلف الابواب المغلقة ، وكان اسماعيل يجلس الى مكتبه صامتاً ينظر الى المدفأة الموضوعة في اقصى الحجرة،سارحاً بأفكاره بعيداً الى الوراء ، شأنه كل ما اختلى بنفسه ، مستعرضاً الاعوام الاربعة الاخيرة منذ ان افترق عن

سلوى ، وما تلا ذلك من احـداث ، انفصال نبيل عن الشركة وانفراده هو بالعمل فيها ، ثم عودة أخيه منصور بعد ان انتهى من دراسته ، وانضمامه اليـــه في العمل ، وتأسيس مكتب لشركته بالرياض وازدهار مركزه المالي نتيجـــة لازدياد نشاطه وتطور اعماله . ثم هذا الاحساس الدائم بأن في حياته شيئاً ما ينغص عليه هذه المتعة ، متعة الشعور بالنجاح ، لقد كان يحلم بالمـــال فتحقق حلمه ، ترى هل كان المال هدفه الحقيقي ؟ لو كان الامر كذلك اذن لرضي بما وصل اليه من الثراء الذي فـاق تصوره .

ويقف عند هذا الحد من استعراض حياته، فقد كانت صورة سلوى في لقائها الاخير تبدو أمامه دائماً عند هذه النقطة، يتمثلها في وقفتها الاخيرة وقد استحال لون وجهها الوردي الى صفرة فاقعة، وسماتها الصافية الى كدرة قاتمة، وتخاطبه على هذه الصورة التي يتمثلها كأنما هي خيال من وراء حاضرها الذي يجهله تمام الجهل « لقد كنت أنا الهدف الحقيقي ، ولكن الامر اشتبه عليك ، فاضطرب حكمك وتعجلت فحطمت قلبين وقضيت على نفسين ، من الممكن ان يكونا شيئاً كبيراً عظيماً في هذه الحياة ، ما أبعـــد الشقة بيننا الآن ، لا يدري أحدنا عن الآخر شيئاً ، ما افظع ان ينتهي الامل الى هـــذه النتيجة ، وما أبشع ان تكون الخيبة فيه على هذه الصورة » .

وانتبه الى نفسه اخـــيراً فنظر الى ساعته ثم اتجه الى

النافذة المطلة على شارع الوزير ، ثم عاد ثانية الى مقعده في هيئة انتظار ، ينظر الى الاوراق التي امامه نظرات خاطفة تومي الى قلقه ، ثم ما لبث ان ضغط الجرس يستدعي الحاجب .

وقبل ان يتحدث اليه ، كان سائق سيارته يدخل عليه الحجرة ويخبره بتأخر وصول الطائرة التي تقلّ منصور عن موعدها المحدد فيومىء اليه ان ينتظر في حجرة أخرى الى ان يحين موعد وصول الطائرة ،ومن ثم يصرف الحاجب على أثره ويعود الى عمله .

ولم تمض لحظات منذ ان هدأت نفسه وانصرف الى مطالعة الاوراق المعروضة عليه ، حينما سمع طرقات استئذان على بابه ، ودون ان يرفع رأسه ردد بصوت مرتفع «ادخل» . اجابة آلية يرددها دائماً دون ان تقطع عليه استمراره في عمل يكون بين يديه . وبعد لحظات عندما احس بخطوات الطارق تقترب منه رفع رأسه واذا به يفاجأ بكمال صديقه القديم ورفيق صباه وزميله في الدراسة .

وبهت لحظات وهو يردد بصره في حيرة كأنما يكذب نظره ، كان شكل كمال قد تغير ، فقد امتلأ جسمه واشتدت سمرة وجهه ،اما سمات وجهه فلم تتغير . الصورة هي الصورة ذاتها ، تلك التي عرفها اسماعيل على مدى ايام الطفولة وفترة الصبا الذاهب ، وعندما تأكد من ان كمال صديقه هو الذي يقف امامه ، نهض واقفاً وهو يبتسم

ويردد متسائلاً « كمال » ؟.

وكان كمال يتجه اليه في خطوات بطيئة وعزم متردد كأنما يجس بنظراته مدى انفعالات اسماعيل لرؤيته . وعندما واجه ابتسامة صديقه وتساؤله المتلهف ضاعف من خطواته، واسرع اليه ، وكان اسماعيل قد خرج الى مقدمة المكتب وفتح ذراعيه وتعانقا ثم ما لبثا ان شدّ كل منهما على يد الآخر في حرارة في الوقت الذي نظر كل منهما نحو الآخر نظرات عميقة ، يستعرض بها التغيرات التي طرأت على صديقه ، وكان الصمت يظللهما في هذه الوقفة القصيرة كأنما هي فترة تأمل ، او هي لحظة تذكر .

لقد باعدت الايام بينهما مدة تقرب من عشر سنوات، وكانا قبل ذلك صديقين لا يفترقان .

في مطلع الصبا الباكر ارتبطا بصداقة الجوار وزمالة المدرسة ، وذكريات عميقة عمق الازل ، كانت تمثل في نفس كل منهما أزهى فترات العمر . وفي هذه اللحظة التي يجتمعان فيها على غير موعد بينهما وعلى غير علم من اسماعيل، يصمت كل منهما وهو يواجه الآخر كأنما يستعيدان الماضي كله في لحظة الصمت هذه . وكان اسماعيل اسرع الاثنين في استعراض حياته منذ ان كان صبياً يقطن ذلك المنزل المتهدم الذي يقع في زقاق الباشا بحي السدّ في جياد . ذكريات اليمة واخرى سعيدة ، وكل الذكريات يسعده استعراضها كلها خلا الى نفسه . وتبدلت صورة كمال

الذي يقف امامه شاباً طويلاً عريضاً ، الى صورة كمال الفتى النحيف ، ذلك الفتى الذي عرفه وآخاه وصادقه فترة من العمر طويلة في مطالع الصبا الباكر ، وذكر وهو يلمح الماضي تلك الظروف الأليمة التي واجه فيها صديقه كمال على حقيقته ، وطافت على سماته المبتهجة سحابة حزن دفين سرعان ما طواها وهو يردد في دهشة بالغة وينظر الى كمال نظرة المتمعن المتفكر :

– انا لم اصدق نظري بعد ، هل هذا صحيح ؟

وردّ عليه كمال في لهجة المتشجع بعد ان كان متردداً:

– وانا كذلك لم اصدق ، ولكن جزى الله الأسباب. وكما كنت استقي اخبارك من منصور بعد ان غادرت المدرسة،فقد عاد هو ذاته واصبح السبب في هذه المقابلة .

وقبل ان يتساءل اسماعيل كان كمال يستطرد :

– لقد التقينا قبل اسبوعين في جده لأول مرة منذ ان سافر الى مصر ، كان ذلك بطريق الصدفة الخالصة وتكرر لقاؤنا بعد ذلك ومنه عرفت عنوانك . كما عرفت اخبارك. وقبل ثلاثة ايام تركته في جده وقدمت انا الى الرياض على امل اللقاء بمكتبك في موعد حددناه،هو هذا الموعد، اين هو الآن ؟

فقال اسماعيل وهو يتجه الى احد المقاعد مشيراً لكمال بالجلوس :

– سوف يصل بعد ساعتين ، لقد تأخرت الطائرة عن

موعدها المحدد (ثم في لهجة تساؤل شفعها بابتسامة) لقد عرفت اخباري اذن فما هي اخبارك ؟

واطرق كمال لحظات قبل ان يجيب :

— لقد سررت لسماع اخبارك ، واخشى ان لا تسرك اخباري ، ولا ادري ربما سمعت طرفاً منها .

فردّ اسماعيل :

— منذ زمن ، اخبار قديمة (وبعد ان فكر لحظة) لي عن اخباركم اربع سنوات او اكثر . (ثم في لهجة مترددة) منذ تزوجت سميرة ومرض والدك . هذه آخر معلوماتي عنكم (ثم مستدركاً) ألا تدري اني قابلت اختك سميرة (وضحك قبل ان يستطرد) ليست هي طبعاً وانما صورتها بالضبط في طفلة كانت تسكن هذه العمارة التي نحن فيها الآن ، طفلة في الرابعة من عمرها عندما قابلتها،ومع الاسف فقد انتقلوا من هذه العمارة منذ سنة .

ورفع كمال بصره فجأة الى اساعيل وتساءل :

— وهل عرفت اسم الطفلة ؟

وابتسم اسماعيل قبل ان يجيب :

— طبعاً، فقد كنت صديقها المفضل وكثيراً ما كانت تدخل عندي في هذا المكتب ، وكنت كلفاً بها الى اقصى حد ، واستمرت صداقتنا مدة عام كامل ولكني لم اعرف اسم ابيها . ان اسمها « نوال » .

— نوال ؟

قالها كمال في لهجة المشدوه .

– نعم نوال ، على ما اذكر ، صورة طبق الاصل من اختك سميرة عندما كانت في مثل هذه السن .

واطرق كمال شارداً بأفكاره لحظات قبل ان يرفع رأسه ويردد في صوت مرتجف :

– نوال هذه ابنة اختي سميرة . وهي صورة من امها كما وصفتها ، اذن فقد كانوا يسكنون هذه العمارة . اني لم ازرهم خلال اقامتهم بالرياض .

وكاد اسماعيل ان يقفز من مكانه وهو يتساءل :

– هل هذا صحيح ؟ ولكن ما الذي اتى بهم الى الرياض ؟

فردّ كمال وهو ما زال تحت تأثير الدهشة البالغة :

– لقد كانت تقيم مع زوجها هنا قبل ان ينفصلا بالطلاق منذ عام واحد ، انهم لم ينتقلوا الى منزل آخر كما ظننت ، وانما عادت سميرة الى جدة بصحبة أمها بعد طلاقها ، وهي الآن تقيم معنا هناك .

احس اسماعيل بالدهشة والعجب وهو يستمع الى هذه الاخبار ، وكأنما خشي ان يقطع عليه العمل حبل الحديث فاستدعى الحاجب وامره بأن لا يسمح لاحد بالدخول، ثم استدرك بعد ان نظر الى ساعته وامره بأن يبعث السائق الى المطار لاستقبال منصور ، وتتبع بنظره الحاجب وهو يغادر الحجرة ثم استدار الى كمال قائلاً في شرود :

ـ ما هذه الاخبار ؟. انها حقاً رصيد السنوات الطويلة، وحصاد ايام الفراق ، ما اعجب هذا الذي اسمعه، مسكينة سميرة ، لقد كانت طفلة وديعة وكانت ذكية ولبقة ومؤدبة ، ولم تشفع لها كل هذه الصفات في الحيلولة دون ما وقع ، سبحان الله .

وأطرق لحظة :

« حقاً ان الحياة يانصيب ، شختاك بختك ، بعضهم يجد علبة حليب ولا يجد البعض الآخر سوى علبة كبريت فارغة او طراطيع فاسدة ، هذا الحديث او قريباً منه كان موضوع نقاش بيني وبين أخرى هي الآن بعيدة كل البعد عني ، لقد أصبحت هي الأخرى خيالاً أستعرضه في وحدتي وذكرى ألمحها عن بعد كأنما تلوح للعين على مدى الافق البعيد نجماً خافتاً يتوارى بين الكواكب المنيرة، ما اعجب هذا ، هنا ، ثالوث عاثر الخطوات ، أطفال ثلاثة في يوم عيد يبحثون عن حظوظهم بين اقرانهم وتتحرك رغباتهم المشوقة نحو علبة حليب يرضون بها نفوسهم المتطلعة الى المجهول ، ولكنهم ويا للأسف ، لا يجدون سوى مسامير صدئة او طراطيع فاسدة، فهل هذه حقيقة الحياة؟»

واستأنف في صوت متخاذل :

ـ ولكن اعجب ما اسمعه هو ان نوال ابنة سميرة، هذا شيء غريب ، واغرب منه ان لا اعرف ذلك الا بعد مضيّ سنة من انتقالهم الى جدة . (ثم في لهجة

تساؤل) ولكن ما سبب الطلاق ؟

وردّ كمال في لهجة حزينة :

– هذا قضاء الله ، لقد استمر الخلاف بينهما سنوات عديدة ، الربيع والخريف كيف يلتقيان ؟ لقد سامهـا الرجل سوء العذاب بغيرته . وأخيراً انتهى الامر الى النتيجة المحتومة . خلال شهور قليلة تصاب الاسرة بحادثين : فقد توفي والدي قبل طلاق سميرة بثلاثة شهور (ثم في لهجة أسيفة) : مالي استطرد في الاخبار السيئة ، وقد كان واجبي ان اؤجل التحدث عنها الى وقت آخر .

– البقية في حياتك والبركة فيك على كل حال ، وآسف لهذه التعزية المتأخرة ، فقد افترقنا منذ زمن وانقطعت اخبار كل طرف عن الطرف الآخر ،وانا الآن في حاجة الى استقاء اخبارك والاستماع اليك .

واختنق صوت كمال وهو يقول :

– سرعان ما مرت الايام ، عشر سنوات ، من كان يظن ذلك (وبعد تنهيدة عميقة من صدره) لقد استنفد مرض والدي كل ما جمعه في حياته ، الحمد لله على كل حال .

وقاطعه اسماعيل :

– لنؤجل هذا الحديث الآن وقام الى مكتبه وضغط الجرس. وعندما مثل الحاجب امامه استدار الى كمال ضاحكاً، لقد نسينا انفسنا ماذا تشرب ؟ شاي طبعاً .

وامر الحاجب باحضار الشاي واستدعاء السكرتير .

وبعد لحظات كان السكرتير يقف الى جانبــه يعرض عليه اعمال الشركة ، بينما كان كمال يجلس منه غير بعيد ونظراته الشاردة تشي بانفعاله وتأثره لمجرى الحديث ،فهو لم يتوقع قبل ان يصل الى مكتب اسماعيل ان يفاجأ بتأخر منصور ولا ان يجري الحديث بينه وبين اسماعيل على هذا الوجه من المفاجآت الغريبة .

وكان اسماعيل – وهو يناقش سكرتير المكتب – يسترق النظر إلى صديقه نظرات ملؤها التساؤل ، تساؤل المتردد . ترى لو طلبتها الآن ماذا يكون الجواب ؟

ويهتز لهذا التساؤل الوافد ، لقد قالها كلمة من قبـل اعوام في مناسبة يذكرها الآن ، نقاش حاد جرى مع امه، اجاب خلاله على هذا التساؤل ، وبعد فما قيمة القبول في نظره بعد ان رفضت هذه الاسرة طلبه قبل اعوام ، فوز لا يعتز به ولا تبتهج به نفسه .

أهو الشعور بتحقيق ما عجز عن تحقيقه في ماضيه ؟

ما اتفهه من شعور ، ليحمد تلك الظروف التي دفعته الى العمل وغيرت اتجاهه في الحياة،هو اليوم غيره بالامس، ذلك الأمس الذي احس فيه بالضياع ، وما جدوى التفكير في امس تركه وراء ظهره ، ما جدوى بعثه من جديد ؟ ومع ذلك فهناك من هي اولى منها بالتفكير والتساؤل : ترى ما أخبارها منذ اربع سنوات ؟ ويلي، كيف استطعت

ان أقف منها ذلك الموقف ؟ كأنما طمست بيدي صفحة أشرقت سطورها بأجمل تاريخ سعدت به على مدى الايام، والآن ، ماذا بقي لي ، لا شيء،ومن الحماقة ان افكر .

وصعّد زفرة انتبه معها على صوت السكرتـير وهو يحدثه ويجد نفسه بعيداً عنه ، فيرفع يديه الى رأسه كأنما يشكو من صداع طارىء. وانسحب السكرتير ، وقبل ان يغيب وراء الباب كان منصور يفد على الحجرة وقد امسك بيده حقيبة اوراق صغيرة ويبتسم ابتسامة عريضة قبل ان يحيي اخاه بصوت مرتفع ، ثم يقف فجأة بعد ان يرى كمال جالساً على احد المقاعد وقد أمسك بيده صحيفة يقرأ فيها . والتفت الى كمال قائلاً :

— لقد احتفظت لنفسي بسرّ المفاجأة ، فأضعتها عليّ بحضورك قبلي .

وابتسم اسماعيل وهو يقف لاستقبال اخيه ، بينما وقف كمال يحييه بابتسامة اخرى ويقول :

— لو حضرت قبلي لوفرت عليّ مؤونـة الجهد الذي بذلته من اعصابي وانا اقابل اسماعيل بعد هـذه الاعوام الطويلـة ، ان من السهولة ان تخلق لنفسك صداقات ، اما تجديد الصداقات القديمة فهو أمر صعب ، لقد احترت وانا اقابله بعد الاعوام الطويلة هل احدث اسماعيل الذي افترقت عنه منذ عشر سنوات تقريباً ، ام احدث شخصاً اقابلـه لاول مرة ، ما اصعب ان تحدد لنفسك مستوى

الحديث .

وضحك منصور وهو يشد على يده بحرارة ويقول :

— ولكن سرعان ما يذوب الثلج ، اعتقد ان حديثكما دار على مستوى احاديثنا الماضية ، دكان العم محمد وصبيان حارة السدّ ، وزقاق الباشا . وهل من المعقول ان يكون حديثنا على غير هذا المستوى ؟

واتجه الى اسماعيل الذي ما زال واقفاً وتعانق الاخوان في اشتياق واستطرد منصور يوجه الحديث الى كمال ويشير بيده الى اسماعيل :

— انظر ، لقد اشتاق إليّ ولم اغب عنه سوى عشرين يوماً .

فردّ اسماعيل مبتسماً وهو يغادر مقعده متجهاً الى حيث جلس الاثنان :

— ريحة الحبايب ، ورصيد سنوات طويلة من الشوق. وبالرغم من مرور عامين على عودتك الا انني اشعر بحاجتي الى ان تكون قريباً مني دائماً ، الا تذكر غيابك عنـــا أعواماً طويلة ؟

فتنهد منصور قبل ان يجلس وقال :

— سرعان ما مرت ولا فائدة من تذكرها الآن (ثم ضاحكاً) ولكن كلامك هذا كلام شعراء ، شعر منثور ، او نثر مشعور لا أدري ما يسمونه . (والتفت الى كمال قائلاً) ألا تدري ان اسماعيل قد اصبح من هواة الأدب

والفلسفة . لا ادري كيف تسنى له ان يكتسب هذه الهواية وكيف استطاع ان يحققهـــا مع ان عمله أبعد ما يكون عن ذلك ؟

واطرق اساعيل ...

« منصور ، ومنصور دائماً ، صاحب المفاجآت ومثير الذكريات، ويل الشجي من الخلي ، يتساءل كيف اكتسبت هذه الهواية ، لو درى كيف اكتسبتها وكيف أحببتها ما كان هذا السؤال دائم التردد على لسانه ، منذ اليوم الاول الذي عاد فيه بعد انتهاء دراسته ، تساءل وهو يرى الكتب تحتل الاركان المهمة من المنزل ، ما هذه الكتب ؟ هل هي هواية جديدة ؟ وهل قرأت كل هذه المجموعات ؟ هو لا يدري اني بهذه الكتب اؤرخ حيـــاتي ، وبتاريخ قراءتها استطيع ان احدد تطور عواطفي ، حتى لقد اصبح لكل كتاب رائحة خاصة ، شذى فواح يمثل تاريخي ، فصول العام وبروج الفلك هي هذه الكتب.ديوان شعر قرأته في ليلة مقمرة ذات ربيع عاطر ، وقصة عاطفية عشت في احداثها ليلة شتاء، وكتاب فلسفة قرأته في مطلع خريف ندي، واطار الصورة — بعد — نقاش حول قصيدة ، ورأي في بطل الرواية ، وشرح لنظرية فلسفية ، انا الآن اعيش في هذا التاريخ ، أجترّ احداثه واستعيد ذكرياته ، ويقولون عني « محظوظ » ما أتفه حظاً نلته على هذا الوجه ، ليت حظي كان على الوجه الذي أرتضيه . سمـــيرة ثم سلوى

كانت الاولى بطريق غير مباشر سبب شقائي ، وكنت انا بعد اعوام سبب شقاء الأخــرى ، وها نحن الآن نمثل الثالوث الشقي في هذه الحياة . تري ما مصير سلوى بعد مرضها ؟ الآن أذكر قولها : من السهل ان تكون كبيراً في أعين الناس ، ولكن من الصعب ان تكون كبيراً أمام نفسك . نعم ، عندما تتجرد النفس نرى الحقيقة دون زيف او خداع ، انت تخدع الناس ولكن لا تستطيع ان تخدع نفسك، هذه حقيقة ادركها الآن بعد فوات الاوان » .

قال كمال :

ـ لقد كنت على حق اذن حينما ترددت في حديثي معه ، فهو الآن غيره بالأمس واخشى ان يكون التغير شاملاً .

فردّ اسماعيل وهو ما زال سابحاً في خضم افكاره الوافدة :

ـ الحياة والتجارب والكتب لا تخلق شيئاً جديداً في الانسان قدر ما تنمي فيه طبائعه الأصيلة ، هي روافـــد فقط تمدّ الاصل بما يكفل له البقاء والنمو ، ان كتاباً واحداً نقرأه نحن الثلاثة في وقت واحد ، ربما يفهمه كل منا على وجه يختلف عن فهم الآخر ، ان الوجدان يتجه دائماً نحو مشربه واتجاهه وما يخصه من التجربة المقرءة او التجربة الحية التي يواجهها في الحياة . اذن فأنا لم أتغير ، اسماعيل الذي عرفته طفلاً قبل اعوام طويلة هو اسماعيل

نفسه الذي يتحدث اليك الآن . (ثم ما لبث ان ضحك مستطرداً) ما رأيك في هذه الفلسفة ؟

وضحك كمال :

– لقد تغيرت حتماً، افكارك اليوم غير افكارك الامس، يبدو ان رحلتك في الحياة كانت مليئة بالتجارب .

فتدخل منصور :

– يا لها من تجارب ، ولو جلست معه وقتاً أطول لأدركت ذلك بنفسك .

فقال كمال معقباً :

– رحلة ممتعة في تيار الحياة غير ميسورة لكل انسان.

وكان اسماعيل يمسك بيده قدح الشاي الذي تناوله من الخادم ، وبعد ان كان يزمع الارتشاف منه عاد ووضعه على المنضدة وهو ينظر الى رفيقيه ، وقد مدّ كل منهما يده يتناول قدحه . لقد كان عليه ان يعقب على حديث صاحبه ، ولكن بماذا يعقب ؟ يوافقه على رأيه، ام يصحح له رأيه ؟ أية رحلة تلك ، لقد كانت رحلة طويلة في تيار الحياة ، نعم ، ولكن هل كانت ممتعة ؟

وشحذ ذاكرته يستعيد احداث هذه الرحلة ، ذكريات عفى عليها النسيان، طبقة كثيفة من ركام الاحداث العابرة حجبت عن نظره آفاق ايامه الحالية ، هو الآن يستقبل بهذا الحديث ما استدبره خلال الاعوام الماضية ، وهو الآن يضع قدميه على البرّ متجهاً ببصره بعيداً نحو المحيط

الممتد امامه ، محيط عظيم ، قطعه في رحلته ، العمل الحرّ ، والنجاح المتوالي ، والمال الوفير ، لقد تحول التراب في يده الى تبر .

لقد مارس في حياته العملية تجربة الكيمياء الاسطورية، فحوّل الحديد الى ذهب ، ولكن هل قاده كل ذلك الى السعادة التي استهدفها ، لقد قالت له في ليلة يذكرها حق الذكرى ، السعادة هنا ، نعم هنا في اعماق النفس، قريبة كل القرب منا فما لنا نبحث عنها بعيداً عن انفسنا .

لقد أحس الآن بالارهاق المضني عقب رحلة طويلة في صحارى الزمن ، كان يبحث فيها عن شيء لا يدريه وتخبط في طريقه ذات اليمين وذات الشمال وهو الآن يحطّ الرحال ويجتر ماضيه بنفس أضناها ضياع الهدف . عشر سنوات منذ ان افترق عن كمال ، تاريخ ولا شك طويل، إلام انتهى ؟ حياته الآن خواء وزمانه فراغ ، لقد عاد بهذه الجلسة الى يوم بعيد يتمثله بوضوح وجلاء كأنما طوى هذه الفترة الطويلة يطل من وراءها على ماضيه ، كمال يجلس بجانبه ، هي جلسة الفصل الدراسي ، لا ينقصها شيء ، حتى منصور ، انما يكمل بوجوده الصورة التي يتمثلها ذهنه .

والتفت الى كمال ضاحكاً معقباً على حديثه :

ــ تقول رحلة ممتعة ؟ لا اذاقك الله متعتها على كل حال .

وضحك منصور موجهاً حديثه الى كمال :

ــ ألم اخبرك ؟ لقـــد اصبح فيلسوفاً ولكنه متشائم والعياذ بالله .

فقاطعه اخوه :

ــ اتركنا من هذا الحديث (ثم ملتفتاً الى كمال) اننا لم ننته من حديثنا ، قل لي اين تعمل الآن ؟

ونظر كمال الى منصور مبتسماً فأسرع هذا قائلاً :

ــ عمله عمل كل شاب في هذا البلد ، الوظيفة . وهل هناك غير الوظيفة ، راتب مضمون ومستقبل مأمون ، وما يتبع ذلك من الامتيازات ، راحة البال ، الطمأنينة النفسية .

فقال اسماعيل بعد ان اشار اليه بالسكوت :

ــ انا لم اسأل ماذا يعمل ، وانما قلت اين يعمل .

فضحك منصور قبل ان يقول :

ــ شرح لا بد منه ، ومع ذلك فاني اجيبك بأنه يعمل باحدى الادارات الحكومية بجدة ، اي ادارة تتصورهـــا ، هذا غير مهم ، وهو غير مرتاح في عمله ، لضآلة الراتب ، مع استطاعته لبذل مجهود اكبر من طاقته في سبيل الحصول على راتب اكبر ، لقد اقترحت عليه ان يعمل معي بمكتب جدة ، وسنترك لك ابداء الرأي .

والتفت اسماعيل ينظر اليهما في وقت واحد ، وقد وشت اساريره بابتهاج لا يدري مبعثه وقال :

ــ أنا ؟ انا رأيـي معروف بداهة ، وهل من المعقول

ان يكون غير الترحيب ، (ثم ضاحكاً) فرصة على كل حال ، نعود بها الى فترة الصبا، ذكريات ايام الدراسة ، وحارة السدّ ودكان العم محمد، (ثم امسك مقدمة جبهته مقطباً قبل ان يستطرد) اني لم اتوقع ابداً ان نجتمع هكذا بعد هذا التاريـــخ الطويل . من يصدق هذا الذي يحدث الآن بعد ان كان مستحيـلاً في تصوري؟على كل حال ، فالحياة بالنسبة لي لم تتغير ،واجتّماعنا على هذا الشكل يؤكد هذه الحقيقة .

فقاطعه منصور مندهشاً :

ــ فماذا اقول انا وماذا يقول كمال اذن ؟

ــ تختلفان عني على وجه التأكيد (ثم التفت الى كمال متسائلاً) لقد تزوجت طبعاً ؟

فأجابه منصور في سرعة :

ــ وأنجب كذلك ابناً وبنتاً . لقد سبقك،وكان أشجع منك . وانا في انتظارك ، انتظار خطوتك الموفقة،لأحذو حذوك ، ارجوك ان تعجل ، فقد طال انتظاري .

وضحك اسماعيل ضحكة باهتة قبل ان يقول :

ــ لا ، لا تنتظرني فقد فاتني القطار .

وقاطعه منصور في حدّة :

ــ نتائج الفلسفة ولا شك ، هذه هي النهايـة ، اي قطار هذا الذي فاتك ، اركب اي قطار،قبل ان تفوتك القطارات جميعها . (ثم في لهجة تساؤل) قـــل لي كم

عمرك الآن ؟

ورفع اسماعيل رأسه فجأة وهو يسمع هذا السؤال .

وردد في سره « كم عمري الآن ، ويلي لقـــد نسيت عمري . منذ اربع سنوات سمعت السؤال ذاته ، من ثغر سلوى وبصوتها المغرد ، لقد قالت ان عمرها آنذاك خمس سنوات ، وقد كان عمري انا كذلك ، عملية حسابية اربع سنوات خالية دقائقها فراغ ولحظاتها تعاسة اطرحها من خمس سنوات ، لم يبق معي سوى عام واحد . واين هو العام الواحد ؟ لا لا ، لقد تجمد الزمن بالنسبـة لي من قبل اربع سنوات ، وفقدت بذلك كل ما مضى من عمري . فقدته حقاً ، اذن فما حقيقة عمري ؟

واجاب في لهجة متخاذلة :

— لا ادري . (ثم مغيراً لهجة حديثه) اين الاوراق ؟

فأشار منصور الى الحقيبة وتحرك من مكانـه ، وكان اسماعيل قد اتجه الى المكتب وقبل ان يجلس كان منصور قد احتل المقعد المحاذي وفتح الحقيبة ، حيث بـــدأ في اخراج الاضبارات ، ثم ما لبث ان اخرج ظرفاً صغيراً وهو يقول « خطاب باسمك تسلمته قبل اسبوع وفاتـني ان ابعثه اليك في البريد » ثم مدّ يده بالخطاب الى اسماعيل فتناوله منه وسرعان ما عرف الخط ، انه خط نبيل ، وثبت نظره على الظرف في امعان وتفكير ثم فتحه في عجلـــة وتطلع ، وزحف بمقعده الى الوراء ، وبدأ يقرأ الرسالة .

لقد كانت في صفحتين متوسطتين وكان يبدو على خط نبيل الاهتزاز او انه كتب في عجلة :

« أحييك بعد مرور اعوام ربما تكون قصيرة في عمر الزمان ولكنها طويلة بالنسبة لي ، طويلة بأحداثها المتلاحقة ، لقد انقطع الاتصال بيننا من قبل اربعة اعوام ، فأنا لا اعرف عنك الآن شيئاً ، كما لا تعرف انت عني شيئاً وهذا غريب كل الغرابة بعد الاتصال الوثيق الذي كان يربط بيننا والذي ما ظننت انه سينفصم على هذه الصورة. لقد انقطع حقاً كل ما كان بيننا وبالرغم من ذلك فأنا اكتب اليك هذا الخطاب وربما يكون آخر ما يصلنا بك ، هو النقطة الاخيرة التي تبدو لراكب البحر من اليابسة . انه صدى الصوت الذي يناديني في وحدتي ، وهأنذا ألبي النداء لاول مرة . انت لا تدري ما هي الاحداث التي مرت بنا منذ ان افترقنا ، لقد كنت اوثر ان تبقى بعيداً عن سماعها ولكني ارضخ لنداء بعيد من وراء هذا العالم وأفي وعداً قطعته على نفسي .

لقد مرضت سلوى منذ ان عادت الى بيروت ولعلك قد علمت بمرضها من الخطاب الذي تركته لك عن قصد بين الاوراق ، وعدت أنا الى بيروت لأبدأ حياة جديدة زاخرة بالاحداث ، فقد طال مرض سلوى وأعيا الاطباء مرضها ، وعندما أحسست بالخطر المحيط بحياتها بعد هزالها وضعفها الشديد ، رحلت بها الى اوروبا وطفت بها على

كل طبيب اخصائي سمعت عنه ، ومع ذلك لم نحصل على نتيجة وعدنا الى بيروت قبل شهر واحد ، وبعد عشرة ايام من وصولها اسلمت روحها الى باريها ، واني اكتب لك هذه الرسالة بعد مضي عشرين يوماً على وفاتها ، ولم يكن بودي ان اكتب اليك لولا الوعد الذي قطعته على نفسي امام سلوى .

اني اعرف حق المعرفة سبب مرضها ومع ذلك فقد قالت ربما تنسى والزمن بلسم الجراح ، وعندما ادركت خطر مرضها صارحتها بمعرفتي حقيقة امرها ، وعرضت عليها ان نتصل بك فمانعت وأبت بشدة ان نتصل بك او نخبرك بمرضها ، وسافرت بها الى اوروبا على امل ان تنسى كل ما مرّ . وقد كدنا ان نصل الى النتيجة ولكن الامل كان سراباً ، فبعد تحسن صحتها في الايام الاولى عادت الى حالتها السابقة ، بل الى حالة أسوأ .

لقد سافرنا بها ثلاث مرات دون فائدة تذكر ، وفي عودتنا من آخر رحلة لم تطل حياتها اكثر من عشرة أيام. وقبل خمسة ايام من وفاتها استعادت صحتها وعاد الأمل الى نفوسنا . وقبل وفاتها بيومين اثنين طلبت مني ان اكتب اليك فقلت لها (سمعاً وطاعة) فقالت « هل تعدني بذلك؟ » فكان جوابي ان تساءلت وفي عيني فرحة « وهل سبق ان كذبت عليك ؟ » . ثم اردفت في لهجتي المطمئنة : « هل افهم من هذا شيئاً معيناً ، اني ارى تحسناً ملموساً في صحتك ،

هل فكرت في شيء معين تجاه اسماعيـل ، واني اطمئنك بأنه قد ادرك حتماً خطأه ، ليس اليوم فقط ، بل منذ ان غادرنا جدة . ودليل ذلك خطاباته المتتالية التي لم نرد عليها » . فكان جوابها ابتسامة مشرقة قبل ان تقول: «نعم لقد فكرت ، اكتب اليه غداً او بعد غد ، اكتب اليـه عن مرضي وعن اخبارنا خلال هذه السنوات ولا تكتب له شيئاً آخر وسننتظر جوابه ؟».ولم يحمل الغد المنتظر سوى حالة أسوأ انشغلنا بهـــا عن الكتابة ، اما بعد الغد فكان موعد الفراق واودعناها التراب . واني لاترك ان تتصور حالتي وحالة امها. لقد احسسنا بعد ان أودعناها القبر بأن حياتنا قد انتهت . لقد وقفت عند حدها الاقصى . وربما تتساءل ، وانت تقرأ هذه الرسالة : وماذا بعــد ؟ لقد قررت الهجرة من لبنان مرة ثانية لا الى جدة كما كانت هجرتي الاولى وانما الى امريكا الجنوبية حيث لي بعض الاقرباء وسأبدأ حياتي من جديد بمالي الذي جمعته ، بعيداً جداً عن هنا . سوف ابعد زوجتي عن موطن ذكرياتنـا الحزينة . وعندمــا تمر الايام ، قريباً او بعيداً ، سوف نكون ولا شك جزءاً من ذكرياتك ، وانت ايضاً سوف تبقى في ذاكرتنا صورة من صور الكفاح ، ولكن ...

تری هل وفيت بوعدي لسلوى ؟ اظن ذلك . لقــد اطمأننت الآن ، فوداعاً . المخلص نبيل » .

وعندما انتهى اسماعيل من قراءة الخطاب كان لونه قد

حال الى اصفرار كما زاغت نظراتـه وارتجفت اوصاله ، وسقطت دمعة وكاد ان يجهش بالبكاء ولكنه تماسك .

وكان منصور يتابعه بنظراته في قلق ، لقد ادرك ان الخطاب يحمل اليه اسوأ الاخبار . ولكن ما هي هذه الاخبار ؟ وممن ؟ وانتظر الى ان طوى اسماعيل الخطاب واعاده الى الظرف في حركة تشي بالاضطراب والانفعال فتساءل : « ممن هذا الخطاب ؟ » فردّ عليه في نبرة حزينة مضطربة « من نبيل » وناوله اياه وبدأ منصور في قراءته بينما استأذن هو في الخروج قائلاً « سوف انتظركما في المنزل » وقبل ان يسمع الجواب كان قد غادر الحجرة في اعياء وحزن .

٢١

اجاب اسماعيل على الطرقات المتتالية على باب مكتبه قائلاً :

ـ ادخل .

فدخل حسن عصام الدين بعد ان استدار خلفه في نظرة عابرة الى الباب الذي انقفل مباشرة . وخطى نحو اسماعيل خطوات مترددة في ارتباك ظاهر وشى به تحريك يديه حركات متتالية . وابتسم له اسماعيل ، وحياه بكلمة ترحيب بثت في كيانه الشجاعة التي افتقدها قبل لحظة ، فضاعف من خطواته وسلّم عليه حيث اشار اليه بالجلوس في المقعد المحاذي للمكتب .

وكأنما ادرك اسماعيل حاجة موظفه الجديد الى كلمة تشجيع اخرى تدفعه الى التحدث بحرية في الموضوع الذي جاء من اجله . فأزاح الاوراق جانباً ملتفتاً اليه في حركة تومي الى تفرغه في الاستماع اليه وشفع ذلك بابتسامة ثم قال :

– اني مسرور من نشاطك، وقد تتبعت كل خطواتك منذ اليوم الاول ، واني اهنئك على نجاحك واهنىء نفسي على حسن الاختيار . (ثم في لهجة تساؤل) لقد مضى عام منذ ان عملت معنا على ما اظن .

واومأ حسن برأسه في ايجاب قائلاً :

– نعم، سوف اكمل العام آخر هذا الشهر . (وبعد فترة صمت اردف) لقد طلبت مقابلتك لامر خاص .

فنظر اليه اسماعيل في تساؤل وابتسامة التشجيع ما زالت مرتسمة على ثغره ، بينما استطرد حسن قائلاً :

– لقد اعتزمت الزواج اول الشهر القادم، وارجو منحي اجازة .

فضحك اسماعيل بصوت مرتفع وقال معقباً :

– وهل يستدعي طلب الاجازة ان تطلب مقابلتي على انفراد . ان الاجازة حق من حقوقك المكتسبة بعد ان مر عليك عام كامل (ثم في لهجة تساؤل) ام ان هناك طلباً آخر ؟ (بيد انه استدرك) قل لي اولاً هل اتخذت جميع ترتيبات الزواج ؟

فردّ حسن بايماءة من رأسه « نعم » .

وواصل اسماعيل متسائلاً :

– هل هناك طلب آخر؟

فرد في لهجة المتردد :

– ارجو منحي سلفة على حساب راتبي .

وضحك اسماعيل قبل ان يقول :

ـ هذا هو الطلب الاساسي . ولكن كيف اخبرتني بأنك قد اتخذت كل ترتيبات الزواج ؟

فردّ حسن ضاحكاً بعد ان تشجع بالبساطة التي بدت في حديث رئيسه :

ـ هذا خارج عن ترتيبات الزواج .

ـ كيف ؟

ـ هناك امور اخرى اهم من تدبير المال . (ثم مستدركاً في لهجة اعتذار) في نظري على الاقل .

وأومأ اسماعيل برأسه بينما استطرد حسن :

ـ فرص الكسب المادي متاحة في كل وقت ، اما الكسب العاطفي فمرة واحدة ، مرة في العمر لا تتكرر ، هي ومضة برق سرعان ما تتلاشى .

وابتسم اسماعيل مسحوراً بجمال التعبير ، بينما استيقظ في باطنه احساس بالحزن العميق « درس أتلقاه بعد فوات الاوان ، لقد أدرك هذا الشاب قيمة العواطف الصادقة ، واكتشف نفسه قبل فوات الأوان ، هو الآن يقف على رأس الطريق الطويل يستشرف من موقفه نهاية سعيدة تبدو له مرمى البصر » .

ـ ولا شك قد ادركت ما اعنيه خلال تجاربك في الحياة . انك محظوظ وسعيد ـ دون شك ـ في شقي حياتك المادية والعاطفية ؟

ورفع اسماعيل رأسه متسائلاً :

— انا ؟

— نعم . وارجو ان اكون مثلك .

فردّ ضاحكاً :

— في شطر واحد فقط ، اما الشطر الآخر فلا .

— ألست سعيداً في حياتك العاطفية ؟

فضحك في مرارة وهو يجيب :

— لقد تلاشت الومضة من حياتي منذ زمن بعيد .

وبعد ان صعّد زفرة استطرد في لهجة مغايرة :

— انا موافق على الاجازة . اما السلفة فسأصرفها لك مكافأة . مبلغ لا يسترجع .

وبدا بريق الفرحة في عيني حسن بينما استطرد اسماعيل :

— لأوكد لك سروري بسعادتك التي ستتحقق . (ثم في سره) (لا اقل من ان احققها لغيري ، ما اجمل ان يقال : « شقي يبيع السعادة لطالبيها » .

ثم نهض واقفاً وقد ارتسمت على وجهه آيات حزن عميق ، ولكنه لم ينس ان يبتسم وهو يودع موظفه الصغير الذي راح يردد بضع كلمات لم يتبينها وان ادرك انها كلمات شكر وامتنان .

وبعد اسبوع من هذا الحديث تم كل شيء : فقد امر اسماعيل بصرف مكافأة سخية لهذا الموظف كما ابلغه بالقرار الذي اتخذه بتحسين راتبه .

وعاد حسن يودع رئيسه يوم ان اعتزم السفر، فوقف امامه يكرر شكره بكلمات تنم عن ابتهاجه وسعادته .

كان الوقت ضحى يوم مشرق في مطلع ربيع باسم ، ونسمات ندية تطوف عـلى مداخل الحجرة الكبيرة تحمل تحيات الجوّ العاطر المعتدل .

قال اسماعيل في لهجة مرحة وان شابها شيء من رنـة حزن عميق :

— ادرك الطائرة ، فلم يبق على الموعد سوى نصف ساعة .

— ان الوقت متسع . وقد جئت لتوديعك وشكرك .

فقال اسماعيل :

— لا تستهن بالوقت .

وقبل ان يستمع الى الاجابة كان هو نفسه ينظر الى ساعته ، ثم ما لبث ان نهض من مكتبه وغادر الحجرة متعجـلاً ، ثم التفت — بعد خطوات — الى حسن الذي كان يمشي الى جانبه وقال :

— موعد الطبيب . لقد نسيته .

وعندما وصلا الى باب العمارة مدّ اسماعيل يده مودعاً فشدّ الآخر على يده بقوة ، واتجه كل منهما الى السيارة التي كانت تنتظره .

وسارت السيارتان في شارع واحد مسافة مائة متر تقريباً، ثم انحرفت احداهما الى شارع جانبي بينما استمرت الاخرى

في الطريق المؤدي الى المطار .

* * *

كان منصور في حجرته الخاصة ممسكاً بين يديه بالكراسة التي عثر عليها منذ يومين . ورفع رأسه متجهاً ببصره الى باب الحجرة حيث كانت امه تقف في انتظـــاره وسارع معتذراً بينما كان يقلب الصفحة الاخيرة قائلاً :

ـ دقيقة واحدة فقط :

فتساءلت :

ـ ما هذا الدفتر الذي استغرقت في قراءته ، لقد طلبت منك ان تقرأ لي رسالة اسماعيل الاخيرة ، ما هي اخباره وكيف صحته ؟

فرفع بصره اليها في شرود وردد في صوت عميق كأنما هو صادر من بعيد :

ـ لقد عثرت عليه بين كتب اسماعيل . لقد تركه هنا في زيارته الاخيرة لنا .

وقبل ان تتساءل عما تضمنه ،كان منصور يقف بجانبها ويشير الى الكراس قائلاً :

ـ قصتنا .

وزوت ما بين حاجبيها قبل ان تتساءل :

ـ ماذا تقول ؟

ـ لقد برّ اسماعيل بوعده وكتب قصته وهـي قصتنا كذلك ، ولكن لم يف بوعد طلبناه منه فقد ذكر اسماءنا



وكان منصور يقرأ لامه هذه القصة ، وهي متكئة بمرفقها على حافة السرير

الحقيقية . (ثم في شرود) قصة عجيبة .

— اقرأها لي .

وكان الليل يحث خطاه ، وصياح الديكة يبشر بمطلع فجر جديد . وكان منصور يقرأ لامه هذه القصة ، وهي متكئة بمرفقها على حافة السرير ، وتزفر في تنهيدات متعاقبة وتمسح دموعها بمنديل كانت تمسكه بيدها الاخرى .

ومرت الايام ....

(انتهت)